علي الطنطاوي

فصول اجتماعية

جمع وترتيب حفيد المؤلف
مجاهد مأمون ديرانية



دار المنارة

فصول اجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطنطاوي

فصول اجتماعية

جمع وترتيب حفيد المؤلف

مجاهد مأمون ديرانيّة

دار المنارة
للنشر والتوزيع

ⓒ دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطنطاوي، علي مصطفى
فصول اجتماعية / علي مصطفى الطنطاوي
ط١٧ - جدة، ١٤٤٢هـ   ٣١٢ص ؛ ٢٢×١٥سم
١- المقالات العربية ٢-الإسلام-مقالات ومحاضرات   أ. العنوان
- ديوي ٠٨١   ١٤٤٢/٣٣٣
رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٣٣   ردمك ٤-٠٩-٨٣١٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة السابعة عشرة
٢٠٢١

دار المنارة
للنشر والتوزيع
أسسها الشيخ نادر حتاحت رحمه الله عام ١٩٨٤

ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨

info@daralmanara.com
www.daralmanara.com
daralmanarapublisher

مقدمة

سأفشي سرّاً للقرّاء: إن الكتاب الذي توشكون أن تبدؤوا بقراءته هو واحد من أمتع وأنفع كتب علي الطنطاوي. ولسوف يذكّركم وأنتم تقرؤونه بالكتاب القديم (الأثير لديّ): «مع الناس»، ولولا أن جدي -رحمه الله- قد أعطى هذا الكتاب اسماً لما وسعني إلا أن أجعله جزءاً ثانياً لذلك الكتاب.

ولكن إليكم أولاً -كما هي العادة- قصة الكتاب:

لعلكم تذكرون من مقدمة الجزء الثاني من كتاب «مقالات في كلمات» أن الشيخ قد ترك عدداً من الكتب التي تحتاج إلى شيء من الجهد لإخراجها، وقد حفظت -لطول اشتغالي معه- أسماءها وعرفت موضوعاتها. فلما توفي -رحمه الله- ودُفع إليّ ما تَرك من أوراق رحت أشتغل بها فرزاً وتصنيفاً، فوجدت بخطه ورقة قد كتب عليها بقلم الرصاص أسماء عدد من الكتب، وهي الكتب التي كان يظن أنها يمكن أن تُجمَع وتُنشَر مما سبق نشره من مقالات في الصحف والمجلات. وقرأت تلك القائمة فوجدت بين العناوين واحداً لم أسمع به من قبل فيما كنت أسمع من عناوين، ولم أعرفه فتركته لعلي أعود إليه من بعد. وكان ذلك العنوان هو «فصول اجتماعية».

فلما مضيت أشتغل بالأوراق عثرت على ورقة أخرى في رأسها عنوان «اجتماعية» وتحته قائمة بأسماء مقالات عرفت بعضها ولم أعرف بعضاً، وهي من المقالات القديمة التي نُشرت في الخمسينيات والستينيات في بعض صحف الشام ولم تعرف طريقها إلى أيٍّ من كتب الشيخ المنشورة (ما عدا اثنتين: مقالة «كتاب تعزية»، وقد أضيفت إلى كتاب «صور وخواطر» في طبعة جديدة له، و«هجوم على الأطباء» وقد نشرت في الجزء الرابع من «الذكريات» ومعها تكملتها: «دفاع عن الأطباء»).

ولم يكن ما تركه الشيخ مرتباً مصنفاً، بل كان ركاماً من الأوراق قد اختلط بعضه ببعض وتداخل بعضه في بعض، فقد بَعُدَ العهد بآخر عمليات الترتيب والتصنيف التي كانت تجري بين وقت وآخر، بل لعل عشر سنوات قد انقضت منذ ذلك الحين. فكان عليّ أن أغوص في ملء كراتين من الأوراق أستخرج من بينها المقالات وأجمعها من هنا وهناك، حتى وجدت ست عشرة مقالة من تلك التي أراد الشيخ إدراجها في هذا الكتاب، وافتقدت العشر الباقيات فلم أعثر عليها.

وكان من خطتي، منذ بدأت العمل في أوراق جدي رحمه الله، أن أجمع المؤتلف من المقالات وأستبعد المختلف، حتى أخرج بكتب متقاربة الوجهة متحدة الموضوع. فاجتمع لديّ من الأشباه والنظائر -مما يوافق موضوع هذا الكتاب- أربع وعشرون مقالة، منها ما كان في الأصل مقالة نُشرت في وقت ما في مكان ما، فنقلتها كما هي، ومنها ما كان حديثاً أُذيع من إذاعة دمشق قديماً أو من إذاعة المملكة في السنوات اللاحقة، وجدتُ مسوّدته

فبيضتها وصنعت له عنواناً يناسبه. فصار في هذا الكتاب من المقالات أربعون مقالة.

ثم إني قد وجدت أبواباً ينتظم الواحد منها عدداً من المقالات فجعلت ترتيبها تبعاً لذلك (من غير تبويب ظاهر للكتاب)، فوضعت المقالات التي تحدثت عن تربية الأولاد في تسلسل واحد، وجمعت المقالات والأحاديث التي خصصت للزواج وعلاقات الأزواج بعضها مع بعض... إلى غير ذلك مما سيلمسه قارئ هذا الكتاب من ترتيب قد أكون وُفِّقت في بعضه أو جانبني فيه الصواب.

ولم أصنع -بعد ذلك- غير ما ظننته لازماً، من تصحيح لأخطاء مطبعية لم يَجرِ عليها قلم الشيخ سابقاً بالتصحيح (وقليل من مقالات الصحف ما وجدته نجا من التصحيف والتحريف)، أو إدراج حاشية توضّح غامضاً أو تشرح واحدة من غرائب المفردات، ولم أخلط شيئاً من ذلك بما صنعه الشيخ لبعض المقالات من حواشٍ، بل ميزته باسمي بين قوسين.

* * *

وبعد، فهذا هو الكتاب الرابع الذي وفق الله عَزَّ وَجَلَّ إلى إخراجه من الكنوز التي تركها علي الطنطاوي وراءه، وما بقي -بعدُ- كثير. ولا أحسب أن شيئاً مما صدر صدر إلا بتوفيق الله وعونه، ولعل دعوات بظهر الغيب من قارئ لم يعرفه الشيخ ولم أعرفه، ولم يلقَه ولم ألقَه، قد سهلت ويسرت صدور هذه الكتب. فأسأل الله أن يديم توفيقه ويُتِمّ فضله بتيسير إخراج ما بقي من

كتب، وأسأل من دعا يوماً بأن يُتم الله هذا الأمر أن يدعو اليوم من جديد، ومن لم يكن صنع ذلك أن يكون شريكاً الآن في الدعاء.

اللهمّ لك الحمد على ما يسرت، ولا تحرمني وجدّي من الأجر على كل خير تقود هذه الكتب إليه أو تدل عليه. اللهمّ آمين.

مجاهد مأمون ديرانية

جدة: شوال ١٤٢٢

ثلاثة مشاهد من حياتنا

نشرت سنة ١٩٦١

-١-

كنت مرة خارجاً من داري صباحاً مسرعاً إلى عملي في المحكمة، فما برزت من الباب وهممت أن أغلقه ورائي وأمضي حتى رأيت أمامي زائراً جاء يزورني، وكان رجلاً كبير السن جليل القدر، ولم يكن يعتادني بالزيارة فلم أستطع أن أعتذر إليه. وخفت أن يطيل فيفوّت عليّ موعدي، ثم قلت في نفسي: إني أبقى معه ربع ساعة ثم أستحضر سيارة أذهب بها.

ودعوته فدخل، وقعدت بين يديه وقلت له: أهلاً وسهلاً. فقال: بِكُمْ. قلت: كيف الصحة؟ قال: الحمد لله. قلت: شرفتمونا. قال: أستغفر الله.

وانتهت هذه المقدمة، وانتظرت أن يبدأ الحديثَ فيما جاء به، فلم يتكلم ولم يَبدُ عليه أنه ينوي الكلام. فدخلنا في الفصل الأول من أحاديث المجالس وتكلمنا عن الجو:

- تحسن الجو، الحمد لله.

- الحمد لله.

- والمطر كثير.

- حقيقة، الله يبعث الخير.

وانتهى الكلام عن الجو ولم يبدأ حديث الزائر الكريم، فدخلنا في الفصل الثاني من الهذيان، فتكلمنا في السياسة وتحدثنا عن إسبانيا والبرتغال وفنلندا والطليان.

وانتهى الفصل على عجل. وجئت بالقهوة، وقلت في نفسي أنه سيشربها ويحدثني، فما نطق ولا فتح فمه، ولكنه استرخى في مقعده وجعل يرتشف القهوة متمهلاً، كل ثلاث دقائق رشفة صغيرة، وأنا قاعد على جمر.

وجعلت أنظر في الساعة وأتململ وأتحرك في مجلسي، ثم قلت له: عندنا اليوم جلسة في المحكمة، لذلك بكّرتُ في الذهاب.

قال: حقيقة، إن شغل المحاكم صعب.

قلت: الجلسة في الساعة التاسعة، وقد بقي دونها ثلث ساعة فقط.

قال: أعانكم الله.

قلت: تشرفت بكم، وإذا كان لكم أمر فمُروا به.

قال: لا، ما في شيء.

قلت: هل من خدمة أقوم بها؟

قال: لا، أبداً.

وسكت وسكتنا، وجعلنا نتبادل الأنظار كالقطط، حتى مضت الساعة التاسعة وذهب موعد الجلسة.

-٢-

هذا هو المشهد الأول. والثاني أني كنت يوماً أستقبل في بيتي جماعة من الأصدقاء، فجاء أحد أصحابنا وجاء معه بولد صغير (وأنا لا أكره شيئاً كما أكره مَن يزورني ويأتيني بولده معه)، ولكني تجلدت وقلت لنفسي: إنه ضيف، ولا بد من الاحتمال.

فما كاد يستقر في المجلس حتى شرع يتحدث عن ولده وذكائه ونوادره وكماله، والحاضرون يبتسمون -مجاملةً- ويتمنّون أن يحس فيختصر هذا الحديث الثقيل، وهو يفيض فيه. ثم قال لولده: بابا، قم اخطب لهم خطبة.

فتدلل الولد وتمنّع، وقال: ما بدّي.

قال: قُمْ، عيب!

وما زال معه في شد ودفع حتى استجاب وقام، فخطب خطبة أزعج لسامعيها من شربة زيت خَرْوَع لشاربها، ولكنهم اضطروا أن يكشّروا ويقولوا مجاملة: ما شاء الله.

وحسبوا أن المحنة قد انتهت، ولكن الرجل عاد فقال: وهو حافظٌ غيرَها كمان.

وانتظر أن يستبشروا بهذا الخبر ويطيروا سروراً بهذه البشارة،

فلما رآهم سكتوا وأحجموا لم يسكت هو ولم يحجم، وقال للولد: اخطب -بابا- الخطبة الثانية.

ومن خطبة إلى خطبة، حتى خطب عشر خُطَب، شعر الحاضرون كأنها عشر مطارق تنزل على رؤوسهم وطلعت منها أرواحهم، وهو يضحك مسروراً كأنه جاء بمعجزة. ثم قال: وهو يغني كمان. غَنِّ -بابا- أغنيّة.

قلت في نفسي: أعوذ بالله، خرجنا من الخطب فجاءت الأغاني.

وغنّى أغنيّة، ثم أتبعها بأخرى، فقلت: يكفي، إنه قد تعب.

قال: لا (ومطّها...) إنه لا يتعب، الله يسلمه ويرضى عليه. من حق تعبت يا بابا؟

قال: لا. ووثب ينط في الغرفة.

قال أبوه: بيعرف يلعب كمان.

وخرّب في لعبه كثيراً مما كان في الغرفة من التحف.

ثم جاء الشاي، فمد يده ليأخذ الفنجان، فقلت: إنه حار. قال: لا.

ورفع رِجله بحذائه الملوث فوضعها فوق المقعد، وأخذ الفنجان وقرّبَه من فمه، فأحس حرارته، فأفلته فانكبّ على المقعد الجديد.

وتوقعت أن يعتذر أبوه عن إفساده وجه المقعد، وإذا به لا يهتم بوجهه ولا قفاه، لقد اهتم بولده وقال له: لا ترتعب ما صار شيء، هل احترقت يدك؟ ونظر فيها، وابتسم وقال: سليمة والحمد

لله. وانتقل هو وابنه إلى مقعد آخر.

ثم قام الولد ووقف بحذائه على المقعد الثاني وأخذ يكلمه في أذنه، فقال الأب: كأس ماء من فضلك، الولد عطشان.

فقمت وأتيته بها، فشرب وأراق الماء على المقعد الثاني.

وبعد لحظة قال أبوه: ممكن -من فضلك- يخرج للخلاء؟

قلت: قُمْ. وأخذته بيده فصرخ صرخة أرعبتني، وحسبت أن قد قرصه «دبّور» وسألت: ما له؟

قال أبوه: إنه لا يخرج إلّا معي.

فقلنا: خذوا طريقاً وهاتوا طريقاً[1]، ووقفنا حتى وصل الموكب الهمايوني إلى بيت الخلاء!

ولا أريد أن أصف لكم بقية المشهد، فتصوروا آخره من معرفة أوله.

-٣-

وكنت يوماً في بوابة الصالحية[2] أريد أن أقطع الشارع، أتلفّت ذات اليمين وذات الشمال، أرقب السيارات وهن يسرعن مختلفات الأشكال والحجوم ولكنهن متحدات الحقيقة والأثر،

---

(١) تعبير متداول في الشام، يستعملونه إذا كان في البيت رجل أجنبي عن المرأة لا يجوز لها أن تظهر أمامه، ومعناه أن تستتر أو تغلق على نفسها باب غرفتها حتى يمر هذا الرجل فلا يراها (مجاهد).

(٢) موضع في وسط دمشق (مجاهد).

كلها تمثل الموت تحت العجلات! فما كدت أتوسط الشارع حتى سمعت نداء ملهوف يهتف باسمي، فاستدرت لأنظر، فكادت دراجة نارية تصيبني، وولّتْ عني وأصوات محركها بالضجيج وسائقها بالشتم لا تزال في أذني.

ووصلتُ إلى الرصيف، وإذا برجل يلحق بي يناديني. فوقفت، فأقبل عليّ وهو مكشر تبدو أضراسه من الضحك والسرور، وقال: الأستاذ الطنطاوي؟

قلت متجهماً: نعم.

قال: أهلاً وسهلاً، في غاية الشوق، لقد مضى زمن طويل.

قلت: على ماذا؟

قال: على لقائنا.

قلت: ومتى التقينا؟

قال: أنسيتني؟

قلت: من حضرتك؟

فضحك وقال: احزر.

قلت: يا أخي، أنا لا أعرفك ولم أعرفك أبداً.

فازداد ضحكاً، وقال: إنك تمزح بلا شك.

قلت: قل يا أخي وخلِّصْنا.

فذكر اسمه. قلت: ما سمعت بهذا الاسم قبل الآن.

قال: طيب؛ الخلاصة، متى أستطيع التشرف بزيارتك؟

قلت: وماذا تريد مني؟

قال: لا شيء، لا شيء؛ للتشرف بك فقط.

قلت: أنا مشغول، ويعرف أصحابي كلهم أني لا أزور أحداً ولا أستقبل زائراً إلّا نادراً.

قال: وهذا من النادر.

قلت: يا رجل، هل تريد مني شيئاً؟

قال: التشرف بك فقط؛ أنا أحب أهل الفضل والعلم.

قلت: أنا لست منهم.

قال: كيف؟ أنت سيدنا ومولانا.

قلت: أستغفر الله.

قال: متى أزورك؟

قلت: تعال إلى المحكمة في الساعة الواحدة.

قال: أظن البيت أحسن.

قلت: غداً في المحكمة. وتركته ومشيت.

وجاءني في اليوم التالي، وبدأ يتكلم في الصحة وفي الجو وفي أحوال الدنيا، ثم ألقى محاضرة في الثناء عليّ ومدحي وأني شيء عظيم، وأثنى على كتبي، فسألته أيّ كتاب قرأ منها، فقال أنه قرأها كلها ولكنه أعجب بـ«حديث الأربعاء».

قلت: ولكن «حديث الأربعاء» لطه حسين.

فلم يخجل ولم يضطرب، وقال: عفواً، قصدت أن أقول كتاب «فجر الإسلام».

ولم أقل له أن «فجر الإسلام» لأحمد أمين لئلا يقول أنه كان يقصد كتاب «كليلة ودمنة»!

وبعد هذه المقدمات التي لا آخر لها نطق بالدرة المصونة والجوهرة المكنونة، وعرض حاجته، وإذا هو صاحب دعوى في المحكمة يريد أن يوصيني بها!

هذه ثلاثة مشاهد، وعندي من مثلها كثير، أنشرها بلا تعليق.

* * *

الضّيَافة

أذيعت سنة ١٩٧٢

اختيار الموضوع الذي أتحدث فيه اليوم تضحية مني، لأني واثق أنكم (أو أن أكثركم) لن يوافق عليه، وأن أكثركم سيغتابني ويقول: "هذا رجلٌ بخيل لا يحب الضيوف". ولست -والله- بخيلاً، وأنا أحب الضيوف، ولكني أحب أن أصحح آراءكم في الكرم وأن أنقلكم من النظرة الجاهلية إلى النظرة الإسلامية.

العرب في الجاهلية كان يعيش أكثرهم في الصحراء، فإذا نزل رجلٌ بقبيلة من القبائل لم يجد فندقاً ولا مطعماً ولا خاناً، بل إنه لم يجد سوقاً يُباع فيه الخبز والفول المدمس، فإذا لم يفتح له أحدٌ بيتَه أو خيمتَه ولم يَدْعُهُ للطّعام مات من الجوع.

لذلك كان لحق الضيافة شأن عظيم عند العرب، وأقر الشرع هذا الحق وحدّده بثلاثة أيام. واستمر ذلك في الإسلام، حتى إني أعرف أنه كان في دارنا -كما هي الحال في أكثر الدور- قسم «برّاني»[1] للضيوف فيه الفرش للمنام، وهو مستقل عن منزل النساء.

ثم تبدّل الزمان، وصار في بلدان المسلمين فنادق، وضاقت

(١) الجَوّاني والبَرّاني كلمتان استُعملتا من قديم، قال الفيروزابادي=

البيوت. فبعد أن كان للدار «براني» و«جوّاني»، وكان يسكن فيها الجد والجدة وأولادهم الكبار وزوجات الأولاد وأبناؤهم، وكان في الدار عشرون أو ثلاثون غرفة (لأن فيها عشرين أو ثلاثين من السكان) افترقت الأسر، فصار كل رجل يسكن هو وامرأته وأولاده في دار على حدة، وتركنا تلك الدور العربية الواسعة التي فيها الصحن الرحيب والبركة الدفّاقة والأشجار والأوراد، وكانت للصيف وللشتاء، وسكنّا في صناديق من الإسمنت بعضها فوق بعض، إن دق مَن هو فوقَنا مسماراً في جدار ارتجّت منه الدار، وإن عطس مَن هو تحتَنا وكنا نفكر طارت من رؤوسنا الأفكار، فلم يعد بالإمكان استقبال الضيوف للمنام والمقام.

فإذا جاءني ضيف دعوته إلى الفندق اللائق به ودفعت عنه الحساب، فأراح واستراح، أما إذا أنزلته عندي فإني أُضطر إلى أن أفرش له على الأرض في غرفة الضيوف وأحكم عليه وعلى نساء البيت بالسجن، فلا يستطيع أن يخرج في الليل لئلا يقابل المرأة وهي خارجة من غرفتها، ولا تستطيع المرأة أن تخرج من غرفتها خشية أن تقابله، وإذا هو اضطر اضطراراً إلى الخروج نصف الليل إلى الحمام فلا بد من أن يصرخ أو يرن الجرس أو يصفق، فيوقظ الأطفال مرعوبين والكبار مضطربين، فيكون من خروجه إلى الحمام أزمة منزلية.

= في القاموس: "ومنه قولهم: «من أصلح جَوّانيّه أصلح الله بَرّانيّه»، نسبة على غير قياس"، وعلق عليه الشيخ نصر الهوريني في شرحه على القاموس: "أصله من قولهم: «خرج فلان برّا» إذا خرج إلى البر والصحراء؛ وليس من قديم الكلام وفصيحه" (مجاهد).

فلماذا هذا الإزعاج كله؟ أليس من الأفضل أن أنزله في الفندق؟

بقيت الزيارات. عرفتم أحكام الجاهلية في حق الضيافة: الضيف عندهم لا يُرَدّ ولا بد من استقباله، والشرع أقرّ ذلك في حدود الضرورة. هذا في الصحراء، أما في المدن فإن الشرع منعنا من دخول بيوت الناس إلّا بعد الاستئناس والسلام، وإذا قيل لنا "ارجعوا" نرجع.

فما معنى «حتى تستأنسوا»؟ أليس معناها أن نأنس الرضا والموافقة؟ أي أن نأخذ موعداً فلا تكون الزيارة إلّا بموعد؟ إلّا في الحالات الاضطرارية أو بين الأقرباء والإخوان الذين لا كلفة فيما بينهم.

ومن جئتَ تزوره، إذا فتح لك الباب وقال لك: "أنا مشغول؛ ارجِعْ وتعالَ في وقت آخر"، عليك أن تقول: نعم، وتذهب.

هذه آداب الإسلام، فهل نعمل بها؟

تكون مشغولاً بأمر مهم، بعمل من أعمال الوظيفة أو حساب من حسابات المتجر، أو كتابة مقالة أو إعداد درس، أو تكون مع أهلك أو تكون في حالة نفسية لست مستعداً فيها للقاء الناس، أو تكون على موعد أنت مضطر للخروج معه من الدار، فيُطرَق الباب، فتفتح فإذا أنت تجد أمامك الضيف، فماذا تعمل؟

إن قلت له: "أنا والله مشغول، فارجع"، كما قال الله، غضب منك وذهب فشهّر بك، وقاطعك أو ضرّك في نفسك أو

في معاشك، فتضطر لإدخاله وتقعد على مثل الشوك، وهو يقعد آمناً مطمئناً لأنه فارغ، عنده ساعتان يريد أن يمضيهما فلم يجد غيرك ليمضيهما معه. وتقدم البارد والقهوة علّه يحسّ فيقوم، فلا يقوم، وتُفهمه بلطف أنك مشغول فلا يبالي.

وربما جاء معه بولده فرفع نعليه فوضعهما على المقعد، وأخذ كأس الشراب فصبّها على الفراش، أو مدّ يده فأمسك بما يراه أمامه فأفسده. وهذه العادة، عادة اصطحاب الأولاد إلى الزيارات، من أقبح العادات، وهي قلة ذوق. وإذا كنتَ مولعاً بولدك، تراه وردة الروض ونادرة الفلك، فإن الناس لا يرون فيه إلّا جنيّاً مزعجاً.

- وإذا كان عند أحد وليمة أو عرس ودعا إليها خمسين، جاؤوا معهم بخمسين ولداً، فتصير الدار مدرسة أولاد أو مارستاناً (وهما بمعنى واحد!)، ويصير أصحاب الدار هم المجانين سكان المارستان!

والذي يقيم في مكة يكون أيام الحج في عذاب، والسبب أنه إن كان من أهل الشام -مثلاً- فإن كل شامي يلقاه أيام الحج يهجم عليه بالعناق والتقبيل، وبث الشوق واللوعة والأسف والفراق والفرح للّقاء، وربما كان لا يعرفه مطلقاً ولم يلقَه أبداً، والمنتَظر بعد هذه المقدمة أن يفتح ذراعيه أولاً، وداره ثانياً، وأن يُنزله عنده، وأن يأخذه إلى عرفات ومنى على حسابه، وأن يشتري الهدايا لأهله... ولو كان واحداً لهان الأمر، ولكن العدد ليس بالواحد والاثنين بل بالعشرات.

* * *

ونحن في مطلع حياة جديدة، فإذا أردنا أن نحفظ أوقاتنا وأن نصلح عاداتنا وأن نوفّر أموالنا وأن نريح عيالنا، فلنرجع إلى آداب الإسلام في الزيارة لا إلى عادات الجاهلية. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

* * *

الـهَديّة

أذيعت سنة ١٩٧٢

جاءني مرة صديق فقال: هل علمت أن صديقنا فلاناً قد تزوج؟

قلت: لا.

قال: فاعلم أنه قد تزوج.

قلت: بالرِّفاء والبنين.

قال: فما رأيك في أن أهدي إليه هدية؟

قلت: طيّبْ؛ أهدِ إليه، فإن الهدايا إن كانت عن طيب قلب، ولم يكن فيها تضييق على المهدي، قوّت الصداقة وأكّدت الود.

قال: فماذا ترى أن أهدي إليه؟

قلت: انظر شيئاً يحتاج إليه وليس عنده فأهده إليه.

فضحك وقال: إذا كان يحتاج إلى قِدر أو إلى كرسي، فهل أهدي إليه كرسياً أو قِدراً؟

قلت: نعم؛ تهدي إليه «طقم» كراسي أو مجموعة قدور.

قال: وهل رأيت في عمرك من أهدى كرسياً أو قِدراً؟ إنما

يُهدى كأس من البلّور (الكريستال)، أو ساعة، أو ثريا، أو لوحة فنية.

قلت: وإذا كان عنده من الساعات ما يكفيه، وكان في كل غرفة من داره ثريا، وعلى جدار كل غرفة لوحة، أفيعمل من بيته معرضاً للساعات وللثريات؟ ولماذا تكون هدايانا من الكماليات التي لا يُحتاج إليها؟ إن الهدية دَين عليك قضاؤه، ومن أهدى إليك اليوم وجب عليك أن تهدي إليه غداً، فإذا جاءك بما تحتاج إليه وفّر عليك ثمنه، أما إن جاءك بهذه الترّهات التي لا تنفع ولا تفيد، ولا ضرورة إليها، لم يوفر عليك شيئاً.

فانظروا في أكثر الهدايا، بل زوروا المخازن التي تعلن أن فيها الهدايا، ماذا ترون فيها؟ هل فيها إلا تماثيل محرمة شرعاً وما لها نفع، وأشياء لا تصلح إلّا للعرض: أوانٍ لا تُستعمل، وثياب لا تُلبس، ولوحات صور ليس لها قيمة فنية وليس فيها جمال؟ فلماذا لا نهدي (إن أهدينا) ما يفيد؟ لماذا نقلد الإفرنج في الشرّ ولا نقلدهم في الخير؟

الإفرنج لا يهدون إلّا النافع، فإن تزوج متزوج أهدى إليه صديقٌ سريراً، والآخرُ منضدةً، والثالثُ كراسيَّ، والرابعُ موقداً، فتمتلئ داره ويتوفر عليه ثمن هذه الأشياء التي كان عليه أن يشتريها، فيردّ به الهدايا إلى أصحابها.

ولقد تزوج مرة شاب من أبناء إخواننا فحرت ماذا أهدي إليه، ثم خطر لي خاطر، فذهبت إلى أحد المخازن الكبرى فدفعت إلى صاحبه المبلغ الذي قدرته للهدية وأخذت وصلاً به، فقدمته للشاب وقلت له: تفضل زُر المخزن واختَرْ بهذا المبلغ ما تريد.

وأنا أعرف أن أكثركم لا يوافق على هذا لأنكم ترون أن من اللائق إخفاء ثمن الهدية وإيهام المهدَى إليه أنها تساوي أكثر منه، مع أنكم تعرفون أن الذي تهدون إليه الهدية يحملها فوراً إلى السوق ليقدّر ثمنها ويعرف كم هو، وربما قدّرها بأقل من حقيقتها. فلماذا لا نخبره بالثمن الحقيقي؟

وقيم الأشياء ليست بأثمانها، وربما كان الغالي الثمن هو القليل القيمة، وربما كان القيّم هو الرخيص.

ما هو أغلى شيء في الدنيا؟ الألماس؟ الجوهر؟ ما قيمته؟ إن الإنسان يستطيع أن يعيش أحسن عيشة بلا ألماس، ولكنه لا يستطيع أن يعيش دقيقة بلا هواء، والهواء بلا ثمن. الهواء ما له ثمن وهو موجود في كل مكان لأنه أثمن الأشياء، ولأن الإنسان لا يستغني عنه دقيقة، يليه الماء والماء ما له ثمن وموجود في أكثر الأمكنة، يليه الخبز وثمنه رخيص وهو كثير.

فالثمن غير القيمة، وقيمة الهدايا ليست بأثمانها، بل بتقدير المُهدَى إليه لها. احتجت مرة إلى كتاب صغير فلم أجده على كثرة تفتيشي عنه، فاشتراه صديق بست ليرات وأهداه إليّ، فكانت هذه الهدية أحبّ إليّ من أن يهديني ساعة ثمنها ألف ليرة، لأني كنت محتاجاً للكتاب وليس بي حاجة إلى الساعة.

والمولع بالفن يفضل لوحة رسام معروف عن سجادة بأضعاف ثمنها، والصياد يفضل بندقية صيد نادرة عن خاتم بأضعاف ثمنها، والمرأة تفضل الخاتم الجميل على نسخة مخطوطة من كتاب نادر. فإذا أهديت السجادة للمصور، والخاتم للصياد، والكتاب للمرأة،

خسرت مالك ولم تنل شكراً، بل إنك تنال سخرية وعتباً.

ثم إن شراء هذه الأشياء التي لا تفيد فيه معنى التبذير وإضاعة المال، وإضاعةُ المال من المحرمات والتبذيرُ من عمل إخوان الشياطين. فإن كانت هذه الكماليات من صنع أعدائنا (الذين يتربصون بنا والذين يأخذون ثمنها من أموالنا فيستعينون به علينا ويعينون به خصومنا) كان الذنب أكبر والحرمة أشد.

والهدايا أمر مطلوب شرعاً، ولكن الشرط ألّا يكون فيها إضاعة مال، ولا يكون فيها تضييق على العيال. وقَبول الهدية من السنة ولكن الشرط ألّا تكون لقاضٍ ولا لموظف من صاحب مصلحة ولا لأستاذ الولد قبل الامتحان، فإن الهدية لهؤلاء وأمثالهم ليست هدية ولكنها رشوة، والرشوة بجميع أشكالها وصورها حرامٌ أخذُها وحرامٌ إعطاؤها. سواء في ذلك الرشوة بالمال، أو بالهدية، أو بأن ترسل إليه قريبتك الجميلة لتراجعه، أو بأن تقضي له مصلحة من مصالحه، أو بأن تبيعه حاجة بأرخص من ثمنها المعتاد... كل ذلك من الرشوة.

* * *

---

* هذا ما وجدته من هذه المقالة بخط جدي رحمه الله، وفي آخره (بعد المقطع الذي قرأتموه في الأعلى) سطر واحد فيه: "ولا ينبغي أن تُرَدّ هدية إذا كانت لله ولم تكن أنت..."، ولكني أخفقت في العثور على التتمة (على طول بحثي في الأوراق المتناثرة التي تركها رحمه الله، وهي بالمئات)، فاكتفيت بما وجدته وآثرت نشر المقالة على طيّها لما فيها من المنفعة (مجاهد).

ارحمونا من هذا الضجيج

أذيعت سنة ١٩٦٥

أبدأ حديث الليلة بعودة إلى أيام الصغر؛ أيام لم تكن إذاعات ولا مكبرات ولا سيارات، أيام الهدوء والسكون، أيام كان أشد صوت هو صوت مدافع العيد ومدافع رمضان، وكانت تُطلَق مرات معدودات في العام كله، وتطلق إذا مات السلطان، وأذكر المدافع التي أطلقت يوم مات السلطان محمد رشاد. أما الأصوات المعتادة فكان أقواها وأعلاها صوت الطبل والبوق، والطبل لا يقرع إلا في المناسبات، والبوق لا يسمع إلا في المعسكرات والثكنات.

وما عدا ذلك فسكون؛ الناس ينامون من بعد صلاة العشاء أو يسهرون في بيوتهم ساعة أو ساعتين بعده. وفي رمضان يطيلون السهرات وتفتح الدوائر أبوابها ليلاً، ولكن لا يسمع أحد وهو في بيته صوتاً يؤذيه، لأن البيوت القديمة -رحم الله أيامها- كانت بيوتاً حقيقية؛ كانت كل دار مملكة مستقلة يَرى مَن فيها ولا يُرى، ولا يُسمع صوته فيها ولا يَسمع صوتَ أحد من جيرانه. كذلك كنا، لم يكن عندنا إلا صندوق السماع (الفونوغراف) ذو البوق الواسع الملتوي، ولكن صوته -على كل حال- لا يصل إلى بعيد.

فلما جاءت الإذاعات، وكثرت السيارات، وعلت الأصوات،

هربتُ إلى سرّة الجبل في دمشق فبنيت داراً حيث لا يسكن إلا نفر من الناس؛ أُطلّ على دمشق من بعيد وهي نائمة على بساط من السندس الأخضر، تعلوها قبة النسر من جامع بني أمية وتحف بها من يمين وشمال الغوطتان الشرقية والغربية، وهما بستان الأرض كما أن دمشق هي جنة الدنيا. ليس من حولي إلا سكون الجو وجمال المنظر، إن قعدت أشتغل لم يعطل عليّ صوت، وإن نمت لم توقظني حركة. فلحقني البلاء إلى سرّة الجبل، وقامت البيوت والأكواخ من فوقنا ومن تحتنا وعن أيماننا وشمائلنا، وعرفت السيارات طريقها إلينا. ولكنها لم تكن تمر -مع ذلك- إلا سيارتان أو ثلاث في اليوم كله، ولا يرتفع إلا صوت رادٍّ نبعث إلى صاحبه من ينبهه أو يرجوه فيسكت.

فلما انتقلت إلى مكة (حرسها الله وزادها شرفاً) ابتغيت لنفسي مكاناً قريباً من الحرم حتى لا يكون بيني وبين أن أصل إليه إلا خطوات، وتخيرت من الدور داراً واسعة في أكبر عمارة في أفخم حي[1]، أفتدرون ماذا حل بي؟

هذا ما جئت أشكو منه. لقد اخترت الدار في الدور الثامن لأكون أبعد عن الضجيج، فإذا الضجيج يصل إلى الدار ولا يتركني أستريح لحظة من ليل أو نهار. أما السيارات فلا تنقطع أبداً. أقول: أبداً. فهي تمر دائماً؛ السيارة بعقب السيارة، يمر منها

(١) سكن الشيخ -رحمه الله- إحدى وعشرين سنة في الطبقة الثامنة من عمارة الكعكي بأجياد، وهي لا تبعد عن الحرم إلا بضع مئات من الأمتار (مجاهد).

في كل ربع ساعة أكثر مما يمر أمام داري في الشام في الأسبوع كله. ولا تمر واحدة حتى تُخرج صوتاً يوقظ النيام (إن لم أقل إنه يزعج الموتى!)؛ صوت ثاقب عال يحس به النائم والمقبل على كتابته كأنه سوطٌ دقيقٌ ينزل على عنقه، وصوت ضخم كأنه قطعة من صوت الرعد، وصوت ممتد طويل، وزعيق ترتجّ له الأرض من هذه الأبواق التي تُركّب عادة في سيارات الشحن الكبار ليصل صوتها إلى أميال في الصحراء.

والذي أعرفه ويعرفه الكثير من إخواننا أبناء آدم عليه السلام أن الأبواق إنما تستعمل عند الحاجة وبمقدار الحاجة، ولكني وجدت السوّاقين هنا يستعملونها للتسلية أو للطرب أو لما لست أدري من الأسباب، وطالما ركبت مع سائق في طريقٍ خالٍ ليس فيه أحد، وإذا به يزمّر بصوت يصل من جَرْوَل إلى الحجون. لمَن؟ ولماذا؟ لست أدري!

وأشد من أصوات السيارات أصوات الروادّ (أي الراديوات). وهنا البليّة الكبرى والطامّة العظمى. كان الرادّ من أربعين سنة بضاعة نادرة، وكان غالياً ولا يعمل إلا بالكهرباء، وكان كبيراً لا يُنقل من مكانه، فاخترعوا هذه الأجهزة المنتقلة وافتنّوا فيها حتى صار منها ما يُحمل باليد وما هو بحجم علبة الدخائن، ورخص ثمنه حتى صار كل من يملك خمسة وثلاثين ريالاً يستطيع أن يشتري رادّاً. وهذا كله مقبول، والناس أحرار يشترون ما يريدون، ليس لي أن أمنع من يريد شراء البضاعة المعروضة التي يملك ثمنها. ولكن الذي لا يُقبل ولا يعقل، والذي لم أعرف إلى الآن سرّه وأحب أن يأتي من يتفضل فيشرحه لي، هو فتح الرادّ إلى

آخره ورفع الصوت إلى نهايته. إذا أردت -يا أخي- أن تصغي إلى الحديث المذاع أو تطرب للأغنية أو تستمع للأخبار فلماذا لا تفتح الرادّ بحيث تسمعه وحدك؟ ولماذا تُسمعني معك وأنا لا أريد أن أسمع؟ لماذا لا تطرب إلا إذا رفعت الصوت إلى آخره فأسمعت معك أهل الحارة كلها؟

أردت مرة أن أنام مبكراً لأن لديّ موعداً في الصباح الباكر، وكان من أهلي من هو مريض متعب يحتاج إلى الراحة. فانتظرنا حتى مضى هزيع من الليل وخفّت الضجة قليلاً (وإن كانت ما خفّت تماماً)، فأوينا إلى فرشنا. حتى إذا كدنا نغفي سمعنا صوتاً ثاقباً أيقظنا جميعاً، وإذا هو صوت رادٍّ بأغنية لأم كلثوم. وأغاني أم كلثوم لها -في العادة- أول وليس لها آخر! فصبرنا وقلنا: لعلها تنتهي، فما انتهت، فتركنا المنام وقعدنا حتى هدأ الصوت وانقطع التصفيق، فعدنا إلى المنام، فما كدنا نغفي وإذا بالصوت يعود، وإذا هي الوصلة الأولى من تعذيبنا قد انتهت وابتدأت الثانية!

ولبثنا ننتظر الفرج والنعاس يأخذ بأجفاننا، فكلما كدنا ننام صرخت بآه أو "يا ليل" فنزلت علينا كالسياط. واستمرت هذه الوصلة إلى... أتدرون إلى أي ساعة؟ إلى الساعة السابعة والله، السابعة غروبية[١]، وهذا الصوت يرنّ فيخرق السكون ويصل إلى كل بيت في الحي. وفي الحي أكثر من ألف بيت يصل إليها هذا

---

(١) كانوا يقيسون الوقت في تلك الأيام بالساعة الغروبية، وهي الساعة التي تُضبَط على الثانية عشرة عند الغروب (فتتغير من يوم إلى يوم)، فإن كان الوقت صيفاً فربما كان الوقت المشار إليه هنا قريباً من الثانية صباحاً (مجاهد).

الصوت. لا تظنوا أني أبالغ، ففي عمارتنا وحدها مئة وثلاثون بيتاً، وفي هذه البيوت مرضى يريدون أن يستريحوا وفيها أصحاب أشغال يحبون أن يناموا ليقوموا إلى أعمالهم، وفي الحي مستشفى كبير مملوء بالمرضى.

وكنت أنظر من الشرفة لأرى من أين يخرج هذا الصوت فلا أرى أحداً. ولعله رجل واحد متوارٍ في زاوية الشارع أو وراء نافذة داره، وتحت إبطه هذا الرادّ فهو يزعج به هؤلاء الآلاف من الناس. ولو تكرم فمدّ يده فحرك هذا الزر قليلاً وجعل الصوت خافتاً لسمع وحده وطرب كما يريد ولم يؤذِ أحداً.

لقد انتهت الأغنية وسكت الرادّ في الساعة السابعة، فهل تصدقون أو أحلف لكم أني لم أعد من صلاة الصبح وأحاول أن أنام ساعة أو ساعتين حتى بدأ رادّ آخر بصوت أعلى وأشد؟ واحد يشتغل إلى ما بعد نصف الليل والثاني يشتغل من قبل طلوع الشمس، وكل واحد يصدح بصوت يصل إلى بعد مئة متر من كل جهة. فمتى ننام؟ وكيف نشتغل؟ وكيف نجد الراحة؟

فيا أيها السامعون: أرجو أن يفكر صاحب الرادّ -قبل أن يمد يده إلى المفتاح- أن في الجيران المريض والمشغول والمتعب، فلا يرفع الصوت إلا بمقدار ما يَسمع هو ولا يُسمع الناس على رغم أنوفهم. وأن يذكر هذا أصحاب القهوات والمطاعم والدكاكين الذين يضعون المكبرات ويصبّون على رؤوس الناس المزعجات. ومن كان عنده فرح فلا يحسب أن الدنيا له وحده فيجعل أهل الحارة كلهم في كدر وترح من أجل هذا الفرح.

* * *

صيحة شكوى*

الأخ الأستاذ محرر «الندوة»،

إن الصحافة لسان الشعب؛ تعلن شكاواه، وتدفع المظالم عنه، وتكشف كربه، وتصف آلامه. وأنا أكتب إليك أناشدك الله أن تجد طريقاً لإسعافنا من مصيبة حلّت بنا.

تقول: ما هي؟ أرأيت لو أن مجنوناً أخذ طبلاً، فكلما نعست فنمت دقيقة قام إلى جنبك فقرع الطبل في أذنك حتى تستيقظ؟ واستمر على ذلك لا ليلة ولا ليلتين، بل كل ليلة... ماذا تكون حالك؟

---

* وجدت مسوّدة هذه المقالة بين أوراق جدي رحمه الله. والظاهر -من سياقها- أنه قد كتبها بعد إذاعة الحديث السابق بأمد يسير وبعث بها إلى جريدة «الندوة» (التي هي جريدة أهل مكة كما هو معروف). ويدل سياق المقالة على أن الشيخ قد كتبها في ليلة اشتد عليه فيها أذى الرَّوَادّ حتى صرف عنه المنام. وكأني أراه الآن بعين الخيال وقد قام مُغضَباً آيساً من المنام من شدة الضجيج! فما كان شيءٌ أشدَّ عليه -رحمه الله- من ضجة تعكر عليه منامه، وكانت أقل ضجة كفيلة بإيقاظه لخفة نومه، حتى لأذكر (وأنا صغير) أن البيت الذي ينام فيه يعلن حالة الطوارئ فيمتنع كباره من عمل يصدر صوتاً عالياً وصغاره من لعب فيه صخب أو ضجيج (مجاهد).

هذا ما وقعنا فيه. لقد تحطمت -والله- أعصابي وأعصاب أهلي. ذلك أني أسكن في أجياد في عمارة الكعكي، وفي عمارتنا وحدها مئة وثلاثون شقة، وفي الحي أكثر من ألف شقة، وفيه مستشفى فيه المرضى، وكل مَن في هذه الشقق وهذا المستشفى معرّضون لهذا البلاء.

أما السبب فهو أن في الحي قهوةً فيها راد (راديو) كبير لا يسكت أبداً، فهو يزعق يأتي بكل أغنية في الدنيا من النهار إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. إي والله، فإذا سكت في هذه الساعة عاد من قبل أن تنتهي صلاة الفجر! وهذه القهوة كلها عدوان، فهي تعتدي على الشارع لأنها ليس لها مكان تضع فيه كراسيّها المخلَّعة ومناضدها الصدئة الوسخة إلا الشارع، ثم تعتدي على الناس بهذا الرادّ.

فلمن نشكو؟ لقد شكوت في الإذاعة فما استفدت شيئاً. أيُترك صاحب هذه القهوة (ومثله صاحب مطعم تحتنا وبقّال عنده رادّ) وأمثال هؤلاء، هل يُترَكون يحطمون أعصاب الناس، يوقظون النائم من أعماق نومه ويزعجون المريض ويعطلون المشغول ويؤذون البشر، ليطربوا هم بسماع الأغاني من الرادّ؟ مَن أراد أن يسمع فليسمع هو. أنا لا أمنعه، ولكن لماذا يُسمعنا ونحن لا نريد؟

أكتب هذه الكلمة قبيل الفجر والرادّ لا يزال يزعق! ولقد أغلقت النوافذ كلها وسددت أذني بالقطن. هل تصدق يا أستاذ؟ والصوت لا يزال يصل إليّ. أفليس في البلد قوة تمنع هذا المجنون من إيذاء الناس؟

لو علم الذي اخترع الرادّ أنه سيصل إلى مثل هذه الأيدي لانتحر أو لرمى بنفسه من الشرفة قبل أن ينجز اختراعه! إن الرادّ اختُرع ليستمع به العقلاء أصحاب الأذواق، لا ليقع في أيدي أمثال هؤلاء فيؤذوا به الناس.

لقد سمعت أن «أمين العاصمة» رجل قوي أمين حازم، وأن الشرطة ساهرة يقظة، فيا أستاذ: أرجوك أن تنقل شكوانا إلى أمين العاصمة أو إلى مدير الشرطة أو إلى من شئت لتنقذنا مما نحن فيه، فإن في كل بلاد الدنيا أنظمة لحفظ راحة الناس ومنع الإزعاج، وكل البلاد تمنع مثل هذا الإزعاج، حتى أبواق السيارات فإنها (فضلاً عن أصوات الرادّ) تُمنَع بعد الساعة العاشرة زوالية لأن الناس يريدون أن يناموا[(١)].

إننا لم نعد نطيق الاحتمال، فأسعفونا.

والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

(١) في حديث آخر -أُذيع بعد هذا الحديث بسنوات- قال جدي رحمه الله: "يا إخوان، مصيبة الضجة من مصائب الحضارة، ولكن أهل هذه الحضارة حلوا المشكلة. لما كنت في ألمانيا لم أسمع إلا في حالات الخطر صوت مزمار سيارة، لا تسمعه أبداً، ولا يرفع أحد صوت الرادّ، ولا يتحدث جماعة بصوت مرتفع في طريق ولا في مكان يسمعه منه الجيران بعد الساعة العاشرة ليلاً أو في ساعة النوم بعد الغداء، وعندنا من يفتح الرادّ على آخره أو يدق المسامير في الحيطان أو يدق الهاون بعد نصف الليل!" (مجاهد).

كل شيء بالتقسيط

نشرت سنة ١٩٦١

زرت في أول الشهر صديقاً لي من كبار الموظفين، منزله قريب من منزلي، لأراه ونصطحب في الطريق إلى البيت. فرأيته قبض مرتبه وجعل يفرّقه حصصاً يضع كل حصة في ظرف صغير، فهممت أن أسأله ثم تذكرت أن ذلك من الفضول وأن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فلما قاربت الساعة الثانية قلت: ألا نذهب؟

قال: بلى ولكن لي حاجة قريبة، فهل تحب أن تصحبني لقضائها؟

قلت: نعم، فما هي؟

قال: أنت تعرف أن فرش غرفة الاستقبال عندنا قد رَثَّ وبلي.

قلت: لا والله، ما به شيء، وإنه لا يزال جيداً.

قال: رأته المرأة رثاً بالياً وصارت تستحيي أن تستقبل عليه ضيوفها، فاضطررنا إلى تبديله، فأخذنا فرشاً آخر ثمنه ألف ليرة.

قلت: إنه غالٍ.

قال: لقد حلف الرجل أنه رخص علينا، ثم إننا أخذناه بالتقسيط؛ كل شهر مئة ليرة، ندفعها ولا نحس بها ونكسب الفرش. فأنا أريد أن أمر عليه لأدفع له القسط.

قلت: هيا بنا. ومررنا على «الحريقة»[1] فدفع للرجل مئة ليرة. قلت: ألا نركب الترام؟

قال: لي شغل صغير.

قلت: أين؟

قال: هنا، في محل قريب؛ لقد اشتريت «مؤونة» بالتقسيط، كل شهر خمسون ليرة، وأنا أريد أن أمر بالرجل فأدفع له القسط.

وذهبنا فدفعنا. قلت: هل بقي شيء؟

قال: قسط الرادّ .

قلت: أما عندك راد؟

قال: إنه صغير قديم، فاقترحت المرأة تجديده، فأخذنا آخر جديداً معه جهاز للحاكي (بيك أب).

قلت: بالتقسيط؟

قال: نعم، كل شهر خمس وعشرون ليرة.

قلت: هيا بنا.

---

(١) موضع من مواضع السوق في دمشق، وقد سُمّي بذلك بعدما احترق حين ضربت فرنسا دمشق بالقنابل أيام الثورة (مجاهد).

قال: أنا استحييت منك لأنني أتعبتك.

قلت: هل بقي شيء؟

قال: لما اشتريت الراد رأيت مسجلة جميلة، فسألته عن ثمنها فقال: ستمئة ليرة، ولكنه -من أجل خاطري- رضي أن يبيعها بخمسمئة بالتقسيط.

قلت: شيء ظريف.

قال: وأنا أريد أن أذهب لدفع القسط.

قلت: تفضل.

وذهبنا فدفع القسط. قال: بقي قسط التلفزيون. ماذا تسمي التلفزيون بالعربي؟

قلت: لقد سألني عن هذا كثيرون، وأنا أرى أن نسميه «الرائي».

قال: الرائي هو الذي يرى، وهذا يراه غيرُه.

قلت: نعم، ولكن باب المجاز المرسل واسع، والله عزَّ وجلَّ يقول «في عيشة راضية» وهي عيشة مَرضيّة، فأحسن اسم للتلفزيون هو «الرائي».

قال: هلمّ إذن ندفع قسط الرائي.

وذهب فدفعه. قلت: هل بقي شيء؟

قال: لما اشترينا الرادّ (أي الراديو) الجديد، والمسجلة والرائي، اضطررنا إلى نضد (كومودينو) فيه محل لكل واحد من

هؤلاء ومحل للهاتف، ففصّلناه عند نجار نعرفه.

قلت: بالتقسيط؟

قال: نعم.

قلت: ادفعها ولنذهب، فقد جعنا.

قال: وسأمرّ في طريقي على الخياط لأدفع القسط.

قلت: قسط أيش[1]؟

قال: أخذنا بدلات للأولاد.

قلت: بكم أخذت القماش؟

قال: لا أدري؛ القماش من عنده وهو الذي خاطه وقدّر الأجرة كما يريد، وأنا واثق منه فهو «آدمي»[2] لا يغش.

قلت: وهل رأيت حماراً أو كلباً يغش؟ الآدمي (أي ابن آدم) هو الذي يغش.

وذهب ودفعها وقد صارت الساعة الثالثة. قلت: بقي شيء؟

قال: بقيت أجرة الدار والكهرباء، وسأدفعها بعد؛ حسبنا الآن.

قلت: أرى الأقساط كثيرة، فكم يبلغ مجموعها؟

قال: ستمئة وخمساً وسبعين ليرة.

قلت: أعوذ بالله! وكم بقي لك من مرتّبك؟

---

(١) كلمة «أيش» بمعنى «أي شيء» عامية من العصر العباسي.
(٢) «الآدمي» هو الأمين المستقيم في عامية أهل الشام (مجاهد).

قال: مئة وخمس وعشرون ليرة.

قلت: وكيف يكفيك لنفقات طعامك وشرابك وحاجات يومك؟

قال: ومن أين يكفي؟ إنه لا يكفي لنفقات أولادي الثلاثة.

قلت: وماذا تصنع؟

قال: أستدين.

قلت: وكيف توفي الدين؟

قال: بالتقسيط.

قلت: أرى أن التقسيط نقمة لا نعمة!

قال: ومن قال أنه نعمة؟ إن التقسيط أكبر مصيبة وأول سبب لخراب البيوت واضطراب الموازنات. يرى الإنسان شيئاً لا يحتاج إليه فيُعرِض عنه، فيقول له البائع: خذه بالتقسيط. فيستسهل الأمر، فيأخذه ويقول: عشرون ليرة في الشهر، بسيطة. ولا ينتهي منه حتى يرى شيئاً فيأخذه، فتمتلئ داره بأشياء لا لزوم لها ولا حاجة إليها، ولو لم يشترِها لعاش بدونها. وينظر فإذا العشر ليرات من هنا، والعشرون من هناك، والخمسون، والأربعون... وإذا هي قد بلغت نصف الراتب أو ثلثيه، فإذا انضم إليها أجرة الدار ورسوم الكهرباء والماء والهاتف لم يبقَ من الراتب إلّا كل طويل العمر.

قلت: صحيح والله. وأنا أعرف كثيرين من إخواننا من أصحاب الرواتب الكبيرة قد أكلت رواتبَهم الأقساطُ. ويا ليت أنهم يشترون شيئاً يبقى أو تبقى قيمته معه (سجادة مثلاً، أو دكاناً)؛

إنهم لا يشترون إلّا الكماليات يريدون بها المفاخرة والمكابرة، يُشقون أنفسهم لينالوا إعجاب الناس. إن الفرش الذي كان عندك جيد صالح، فلماذا بدلته؟ كان عليك أن تكتفي به، فمن أعجبه من ضيوفك أن يقعد عليه فأهلاً وسهلاً به ومن لم يعجبه فمع السلامة. إن الصديق الذي يزورك يريدك أنت، لا يريد الكرسي ولا الثريا. والذي يزور الكرسي والثريا لا يريدك أنت فلا ينبغي أن تريده.

وإذا أيسرت وزاد معك من المال ما تستطيع به تحسين حالك ومسرة عيالك فلا بأس أن تظهر نعمة الله عليك بشرط ألّا تبذر تبذيراً، لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، ومَن كان معه مليون ليرة لا ينبغي له أن يبذر فينفق في وليمة أو في عرس أو في نزهة ما تعيش به أسرة من الأسر الفقيرة شهراً كاملاً. ولا ينبغي له كذلك أن يبخل ويقتر ويضيق على أهله، ويجعل همه جمع المال فقط، فيعيش فقيراً ويموت غنياً، يجمع لولده ووارثيه، فيأكلون المال ويقولون: "لا رحمه الله"، فيكون كفقراء اليهود، لا دنيا ولا دين.

كلا، لا إسراف ولا تبذير، ولا بخل ولا تقتير.

وأكبر نصيحة للناس عامة، وللنساء خاصة، هي أنه لا يجوز لإنسان أن يشتري ما لا يحتاج إليه مهما كان رخيصاً، ويجب عليه أن يشتري الشيء الضروري ولو كان غالياً. فإذا مرض ولدك وأجمع الأطباء على أن نجاته من الموت لا تكون إلّا بدواء ثمنه ألف ليرة وجب أن تبيع أثاث بيتك وتشتريه ولا تقول "إنه غالٍ". إنك لا تشتري بذلك الثمن الدواء ولكن حياة ولدك. وإذا وجدت صورة فنية أو تحفة أو مشربية أو زهوراً صناعية، أو شيئاً من أمثال

هذه الكماليات التي تكون في مخازن الهدايا، فلا تشترِه ولو كان ثمنه فرنكاً[1]، لا سيما إذا كان من صنع الأجانب.

إن كان الزهر الصناعي مصنوعاً كله بيد إخوانك وأهل بلدك وأجزاؤه كلها من وطنك ونويت بشرائه مساعدة العامل، كان ذلك حسناً، أما إن كان أجنبياً فلا ثم لا. إن الأجانب يقدمون إلينا الثريّات والمشربيات والصور والتماثيل ويأخذون ثمنها من جيوبنا، فيشترون به المدافع التي يضربون بها إخواننا في الجزائر وفي عُمان وفي اليمن. إنهم يحاربوننا بأموالنا، فهل يجوز أن تدفع أنت ثمن البندقية التي يُقتل بها أخوك في الجزائر؟

ثم ما فائدة هذه الأشياء؟ إنها توضع في غرف الاستقبال، ولقد دخلت غرف استقبال بعض كبار الأجانب فوجدتها في الغاية من البساطة[2]؛ ما فيها إلّا المقاعد اللازمة وأجهزة التدفئة والتبريد والإضاءة، وإن تأنّقوا فيها علقوا صورة فنية جميلة لمنظر طبيعي يبعث البهجة في النفس، وهذا كل شيء. وتدخل غرفة استقبال غني من أغنيائنا فتحسب نفسك في مخزن هدايا أو في متحف: أطباق الصيني والزهور والصور السخيفة واللعب وأشياء من هذا الباب ما لها لزوم ولا لها مناسبة، ولا تدل على ذوق ولا على فهم، ما تدل إلّا على ذوق سوقي أحمق.

---

(١) لعل أكثر القراء لا يعرف «الفرنك»، وهو عملة معدنية قيمتها خمسة قروش (جزء من عشرين من الليرة السورية) وكان يكفي مصروفاً يومياً لتلميذ في المدرسة لما كنت أنا صغيراً، أما اليوم فقد اندثر (مجاهد).

(٢) البساطة في اللغة هي السعة، ولكني أستعملها بالمعنى المفهوم.

وما أدري لماذا نقلد الأجانب في الشيء الضار ولا نقلدهم في النافع؟ إن الأسرة الإفرنجية إذا انتقلت من دارها حملت أشياءها كلها؛ الفرش والأثاث، في سيارة واحدة أو سيارتين. وتنتقل الأسرة المتوسطة منا فتحتاج إلى ست سيارات وترى في دارها مئة «غرض» ما له لزوم ولا يُستعمل ولا يُحتاج إليه مرة في السنة. وما جاء هذا كله عفواً بلا تعب، بل جاء بالكد والسعي وحرمان الأسرة من الطعام المغذّي والدواء الضروري، وربما استدانت لشرائه وتحملت هم الدين!

والخلاصة أن مَن أَحب أن يأخذ بنصيحتي من القراء فعليه ألّا يشتري شيئاً أبداً مهما كان رخيصاً إلّا إن كان مضطراً إليه؛ هذه واحدة. وأن يبتعد عن البخل وعن التبذير، وأن يدع الكماليات، وألّا يشتري من البضاعة الأجنبية إلّا ما لا بد منه ولا يُستغنى عنه ولا يجد من صنع بلده ما يسد مسده.

وأن يترك الشراء بالتقسيط، وإلّا صار مثل صاحبنا الذي قدمت خبره: راتبه ثمانمئة ليرة، لم يبقَ له منه إلّا مئة وخمس وعشرون. إنه موظف كبير، ولكنه صار بالشراء بالتقسيط موظفاً من المرتبة التاسعة. ثم إنه يقبض الراتب باليمين ليوزعه باليسار، ولو وزعه على الفقراء لنال ثواب الله، ولو وزعه ثمن أشياء باقية لباعها عند الحاجة فاستفاد من ثمنها، ولكنه يوزعه ثمن تُرّهات لا تنفع ولا تفيد، يشتريها بمئة فإذا أراد أن يبيعها غداً لم يستطع أن يبيعها بأربعين. والعاقل مَن اعتبر بغيره قبل أن يصير هو عبرة للناس!

* * *

بين التبذير والتقتير

نشرت سنة ١٩٦٦

كنت من سنين طويلة أذهب كل أسبوع إلى بيروت، أتفرّج من ضيق النفس بتبديل المشاهد وتغيير الوجوه، فأَبِيتُ فيها ليلة الجمعة وأعود من الغد إلى دمشق، وكنت أختار صديقاً أتخذه رفيقي في هذه السفرة.

وقد رافقت مرة صديقاً من أصدقائنا، غنياً موسراً له المال الجَمّ ولا زوجة له ولا ولد (إلا ولداً كبيراً غنياً لا يحتاج إليه)، ولا عمل له ولا تجارة، وإنما هي أسهم وسندات يَرِدُ عليه من ريعها ما يزيد عن ألفي ليرة في الشهر. ثم إنه رجل كبير قد جاوز السبعين، إن طال به العمر (والعمر بيد الله) فإنما يطول -على ما يبدو- سنين أُخَر. فليس أمامه مستقبل يكِدّ له ويخاف الفقر فيه.

ولما عزمنا على السفر قال لي: فيم تسافر؟

قلت: وهل غير السيارة؟

قال: أنا أتعب من ركب السيارة الصغيرة.

قلت: فما العمل؟

قال: نركب الحافلة (الأتوبيس).

قلت: مع أربعين شخصاً، إن تأخر منهم واحد انتظرناه، وإن تثاقل احتملناه، ونبقى على الطريق أربع ساعات؟

قال: وماذا فيها؟ إنها أعلى وأجمل، والراكب فيها يقوم ويقعد ويتحرك، وتلك يبقى فيها كالمقيد بالحديد. إن الطريق نزهة، فكلما طال كان أمتع.

وأصرّ فرضيت كارهاً، وما وصلنا بيروت حتى وصلت أرواحنا إلى الحلاقيم. ونزلنا في ساحة البرج. قلت: هَلُمَّ إلى الفندق.

قال: أي فندق؟

قلت: فندق كذا (لفندقٍ وسطٍ أنزل فيه، لا هو من فنادق السرف والترف، ولا هو من فنادق الدرجة الثالثة).

قال: لا؛ هذا فندق أفرنجي وللحياة فيه قيود وتكاليف، وأنا جئت لأجد الانطلاق والحرية. وأنا أعرف فندقاً طيباً صاحبه رجل صالح، فتعال لتراه.

فسايرته لسنّه وقديم صحبته وقلت: كما تريد.

ودعوت سيارة، فقال: لا، لا؛ المحل قريب والحمال يحمل الحقائب إليه، فلماذا ندفع أموالنا لهذه السيارات التي تذهب أثمانها إلى أميركا؟

وجاء بحمال وجعل يساومه، الحمال يطلب ليرة وهو يعرض عليه عشرين قرشاً، فلما أصرّ قال له همساً: "لو أردت أن أدفع ليرة لاستأجرت سيارة"، فعلمتُ أن المسألة كلها مسألة توفير.

وأخذني إلى فندق لا أجد وصفاً له أبلغ من أن أقول فيه: "أعوذ بالله"! هو شيء بين الخان والإصطبل، متهدم مظلم له رائحة تصيب من يشمها بالدُّوَار. فأبيت أن أدخله، وعزمت عليه حتى أخذته إلى فندق آخر رضي به بعد مفاوضات طويلة كمفاوضات نزع السلاح! فندق فوق هذا ودون الذي أنزل فيه عادةً. ودخله كارهاً متأففاً.

وجاء وقت العشاء. قلت: ماذا نتعشى؟

قال: الذي تريده.

قلت: هنا مطعم جيد فيه الطعام الشرقي والطعام الغربي، فأنت تختار ما يعجبك.

فلما سمع ذكر المطعم نفر وأعرض. قلت: ما لك يا عم؟

قال: أنا لا آكل من أكل المطاعم.

قلت: ولِمَه؟

قال: إن طعام المطاعم وسخ؛ إنهم لا ينظفون الصحون ولا يغسلونها غسلاً بل يمسحونها بخرقة قذرة.

قلت: فماذا تأكل؟

فأخرج من صندوق معه علباً صِغاراً فيها من الزيتون واللبن المصفى والمربّى، فقال: أنا آكل من هذا وأنت خذ حريتك.

فجئت بطعام من المطعم، وأكل هو من علبه.

وأصبحنا، فقلت: إلى أين نذهب؟

قال: نرى البحر، ولكني لا أحب أن ندخل القهوات.

قلت: فأين نقعد؟

قال: نجد مكاناً منعزلاً على الساحل نقعد فيه وحدنا.

قلت: نقعد على الأرض؟!

قال: لا؛ نقعد على هذه (وأخرج رقعة من النايلون الرقيق أعدها لتكون كالبساط).

قلت: والغداء؟

قال: إن ألذ الطعام ما أعددتَه بنفسك وأشرفت عليه ووثقت من نظافته، وإن معي في الصندوق موقداً (دافوراً) وقِدراً صغيراً وأدوات الشاي، فنشتري لحماً وخضراً ونطبخها بأنفسنا ونشرب عليها الشاي، فيكون من ذلك أمتع سفرة.

قلت: أحب أن أسألك عن شيء على أن تجيبني بصراحة وألّا «تزعل» مني. كم أعددت من المال لهذه السفرة؟

قال: أنا لا أبالي بالمال ولكني لا أحب أن أكون من المبذرين.

قلت: كم أعددت لهذه السفرة؟

قال: عشرين ليرة!

* * *

وذهبت مرة ثانية مع صديق متوسط الغنى، ولكنه مخروق اليد مولع بالمظاهر. فقال لي: أخبرك من الآن قبل أن نمشي؛ أنا لست من أهل الحرص والشح، وأنا قد تعودت الإنفاق في السفر،

وهذه سفرة متعة ليست سفرة مهمة رسمية، فإذا كنا سنضيّق فيها على أنفسنا فأَولى أن نبقى في بيوتنا.

قلت : الحق معك، وأنا ممّن ينفق، ولكني لا أنفق قرشاً في حرام ولا أدخل أمكنة الحرام.

قال: وأنا كذلك.

وجئنا نأخذ مكاناً في السيارة، فقال: ما هذا؟

قلت: سيارة بيروت.

قال: نسافر مع الناس؟!

قلت: وهل نسافر إذن مع الحمير؟

قال: لا يا أخي؛ أنا لا أركب مع أحد، إني أريد أن أستمتع.

قلت: نأخذ صدر السيارة ونترك من يركب إلى جانب السائق.

قال: لا، ولا السيارة كلها.

قلت: فماذا نصنع إذن؟

قال: أنا أعرف سيارة أجرة بلوحة خصوصية، نستأجرها مع سائقها فتبقى معنا من الآن (عصر الخميس) حتى نعود بها من بيروت مساء الجمعة.

قلت: فكم يأخذ؟

قال: ثمانين ليرة.

قلت: إننا نذهب ونعود ونركب هناك ما شئنا من السيارات

بأقل من ثلاثين، فلماذا ندفع ثمانين؟

قال: أنا لا أسافر إلّا بسيارة خاصة.

قلت: كما تريد.

ووصلنا بيروت في الليل، قال: أين ننزل؟

فدللته على الفندق الذي أنزل فيه.

قال: أنا أنزل هنا؟

قلت: وما له؟ إنه نظيف مادةً ومعنى، وفراشه مريح وجَوُّه هادئ والخدمة فيه حسنة، وهو فندق محترم. فلِمَ لا ننزل فيه؟

قال: لا، بل في «سان جورج».

قلت : إن الفندق الذي وصفته لك بسبع ليرات، و«سان جورج» بخمس وعشرين.

قال: أما اتفقنا على أن ننفق؟

قلت: يا أخي ننفق في المعروف، ولكن لا نضيّع أموالنا.

قال: أبداً؛ إلا في «سان جورج».

قلت: يا رجل، قد مضى ثلث الليل ونحن في تعب نريد أن نلقي جوانبنا على الفراش وننام، فما لنا وهذا الفندق الغالي؟

فلم يقبل، فنزلت على حكمه. وسألته: ما رأيك في العشاء؟

قال: أنا أريد أن آكل لحماً مشوياً.

فأخذته فدللته على شوّاء جيد اللحم، نظيف المكان، حسن

الخدمة. قال: أنا لا آكل هنا.

قلت: فأين نأكل؟

فأخذني إلى شوّاء آخر مثله، لكن محله أكبر وصاحبه أجنبي، وفيه موسيقى أفرنجية تطيّر الشهية. فقال: هنا!

ووجدت اللحم هو اللحم، ولكن ما يُباع هناك بليرة يباع هنا بأربع ليرات. وسألته مثلما سألتُ الرفيق الأول: كم أعددت من المال لهذه السفرة؟

قال: الشيء الضروري الذي لا بد منه.

قلت: كم؟

قال: مئةً وخمسين ليرة.

* * *

ذكرت هذين المثالين وأنا أسمع القارئ يتلو عشية اليوم الأول من رمضان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، فقلت: صدق الله العظيم؛ ما فرّطنا في الكتاب من شيء، ولا ترك القرآن شُعبةً من شُعَب الخير في الدنيا والآخرة إلا دلنا عليها وأرشدنا إليها.

الأول كان مغلول اليد، فكان يعيش عيش الفقراء وهو من كبار الأغنياء، فكأنه أمين الصندوق في المصرف، تحت يده الملايين ولكن نصيبه منها مئتا ليرة هي راتبه يقبضه آخر الشهر. ليس بينهما فرق، وقد خبّر الرسول ﷺ أن «لك من مالك ما أكلتَ

فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقتَ فأبقيت» والباقي هو مال الوارث، تتعب بتحصيله وحفظه وتُسأَل يومَ القيامة عنه، وهو محرّم عليك ليس لك منه شيء.

والثاني قد بسط يده كل البسط فكان من المبذرين.

وأنا لا أشير إلى شخص بعينه، وما تعودت أن أتكلم عن أحد ولا أعرّض بأحد، ولكن أضرب مثلاً وأسوق عظة وعبرة.

ولقد مات الرجلان. الأول: ضيق على نفسه وحرمها من كل شيء، فكان يمشي ليوفر أجرة السيارة أو الترام، وإذا ركب ركب في الدرجة الثانية، ويَبلَى ثوبه فلا يجدده، وإذا جدده اختار القماش وخاطه عند أصغر خياط، ويجوع فلا يدخل مطعماً ليأكل، وإذا اضطر اشترى رغيفاً وبيضة مسلوقة وأكلها في الحديقة العامة. وقد جرّع زوجته غصص العيش حتى ماتت من بخله ألف مرة قبل أن تستريح منه بالموت، كان لا يقدم إليها إلا الطعام الذي لا بد منه، ثم إذا طلبت منه كسوة أو حاجة أو شيئاً مما تطلب المرأة جعل ليلتها سوداء، وجعل يلقي عليها محاضرات لا آخر لها عن ضرر التقليد وقبح التبذير. وبقي عمره كله دائباً على جمع المال، هو همّه لا همّ له غيره، يتخذه صنمه الذي يعبده في سره ويقدسه في نفسه، حتى مات، فتقاسم مالَه الورثةُ وما قال واحد منهم: رحمه الله!

والثاني: لبث على إسرافه وتبذيره، ينفق ماله في التظاهر والتفاخر، إن خاط الناس البذلة بخمسين ليرة خاط مثلها بمئة، وإن اتخذوا ربطة العنق بخمس ليرات اتخذها هو بثلاثين، وإن

صنعوا فرش دورهم في دمشق جاء هو به من إيطاليا. وما زال على ذلك حتى ذهب المال ونفد المدَّخر، وقعد -كما قال الله- ملوماً من أهله وصحبه محسوراً في نفسه، يقلب كفيه على ما أنفق في السرف والترف.

* * *

وبعد،

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. وقال رسول الله ﷺ (مما رواه مسلم): «واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وقال (في الحديث القدسي المتفق عليه): «أنفق يا ابن آدم يُنفَق عليك».

فمن وسّعَ الله عليه وأعطاه فلا يبخل، وليوسع على نفسه وعلى عياله ولا يضيّق فيضيّق الله عليه، ولكن لا يسرف ولا يبذّر، فإن المبذرين كانوا إخوان الشياطين. وليكن وسطاً بين البخل (قبّح الله البخل وأهله) وبين الإسراف والتبذير، وليتأدب بأدب القرآن:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾. صدق الله العظيم.

* * *

بَدِّلْ عاداتك إلى الأفضل

أذيعت سنة ١٩٧٧

كتب إليّ شاب يبدو من كتابته أنه ديّن صالح، يقول أنه يعزم كل يوم على النهوض لصلاة الصبح، ولكنه لا يستطيع، ولا يصحو حتى تطلع الشمس وتفوته الصلاة، ويسألني: ماذا يعمل ليقوم لصلاة الصبح؟

وجوابي إليه: إنك لم تعزم على القيام، ولو عزمت لقمت.

وأحسبه سيقول عندما يسمع هذا الكلام من الإذاعة: إني عزمت فلم أستطع.

وأنا أعيد قولي: إنك لم تعزم، ولو عزمت لقمت. ودليلي أنه لو دُعي هذا الشاب لرحلة مدرسية إلى سورية ولبنان، يسافر إليها بالمجان، ويُعطى فوقها نفقة ليشتري بها ما شاء من الهدايا، هل يلبي أو يمتنع؟

بلى بلا شك. فإن كانت الطيارة التي ستذهب به إلى هذه الرحلة تسافر بعد أذان الفجر بربع ساعة، هل ينهض ليسافر فيها أم يبقى نائماً ويقول: "لا تؤاخذني؛ ما استطعت أن أقوم"، ويضيع عليه الرحلة؟

إنه ينهض بلا شك. فلماذا نهض للسفر ولم ينهض إلى الصلاة؟ لأنه عزم على النهوض هنا ولم يعزم هناك.

والعزم ليس عقد النية فقط بل اتخاذ الأسباب. لو عزمت على الصلاة في المسجد لكنك لم تتوضأ ولم تلبس وتخرج من دارك فما قيمة هذا العزم؟ فمن يعزم على النهوض الفجر عليه -أولاً- أن ينام باكراً. هل يسهر هذا الشاب ليلة السفر إلى نصف الليل أم ينام من بعد العشاء ليتمكن من القيام؟

وعليه -بعد ذلك- أن يربط الساعة المنبهة ويضعها إلى جانب سريره، ويوكّل من أهله مَن يوقظه، ويتخذ الأسباب كلها. هذا هو العزم الصحيح.

فلو عزمت على القيام لصلاة الصبح مثل عزمك على القيام لركوب الطيارة لما احتجت لهذا السؤال.

تقول: القيام للطيارة مرة ولكن الصلاة كل يوم. والجواب: إن الصعوبة في قيامك أول مرة، فإذا قدرت عليه سهل عليك.

وأنا أقرر أمرين عرفتهما من التجربة، لا أدري ماذا يقول فيهما علماء النفس، ولكني أدري أن علم النفس ما هو إلّا مجموعة تجارب:

الأول: أن العادات يمكن تبديلها مهما تمكنت من الإنسان.

والثاني: أن كل عمل تعمله يكون -إذا واظبت عليه- بداية عادة جديدة.

أعرف رجلاً أوتي المال الوفير والحس المرهف، مرفه

العيش، له مواقيت لقيامه ومنامه، ومواقيت لشرابه وطعامه، لا -يأكل إلّا أطعمة بعينها على أسلوب بعينه. فإن تبدل نوع طعامه، أو تأخر وقت منامه، أو زاد ارتفاع وسادته معشاراً (أي سنتيمتراً)، أو نُقل كرسيّه على المائدة من طرف إلى طرف، أو زاد سكر قهوته ذرة أو نقص ذرة... قامت قيامة البيت وزلزل بأهله.

أُخذ هذا الرجل في إحدى الفتن السياسية إلى المعتقل فوُضع مع ثلاثين شخصاً في غرفة لا تتسع -في العادة- إلّا لنوم ثلاثة، وليس في الغرفة إلّا بساط قذر على الأرض، يقعدون عليه وينامون عليه، والطعام أرز أو جزر مسلوق يؤتى به في قدر لم يعرف الغسل، يأكل الجميع منه بملاعقهم، يضعونها في أفواههم ويعيدونها إلى القدر، والحمام في طرف الغرفة مكشوف ما له باب ولا ستارة، يقضي الواحد حاجته فيه أمام رفاقه، والرائحة تملأ المكان، وليس له إلّا كوّة بعرض شبر. فتصوروا: كيف يكون حاله؟

لقد مرّت الأيام الأولى عليه وهو قاعد مكانه، مغمض عينيه حتى لا يرى. لا يأكل ولا يشرب حتى لا يضطر إلى ما يعقب الطعام والشراب، وكاد يموت من الجوع ومن الأمر الذي هو ضد الجوع، ومن الاستياء ومن الألم. ثم بدأ يتعود ذلك شيئاً فشيئاً، ثم لما طال به الأمر صار يأكل من هذا الطعام، وينام على هذا البساط، ويدخل هذا الحمام، ويفعل كل ما يفعله الآخرون.

لقد تبدلت عاداته.

وأنا لا أريد أن يُبتلى كل واحد منكم بالسجن لتتبدل عاداته، فإن تبديل العادات يكون بغير السجن.

خذوا رمضان. كم تحسّون من الضيق عندما تقومون من منامكم للسحور وتتمنون أن تستمروا في المنام ولو بقيتم بلا طعام؟ تسمعون المنبه فلا تقومون، ويأتي من يناديكم ويهزكم فتتناومون، ثم يكون قيامكم مثل قلع الضرس. فإذا كان اليوم الثاني كان قيامكم أسهل، فإذا كانت ليالي أواخر رمضان قمتم في الموعد بلا تنبيه ولا نداء، ويستمر ذلك أياماً بعد رمضان.

فالعادات تتبدّل. ويكفي أن تعمل الأمر مرة واحدة ليكون بداية عادة جديدة.

تمرّ بالملهى ألف مرة، فلا تدخله لأنك لم تتعود دخوله، فإذا جاء رفيق من رفاق السوء فأخذ بيدك فأدخلك إليه سهل عليك -بعد- أن تدخله وحدك، وإذا دخلت قعدت في الكرسي الذي قعدت فيه أول مرة.

فهذه بداية عادة، إذا انتبهت لنفسك ولم تعد إليه تخلصت منها، وإن عدت إليه مرة ثالثة، ورابعة، صار دخول الملاهي عادة لك.

ومثل ذلك تعوّد الخير.

فإذا أفقت مرة ونزلت إلى المسجد لصلاة الفجر كان ذلك بداية عادة، فإذا ذهبت مرة ثانية وثالثة صارت صلاة الفجر في المسجد عادة لك، وقمت في الموعد نفسه ولو لم تسمع الأذان ولو لم يوقظك أحد.

والمدخنون الذين صار لهم التدخين عادة، يدّعون أنهم لا يستطيعون ترك الدخان، فإذا جاء رمضان تركوه النهار كله، فإذا

كانوا في سفر وانقطعوا في الصحراء عشرة أيام ولم يكن معهم دخان صبروا على تركه، فتركه -إذن- ممكن وليس بمستحيل.

كان جدي ممن اعتاد التدخين، دخّن ستين سنة، ثم رأى زوجته وهي عجوز تدخن، فنهاها، فتجرأت عليه وقالت له: أنت تدخن. قال: بطّلت[1]. ورمى الدخينة ولم يعد إليها.

وأعرف من فعل ذلك من أصدقائنا، قال: "خَلَصْ، لن أعود إلى التدخين"، ولم يعد.

أما فارس الخوري فقد ترك التدخين على أسلوب آخر، قال لنفسه (كما حدّثني): "لن أدخن اليوم". وكلما نازعته نفسه إلى التدخين قال لها: "اصبري إلى المساء، ألا تصبرين يوماً واحداً؟". فلما انقضى اليوم قال لنفسه: "ويوماً آخر"، وما زال يزيد يوماً بعد يوم حتى مضى الأسبوع، فقال لنفسه: "أسبوعاً آخر"، وترك التدخين.

فلينظر كل واحد منكم إلى عاداته، فما كان منها سيئاً فليعمل على تبديله. والصعوبة في التبديل هي في البداية فقط، ثم يسهل الأمر وتخضع النفس.

النفس كالطفل: يطلب الشيء ويبكي ويصرخ لأنه يأمل

---

(١) الكلمة من عامية أهل الشام، ومعناها: "توقفت وتركت ما أنا فيه". ولم أجدها بهذا المعنى نفسه في كتب اللغة، ولكن الفعل «بطل» يفيد معنى قريباً لأن من معانيه التعطل. في «لسان العرب»: "بطَلَ الأجير يبطُلُ بَطالة وبِطالة: تعطل" (مجاهد).

الاستجابة لطلبه، فإن تيقّنَ الحزم والعزم على المنع سكت.

والنفسُ كالطفل إن تهمله شبّ على
حبِّ الرّضاعِ وإن تَفطِمْهُ ينفطِمِ

فيا سادة:

إن العادات يمكن تبديلها، وإن كل عمل تعمله هو بداية عادة جديدة.

❊ ❊ ❊

عَوِّدْ نفسَك الخير

نشرت سنة ١٩٦١

لي قريب شاب، صالح مستقيم، ولكنّ فيه شيئين: أنه يطيل السهر حتى يقعد عن صلاة الفجر، وأنه يكثر التدخين، يُذهب في ذلك ماله ويضرّ جسده ويؤذي أهله.

وكنت أنصحه وأعِظُه فيهمّ ولا يعزم، ويقرر ولا ينفّذ، حتى صحبتُه مرة في سفرة إلى بيروت، ولم نجد في الفندق الذي نزلناه غرفتين فبتنا في غرفة واحدة.

وكان في السنّ بمثابة ابني، وكان يوماً تلميذي، فهو يوقرني لذلك ويجلّني. وكان يعلم أني أحب أن أنام من أول الليل، فترك عادته في السهر تلك الليلة من أجلي. وكنت أحسّ به يتقلب على الفراش لا يطيق المنام، فأتجاهله وأتناوم لعلمي بأن ذلك أصلحُ له وإن كان أشد عليه، ثم رأيته قد غلبه النوم.

فلما قمت إلى صلاة الفجر، أحسَّ بي، فسألني (من باب الأدب) وهو بين النائم واليقظان: هل تريد شيئاً؟

قلت: نعم. فوثب وقال: ماذا تريد؟

قلت: أريد أن تصلي معي الفجر لعلّنا نكسب ثواب الجماعة.

فتوضأ وصلينا.

ومرّ على ذلك أيام طوال، ثم لقيته فسألته عن حاله، فخبّرني أنه صار يصلي الفجر حاضراً كل يوم.

قلت: أعرف ذلك.

فقال متعجباً: من أين عرفت؟

قلت: لأنك قمت إلى الصلاة معي لمّا كنا في بيروت، والعادة تثبت بمرّة، فيكفي أن تصنع الشيء مرة واحدة ليكون لك عادة.

قال: تتكوّن العادة من مرة واحدة؟

قلت: نعم، هذا ما يراه وليم جيمس، شيخ الفلسفة العملية اليوم وإمام السلوكيين في علم النفس. وهو لم يأتِ في ذلك بجديد، بل هو يردد ما قاله قبله بألف سنة فقهاء المذهب الحنفي.

قال: وما يُدري فقهاءَ المذهب الحنفي بعلم النفس؟

قلت: إن في هذه الكتب «الصفراء» التي انصرف الشباب عنها ذخائر من العلوم، ولكنا تعودنا ألّا نقيم لقولٍ وزناً إلّا إذا قالَه عالمٌ أوربي أو أميركي. وهاك كتاب «الإحياء» للغزالي مثلاً، فاقرأه تجدْ فيه من أحوال النفس ما ليس في كتاب في الدنيا.

* * *

نعم، إن العادة تتكون من مرة واحدة. إنك تمرّ بالمرقص كل يوم فلا تلتفت إليه ولا تقف عليه، فإذا جاءك شيطان من شياطين الإنس فأخذ بيدك فأدخلك إياه مرة واحدة هان عليك دخوله وتعودت ارتياده وصرت من أهله. وإن نزلت من دارك إلى المسجد، فصليت الفجر مرة مع الجماعة، سهُلَ عليك النزول كل يوم وصرت من أهل الجماعة.

ولقد كنت أنا أهتمّ بعدّ ساعات النوم، أفيق فأنظر في الساعة، فإن وجدت نومي قد نقص عن ثماني ساعات شعرت كأني متعب أو مريض (ولو لم يكن بي تعب ولا مرض). فلما مرضت من سنتين وطال مرضي، وكنت آرَقُ وأنام، وأستيقظ وأغفي، تعودت النوم المتقطع ولم أعد أحصي ساعات المنام ولا أبالي نقصَها.

ومن ثبوت العادة بمرة أن أحدنا يدخل المقهى أو يزور صديقاً، فيؤمّ ركناً من أركان المقهى أو كرسياً من كراسي المجلس يقعد فيه، فإذا عاد إلى القهوة[1] أو إلى المجلس وجد قدميه تجرانه -بلا شعور- إلى ذلك الركن أو ذاك الكرسي.

ولا يقولنّ أحد: "هذه عادتي لا أستطيع تبديلها"، فإنك إن تركت هذه العادة مرة واتخذت غيرها تبدلَتْ عادتُك.

إن كان من عادتك أن تخرج من دارك في منتصف الثامنة

---

(١) «المقهى» كلمة صحيحة فصيحة، من قولهم: "أقهى الرجل" إذا داوم على شرب القهوة. و«القهوة» صحيحة أيضاً، من باب المجاز (إطلاق الحال وإرادة المحل).

فتتأخر عن ديوانك أو مدرستك، فجرب أن تخرج مرة واحدة في منتصف السابعة، تجد أن التبكير قد صار لك عادة.

وإن كنت تواظب على السينما حتى لا يفوتك شريط من الأشرطة وأحببت أن تتخلص من هذا الشر فجرب أن تتجنبها أسبوعاً واحداً، وأن تمرّ بالسينما وترى الإعلان عن الرواية التي تحبها فلا تدخلها، تَجِدْ أنك تستطيع أن تصبر عنها أسبوعاً آخر، فإذا انقضى شهرٌ ولم تدخلها رأيت أنك تقدر أن تمتنع عنها شهراً آخر.

وإن ابتُليتَ بهذا الرائي (أي التلفزيون) تلازمه أربع ساعات كل ليلة، تشتغل به عن درسك وعن نومك، تذوق القليل من حلوه والكثير من مُرِّه، تتناول سمه في دسمه، فاتركه مرة واحدة وقُمْ إلى غرفة أخرى فاشتغل أو إلى فراشك فنَمْ، تَجِدْ أنك تعودت الاستغناء عنه.

وإذا كنت تغضب وتثور لكل ما يخالف رغبتك، فتضارّ امرأتك أو تضرب ولدك أو تكسر آنيتك، فلقد كنت أنا مثلك، وكنت إذا غضبتُ لا أبصر بعيني ولا أبالي ما أقدم عليه! فما زلت آخذ نفسي بالمواعظ وأذكّرها بقول الرسول ﷺ لمن سأله موعظة فيها السلوك الخلقي الكامل فقال له: «لا تغضب» (كما قال للآخر الذي سأله نصيحة تجمع المبادئ الخلقية كلها: «لا تكذب»). ثم جربت أن أضبط أعصابي وأن أكتم نار غضبي بين ضلوعي، وأن أعالج الأمر باللين والحكمة والعقل، فوجدت لذلك ألماً لا يدانيه ألم ومشقةً لا تعدِلها مشقة، وأكبرت قول الرسول ﷺ: «ليس

الشديد بالصُّرعَة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، ولكني نجحت في هذه التجربة، فلما عدت إليها المرة الثانية لم أجد من تلك المشقة وذلك الألم إلّا القليل.

فجرب ذلك مرة يَصِرْ لك -إذا شئتَ- عادة.

وإذا كنت تأخذ امرأتك بالشدة حتى صارت تلك عادتك فجرب أن تأخذها مرة واحدة باللين، وأن تكلمها كما تكلم ضيفاً عزيزاً أو صديقاً كريماً، يَصِرْ لك اللين عادة.

وإذا كنت مستضعَفاً في بيتك، لا أمر لك على زوجتك ولا على ولدك، وكنت تريد الاقتصاد وهم يبذّرون، وتأمر البنات بالستر واتّباع الدين فلا يقبلن إلّا التكشف واتباع الإفرنج المستعمرين، وكنت تنهى ابنتك عن الذهاب إلى السينما فتجرب فيك سلاح النساء (وهو البكاء) فتخضع وتتخاذل... فجرب أن تستبدّ وتشتدّ في إقامة الحق مرة واحدة واثبت على ذلك، ولا تبالِ الدمع ولا التوسل ولا الحَرَد[1]، تجِدْك قد استعدت سلطان الأب ومكانة رب البيت.

وإذا كان لك عادات سوء (كعادة التدخين مثلاً) فلا تقل لنفسك: "اليوم أنقص دخينة (سيجارة) وغداً دخينتين"، بل أَلْقِ العلبة من الآن واترك التدخين مرة واحدة وسلِّ نفسك عنه بشيء غيره. ولقد كان أستاذنا أحمد جودة الهاشمي (رحمه الله) يدخّن الليل والنهار، فعرض له ما يوجب ترك الدخان، فقال: "تركته". وظنّ إخوانه إنه يمزح أو يلقي كلاماً، وإذا هو قد ثبت على كلمته

---

(١) كلمة «الحَرَد» بالمعنى الذي يستعملها فيه العوام كلمة صحيحة فصيحة.

ولم يعد إليه أبداً.

فانظر في عادات السوء كلها: كالخمر والربا والحشيش وكشف العورات المحرمة شرعاً والنظر إليها، وآلات الطرب والنرد (الطاولة) والميسر (ومنه اليانصيب)، والتماثيل التي توضع في أبهاء الاستقبال، وأختام الذهب للرجال[1] وأمثالها، فاتركها مرة واحدة، واكسر آلاتها، واقطع أسبابها.

* * *

إن سلوك الإنسان مجموعة عادات: عادات في الأكل وفي الشرب، وفي المشي وفي اللبس، وفي أسلوب مخاطبة الناس... بها يكون الإنسان محبوباً أو يكون مكروهاً، وبها يكون موقَّراً محترماً أو يكون مزدرَى محتقَراً. وربما يكون هذا الحب وهذا الكره، وهذا التوقير وهذا التحقير، لعادة تافهة لا يأبه صاحبها لها ولا ينتبه إليها.

إن العاقل هو الذي يعتبر نفسه دائماً كالتلميذ في المدرسة، يسعى كل يوم ليتعلم شيئاً جديداً، ثم يعمل بكل خير يتعلمه.

ينظر دائماً في طباعه وعاداته وأخلاقه، فما كان منها صالحاً حمد الله عليه واستزاده منه واستمرّ عليه، وما كان منها سيئاً عمل على تبديله وتغييره وسأل الله العون على الخلاص منه.

* * *

---

(١) أما الذهب للنساء فهو حلال في جميع المذاهب الإسلامية، سواء أكان أساور أم عقوداً أم خواتم.

بين الوظيفة والتجارة

أذيعت سنة ١٩٦٥

أقص عليكم اليوم قصة واحد من تلاميذي القدماء، وكان تلميذي من أكثر من ست وثلاثين سنة. وليست قصة على التحقيق، ولم أنشئها إنشاء القصص وأتبع فيها طريق الفن القصصي، ولكنها واحدة من الحوادث التي تشبه القصص، أسردها كما وقعت لأن فيها درساً للشباب، من وعاه انتفع به.

كان تلميذي في إحدى المدارس الابتدائية، وكان ذكياً عاقلاً، عقله وذكاؤه أكبر من سنه. فلما أكمل المدرسة وحمل شهادتها أخذه أبوه إلى دكانه فشغّله معه. وكان أبوه حلاقاً، فكنت كلما جئته لأحلق (وكنت أحلق عنده) ورأيت الولد يشتغل بالحلاقة أتألم وآسف وأتمنى لو أنه أكمل دراسته.

وكنت أكلم أباه وأقول له أن العصر عصر علم، ثم إنه عصر شهادات، وأنه يوفر بتشغيل الولد عنده أجرة عامل خمس عشرة ليرة في الشهر (وكانت هذه أجرة العامل في تلك الأيام التي كانت فيها أقّة الخبز في الشام بأقل من نصف قرش سعودي) فتفرح بهذا التوفير وتعدّه مكسباً، ولكن إذا صبرت عليه عشر سنين وعلمته جاءك بأضعاف هذا المبلغ.

ولكن الأب كان عجوزاً عامياً عنيداً فلم يسمع مني. فأجزت لنفسي أن أكلم الولد نفسه وأقنعه بإكمال تحصيله. فسمع مني، وغضب الأب أولاً على الولد وخاصمني، ولكنه لما رأى ولده يتقدم في دراسته ويكون سابقاً في فصله، وحين سمع ثناء أساتذته عليه رضي واطمأن.

وأخذ الولد الشهادة الثانوية بتفوق، وطلب أن يكون معلماً، فعُيّن معلماً ابتدائياً في إحدى القرى، وأبى إلا أن يكون في دمشق. وسعينا له فما أفلحنا، فقال الأب: كم راتب المعلم؟ قلنا: ست وثلاثون ليرة (وكانت تعدل سبعة دنانير ذهبية إنكليزية). فقال: هذه مئتا دينار ذهبي أعطيه إياها، على أن يترك الوظيفة ويشتغل بالتجارة، فهي أبرك وأنفع، ثم إنه يكون فيها سيد نفسه، لا يخضع لرئيس ولا يُقيَّد بقيد.

واستشارني الولد، فوافقت. فسلم الأب المبلغ إلى تاجر كبير من تجار الزجاجيات وأدوات المطبخ ووضع الولد عنده. وكان التاجر ماكراً فأهمل الولد ولم يعلمه شيئاً من أسرار الصنعة، وكانت عنده بضاعة كاسدة فحسبها بأكثر مما تساوي وجعل الولد شريكاً فيها.

وكان الولد يومئذ ابن ثمان عشرة سنة، وكان نشيطاً متوثباً، فلم ترُقْ له هذه الحياة الجامدة وأحسّ أن التاجر لا يريد أن يعلمه شيئاً، فأقبل يلاحظ ويتعلم بنفسه؛ يراقب صامتاً والتاجر يظن أنه لا يرى شيئاً، حتى عرف كيف يستورد التاجر البضاعة ووقف على عنوان المعمل، فسحب من رأس ماله خمسين ديناراً حاول التاجر أن يمنعها منه فلم يستطع، وطلب باسمه طلبية من المعمل والتاجرُ

لا يعلم من أمرها بشيء، حتى فوجئ بوصولها، فتألم ولم يقدر أن يتكلم. وباعها الولد لنفسه وربح فيها، وانتقل منها إلى غيرها، فلم يمر عليه في الدكان سنتان حتى صار رأس ماله أكبر من رأس مال التاجر. وكان التاجر قد ملّ العمل وأدركه الكبر وأراد لنفسه الراحة، فعرض عليه شراء الدكان، فاشتراها وغدا هو صاحبها.

واستمر نجمه صاعداً، فاتسعت تجارته، وصار عنده في المحل كاتب يأخذ أكثر من معاش المعلم الذي طلب أن يكونه لما أخذ الشهادة. وصفت أيامه، ولكن عند صفو الليالي يحدث الكدر، وما تم شيء إلا بدا نقصه. ولكن النقص جاء فجأة ولم يُبقِ شيئاً.

أصبحنا يوماً من أيام الحرب العالمية الثانية، وإذا برجّة أحسسنا كأنها اقتلعت دمشق من أركانها، ثم كانت ثانية وثالثة ورابعة، فتحطم كل زجاج البلد، وعمّ الذعر، وخرج الناس من بيوتهم، حتى لقد نسيت النساء -من هول الموقف- الحجاب فخرجن متكشفات.

ونظرنا، فإذا هي غارة جوية. ولم نكن ندري ما الغارات ولا كنا نعرفها. واشتعلت الحرائق في جهاتٍ من المدينة، وكان منها السوق الذي فيه دكان الولد (أو الشاب، فلم يعد ولداً). وأسرعتُ إليه أواسيه، وذهبت معه فإذا نحن لا نجد سوقاً ولا نجد في السوق دكاناً، إنما هي أطلال مسوّدة لا يزال يخرج منها الدخان ولا تزال تعسّ في أجوافها النار. وفتح الصندوق (وكان حديده من حرارته مثل الجمرة) وكان ماله كله فيه، لا يضعه في المصارف. فوجدنا حزم الليرات في مكانها، وكانت أكثر من مئة

ألف، فاستبشر. ولكنه لمّا مدّ يده ليمسك بها تفتّتت في يده، وإذا هي من شدة الحرارة قد صارت رماداً يطير من نفخة!

وكاد يجن. أهذه هي ثمرة جهاد سنوات؟ أهذه عاقبة الجد والكد والسهر؟

وتركَنا وهام على وجهه كالمجنون، ولحقته فما أدركته. وبحثنا عنه أنا وأبوه وأهله فلم نجده. وأتى بعد يومين، وكان هادئاً ولكن أثر التعب والسهر ظاهر عليه. وسألناه فعلمنا أنه همّ بالانتحار، وكبرت عليه المصيبة فلم يحتملها، ومشى وهو لا يدري أين يذهب حتى أقبل الليل، ورأى أمامه مسجداً فدخله واختفى في السدّة فلم يره خادم المسجد وأغلق الباب وذهب. فلما انفرد بنفسه عاد إليه إيمانه، وفتح فمه فدعا ربه، فأحسّ بالاطمئنان وزالت الغشاوة عن عينيه، فرأى أنه قد بدأ عمله فتى جاهلاً لا خبرة له فصار له هذا المال، فلماذا لا يبدأ مرة ثانية وعنده الآن الخبرة وله الاسم التجاري والتجار يثقون به ويعطونه.

وتوجه إلى الله بالدعاء، والله لا يتخلى عمّن يدعوه.

* * *

تريدون تتمة القصة وقد انتهى الوقت، فأنا أتمها بكلمتين.

بدأ من جديد، وثابر فوفقه الله وجزاه على إيمانه وعلى صدقه في معاملته، فهو الآن أحد التجار الكبار في بلد عربي من أكبر بلدان التجارة، وقد جاوزت أعماله الملايين.

ولو أقبل على الوظيفة كما يفعل أكثر الشبان لكان مرتّبه الآن

ستمئة ريال، ولو انتحر لمّا نُكب (كما يعمل بعض المجانين) لخسر الدنيا والدين.

فهل يستفيد من هذا الدرس أحد الشبان السامعين؟

❊ ❊ ❊

حديث في الرياضة

أذيعت سنة ١٩٧١

(١)

قد تعجبون إذا قلت لكم أن موضوع حديثي اليوم هو الرياضة، وتقولون: ما للشيخ والكلام في الرياضة؟ وتعجبون أكثر إذا علمتم أني شيخ بالاسم وشيخ في السن، وأني كنت أمارس أكثر أنواع الرياضة، من رفع الأثقال والملاكمة والمصارعة، وأني لا أزال أتمرّن.

ولا عجب في ذلك، فالرسول ﷺ (وهو قدوة كل مسلم) كان رياضياً؛ صارع وسابق وركب ورمى، وكان المثال الكامل للروح الرياضية. وعمر رضي الله عنه كان إذا رأى رجلاً يمشي منحنياً متماوتاً ضربه بالدرة وقال له: "استقم؛ لا تُمِتْ علينا ديننا". والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

لذلك أحببت أن أنبه السامعين عامة، والشبان خاصة، إلى العناية بالرياضة وأداء حق الجسد، لنكون جميعاً أقوياء الأجساد مدرَّبين مستعدين.

ولست أقصد بالرياضة أن يكون الناس كلهم أبطالاً مصارعين

وملاكمين، فالرياضة أنواع، منها ما لا بدّ منه لكل إنسان، للولد وللشاب وللكهل وللمرأة، وهي «التربية البدنية». ومنها ما يكون من ألعاب القوة ابتغاء خوض المباريات ونيل البطولات، كالمصارعة الرومانية والحرة واليابانية والملاكمة، وما يسمى الجنباز ورمي القرص. ومنها ما يكون من ألعاب الخفة كالعدو والقفز على الأرض ومن فوق الحواجز وبالعصا. ومنها ما يكون القصد منه الجمال الجسدي وتنمية العضلات.

- ومنها ما يكون فردياً (كما ذكرت من ألوان الرياضة) وما يكون جماعياً يشترك فيه غير واحد من اللاعبين، ككرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة والسبق بالزوارق.

أما ألعاب القوة وألعاب الخفة والألعاب الجماعية فلا أتعرض له في هذا الحديث وأدعه لأهل الاختصاص، إنما أتعرض للتربية البدنية التي قلتُ أنها التي لا بد منها لكل إنسان. وكانت تعتمد على الحركات السويدية (لليدين قبضاً وبسطاً للجانبين ومدّاً إلى الأمام ورفعاً إلى الأعلى، والجذع انحناء إلى الأمام والوراء، والرجلين مدّاً وثنياً، وأمثال ذلك مما هو معروف)، ثم استُحدثت الحركات الدنمركية. والفرق بينهما أن الحركات السويدية تكون مع شد العضلات، وهذه تبتدئ بأرجحة اليدين مرخيتين.

فإذا أردتَ أن تبدأ رياضتك فقف معتدلاً منتصباً، مشدود البطن والركبتين، ثم ارمِ بيديك وهما مرخيتان للأمام وللوراء مرات، ثم شدّهما عند الَرفع وأَرْخِهما عند الإنزال، ثم شدّهما عند الإنزال وأَرْخِهما عند الرفع. فإذا تحرك الدم فيهما فحرك

رجليك بالقفز على مهل، كأنك تهرول وأنت في مكانك. وتأتي بعد ذلك بحركات الأعضاء كلها: العنق والجذع. وينبغي أن تحمل في كل من اليدين ثقلاً يناسب سنك، فالمبتدئ والكهل يكتفي بوزن كيل (كيلوغرام) واحد في كل يد، والشاب القوي والمتمرن يحمل في كل يد ما يصل إلى ثلاثةٍ أو أربعة.

وأهم الحركات حركات التنفس، ومن كان ذا كرش فليعتنِ بحركات البطن، ومنها أن يقف مشدود القامة ويشد عضلات بطنه ويشد ركبتيه، ثم يرفع يديه إلى أعلى وينحني إلى الأمام وهو على هذه الحال مرات. ويتمدد على ظهره على الأرض ويمد رجليه بمقدار ما يستطيع ويداه تحت رأسه، ويرفع رجليه معاً على مهل حتى يصيرا عموديين على الأرض ويرجعهما على مهل، ثم يرفعهما ويميل بهما إلى جهة الرأس، ثم يحرك كل واحدة مرة كأنه يسوق برجليه دراجة، ثم يرفعهما ويباعد بينهما بمقدار ما يستطيع.

ولا تحتاج الرياضة إلى نادٍ فيه الآلات ولا إلى مدرب فني. فأنا أعرف في دمشق صديقاً لنا ظهر اسمه فجأة إذ نال الدرجة الأولى في المباراة العالمية لجمال الأجسام، وقد تمرن وحده في داره الصغيرة. وقد كان عندنا مدرس رياضة لما كنا في الثانوية من أكثر من أربعين سنة، نصب بيده من قطع الخشب المرمي في فناء المدرسة متوازيين وثابتاً وربط حبلاً بالسقف، وبهذه الأدوات الابتدائية أخرج أبطالاً كانوا مفخرة الرياضة ونالوا الدرجات الأولى في المباريات العالمية، منهم بطل الجنباز العالمي وعبقري الرياضة محمود البحرة رحمه الله.

* * *

والذي أريده من كل سامع لهذا الحديث أن يعنى بجسده، وأن يتخذ لوناً من التمرين يناسب سنه. وليس للرياضة سن، وأنا أعرف في دمشق واحداً من مشايخنا هو اليوم فوق الثمانين ولا يزال يمارس التمرين، وأديب الشام عز الدين التنوخي -رحمه الله- كان وهو قريب الثمانين يقف وينحني إلى الوراء حتى يمس بكفيه الأرض.

الرياضة ضرورية لكل الناس، وأهم من رياضة الجسد رياضة النفس، أي الروح الرياضية. وسأخصص لها -إن شاء الله- حديثاً آخر.

(٢)

أعود إلى الكلام على الرياضة، وأبدأ بالعلاج بالرياضة. جربت ذلك بنفسي، فأنا مصاب بداء المفاصل وتصيبني آلام الركب، فلا أنهض في الصلاة إلا بصعوبة، وكلما أحسست بشيء من البرد أو لفحة من الهواء وجدت ذلك في كتفي أو في مفاصل رجليّ، وقد راجعت عشرات، عشرات حقاً من الأطباء، وجربت عشرات من الأدوية في عشرات من السنين، فما نفعني إلا الرياضة.

لقد قلت لنفسي لمّا يئست من الأدوية: إن مفاصل الجسد كمفصّلات الباب، فإذا كان ينقط عليها الماء فإنها تصدأ فلا يفتح الباب ولا يغلق إلا بصعوبة وصرير، فماذا يصنعون له؟ يقطعون عنه نقط الماء أولاً، ثم يضعون فيه من الزيت، ثم يحركونه؛ يفتحونه ويغلقونه، حتى يتشرب الزيت فيلين.

وصنعت لمفاصلي مثلما يصنع النجار لمفصلات الباب. عرفت -بالتحليل- نوع الأملاح التي تترسب فيها فتركت الأطعمة والأشربة التي تحوي هذه الأملاح، ثم اتخذت بدل الزيت للباب شيئاً من المُدِرّات، ثم عمدت إلى الرياضة. فكلما ازداد وجع المفاصل ازددت حركة لرجليّ، فأتألم أول الأمر ثم أحسّ بأن المفاصل أخذت تلين. وأنا أنصح من يشكو من آلام المفاصل بالحركة؛ بالمشي وبالرياضة المعتدلة الخفيفة.

والسمن خير دواء له الرياضة، بشرط ألّا تنفتح شهية المتمرن فيذهب بعد التمرين إلى المائدة فيأكل بلا حساب، فيعوض بأكلة واحدة من الشحم أضعاف ما خسره بتعب ساعتين من الرياضة. والذي يحس الضعف والخمول وقلة الرغبة في الطعام فليترك التدخين أولاً (إذا كان ممّن يدخن) وليقبل على الرياضة بجِد ونشاط.

وليس القصد من الرياضة أن يتدرب كل سامع لهذا الحديث ليكون مصارعاً أو ملاكماً أو بطل جنباز أو عدّاء أو وثّاباً، بل القصد أن يمارس من الحركات المنظمة ما ينشط الدم في عروقه ويعمل على نمو عضلاته وإذابة الشحم من جسده.

وأن يتحلى الشبان بالروح الرياضية، فالرياضة تعلم التعاون الصادق المخلص في الألعاب الجماعية، ككرة القدم التي لا يتم النصر فيها إلا إذا وفى كل لاعب بما عهد إليه به. وهذه اللعبة مثال مصغر لكل أمة تريد أن تظفر في معركة الحياة. فالنصر في ميدان الكرة لا يكفي فيه نشاط الهجوم إذا نام الدفاع ولا بد فيه

من التعاون، والظفر في معركة الحياة لا يكفي فيه أن يعلّم المعلم أو يجتهد الطالب إن لم يدأب العالم وينشط التاجر، ولا يكفي أن يقوم الجندي ساهراً في الجبهة إن لم يعمل الفلاح في الحقل.

ومن الروح الرياضية ألّا يفرح بالنصر حتى يطغى ويسخر من خصمه أو يعتدي عليه، ولا أن يجزع من الهزيمة حتى ييأس ويذهب أمله في معاودة الظفر، لذا ترى الغالب يصافح خصمه والمغلوب يهنئ غالبه.

وهذا ما تمتاز به الأمم الحية التي لا يطغيها الظفر ولا تقتلها الهزيمة. ولما غُلبت اليابان في الحرب الأخيرة تلقى إمبراطورها وشعبها الهزيمة بالصبر والاحتمال، ثم عمل الجميع للمعركة المقبلة كما يعمل البطل المغلوب لمباراة جديدة يعوض فيها ما فات، فما مرّ على الغَلْب عشرون سنة حتى عاد شعب اليابان أقوى مما كان. وكذلك صنع الألمان.

أما الذي تذهب الهزيمة بلبه فيتوارى خجلاً، أو ينسى ذلّ حاضره ليفخر بعزّ ماضيه، فليس من الروح الرياضية في شيء.

والرسول ﷺ كان المثل الكامل في هذا كله. وأنتم تذكرون يوم الحديبية، حين ردته قريش عن البيت الحرام وأرادته على معاهدة لم تكن شروطها في مصلحة المسلمين، حتى لقد تألم لها كبار الصحابة وضاق عنها صبرهم، وقال قائلهم: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلماذا نعطي الدنيّة في ديننا؟

ولما رفض سهيل بن عمرو، مندوب قريش، أن يكتب في

المعاهدة «محمد رسول الله» وأمر أن يكتب «محمد بن عبد الله»، وشق ذلك على كاتب الوثيقة وصعب عليه أن يمحو كلمة «رسول الله»، فمحاها ﷺ بيده.

لقد تلقى رسول الله ﷺ هذا الموقف بما يسمى اليوم بالروح الرياضية، وكان موقفاً لا مثيل له. ولا يقل عنه موقفه يوم الفتح، حين وقف هؤلاء الذين ردوه عن البيت، والذين لبثوا -قبل ذلك- ثلاثة عشر عاماً يؤذونه أشد الأذى وينالون منه أبلغ النيل، وقفوا أمامه أذلاء وعلى عواتقهم جرائمهم ظاهرة لا يستطيعون إنكارها، ينتظرون منه حكم القاضي العادل على المجرم الذي ثبت جرمه. فكان أكبر من قاضٍ وكان حكمه فوق العدل، إذ كان أباً لا قاضياً، وكان حكمه العفوَ لا التأديب.

* * *

فيا أيها السامعون، عليكم بالرياضة؛ الرياضة لقوة الجسد، والرياضة لدفع المرض، والروح الرياضية لسمو النفس وكمال الخلق. وليكن قدوتكم سيد البشر، محمد ﷺ، ودليلكم شرعه الذي يرغّب في كل خير ويدعو إلى كل ما فيه القوة بالحق.

* * *

بحث في الأعصاب

نشرت سنة ١٩٦١

كنت من أيام عند طبيب الأسنان وكان معي صديق لي، فرأيت في العيادة رجلاً بادي الأناقة قد قعد على كرسي ولفّ رجلاً على رِجل، وأخرج علبة دخائن[١] فخمة فأشعل منها واحدة، وتناول جريدة فجعل ينظر فيها، فلم يكد يسحب من الدخينة سحبتين ويقرأ من الجريدة سطرين، حتى مد يده فنظر في ساعته نظرة ونظر إلى باب غرفة الطبيب أخرى، ورمى الجريدة، وأطفأ الدخينة في الطبق وضغط عليها حتى مزقها، وقام يدور في الغرفة، ثم قعد وأخذ جريدة ثانية وأشعل دخينة أخرى، ثم لم يلبث أن أعاد الكرّة، فرمى الجريدة وأطفأ الدخينة وجعل يدور، ينظر إلى ساعته وإلى باب غرفة الطبيب.

فقلت لصديقي همساً: أترى هذا الرجل؟

قال: نعم، فما له؟

قلت: إنه يحس بصداع أليم يأخذ بجانبي رأسه، وهو مصاب

(١) الدخائن جمع دخينة، وهي السيكارة.

بالأرق والإمساك المزمن، وفي معدته بداية قرحة، وهو معرض لارتفاع ضغط الدم ومرض السكر.

قال: هل تعرفه؟

قلت: لا والله، ما رأيته إلّا الآن.

قال: وهل أنت منجم، أو تعلمت الطب على كبر فصرت تعرف أمراض الناس بلا فحص ولا اختبار؟

قلت: إذا كنت لا تصدق فاسأله.

قال: كيف أسأله وأنا لا أعرفه؟

قلت: ما أسهل التعارف في عيادات الأطباء.

والتفتُّ إلى الرجل فقلت: إذا كنتَ مستعجلاً فأنا أتنازل لك عن موعدي، موعدي عند تمام الساعة الواحدة.

قال: شكراً، موعدي أنا قبل.

قلت: رأيتك منزعجاً.

قال: معي صداع.

فنظرت إلى صديقي، فهزّ رأسه. قلت: ربما يكون منشؤه الأرق.

قال: صحيح؛ أنا من ليالٍ طويلة محرومٌ من النوم.

قلت: لقد أصابني أنا مثل ذلك وكنت أدرّس في البصرة من خمس وعشرين سنة، فكنت أضطجع مبكراً وأنا على غير نعاس لأتدارك ما فاتني من النوم، وكلما مرت دقيقة أسأل نفسي:

هل نمت؟ فكنت كأنني أوقظ نفسي، فأتقلّب في الفراش متوتر الأعصاب، وأبقى إلى الصباح، فأقوم مكسر الجسد دائر الرأس، وأمضي النهار كله كذلك. وكلما تذكرت أني لم أنَمْ أزداد انحطاطاً، مع إني كنت أغفي خلال الليل غفوات متفرقة ربما زادت على المدة الكافية للنوم. وعلمت -بعدُ- أني لو تمددت وأرخيت أعضائي كلها لنمت، أو لكفاني هذا الاسترخاء وأغناني عن النوم. وليس الأرق نفسه هو الذي يضر بل التفكير فيه، بدليل أن الإنسان يكون في سهرة ممتعة أو في عمل سار فيسهر إلى الفجر ويقوم من الصباح نشيطاً، وقد يمتد ذلك ليالي فلا يحس بتعب.

قال: صحيح والله، فهل أنت طبيب؟

قلت: لا.

قال صديقي: إنه «فلان».

قال: أهلاً وسهلاً، تشرفنا. إني أسمع حديثك وعرفتك من صوتك ولكن ترددت، وأنا فلان.

وتمّ التعارف، وأنِسَ بي، واتصل بيننا الحديث وشجعته حتى أفاض في الحديث عن نفسه، فإذا هو من أصحاب الأعمال الكثيرة والمواعد المتلاحقة، لا يستريح أبداً، ينصرف من عمله الظهر فيتغدى، ثم يمشي ليحضر اجتماعاً في الشركة، أو ليلقي نظرة على المصنع. فإذا أمسى المساء رأى زوجته وأولاده لحظة ثم أَمّ النادي أو القهوة، هذا إذا لم يكن مدعواً إلى وليمة أو حفلة. وقد أصيب بالإمساك المزمن وتعب المعدة، وقد خبّره الأطباء أن في معدته قرحة.

فنظرت إلى صديقي مرة أخرى، وضحكت، وقلت للرجل: هل تسمح أن أخبرك بما قلت لصديقي عنك؟

قال: نعم.

فأعدت عليه ما كنت قلت عنه. قال: وكيف عرفته؟

قلت: كنت أقرأ -قبل أن أجيء- بحثاً في الأعصاب للدكتور آرنولد جاكسون، وهو أكبر طبيب أميركي متخصص في أمراض الأعصاب، فرأيت في طريقة تدخينك وأخذك الجريدة ونظرك إلى الساعة ما ذكّرني بحالة يصفها في بحثه.

إنه يقول أن أكثر من نصف المرضى الذين يؤمّون عيادات الأطباء يشكون الإمساك والصداع والقرحة وارتفاع ضغط الدم ليسوا مرضى في أجسادهم، ولكن المرض في أعصابهم المرهقة، وهو يصف حالات كثيرة رآها. وأعجب من ذلك أنه رأى مرة بنتاً بارعة الجمال جاء بها أهلها من بلد بعيد محمولةً على محفة (نقالة) لأن في رِجلها شللاً أصيبت به من سنتين أعجزت مداواته أطباء بلدها. ويقول أنه رآها هو ومساعدوه فلم يجدوا في رِجلها علة، فسدد نظرة خارقة إلى عيني البنت وقال لها بصوت قوي عميق لا يحتمل معارضة: قومي وامشي على رِجليك.

وخيم الصمت على الغرفة، وبدت على وجه الأب علائم الغضب المكتوم، وتكلمت الأم واحتجّت، ولكنه ثبت، فاستجابت البنت ومدت يدها إليه فتناولها وأعانها على القيام، فمشت في الغرفة، ثم خرجت إلى الردهة وهو معها، حتى أوصلها إلى باب المستشفى وتركها تمشي وحدها في الشارع. وهو يعلّل هذه الحالة

(التي تبدو كأنها من الخوارق) بأنها كانت في الأصل مرضاً وهمياً سببه الأعصاب.

وليست ثمرةُ تعب الأعصاب الصداعَ وعسرَ الهضم والإمساكَ فقط، ولا القرحة وارتفاع الضغط ومرض السكر، بل إن من ثمراته المرة سوء الخلق، وضيق الصدر، والخلاف بين الزوجين، والمشكلات مع الناس. وسببه التوتر العصبي الدائم الذي جاءتنا به هذه الحضارة المادية الصاخبة.

أنا أسكن في دار في رأس الجبل، معتزلة هادئة، لا أكاد أسمع فيها نعيب سيارة ولا نواح رادّ، فذهبت شهرين إلى مصر، فنزلت فندقاً كبيراً بين ستة شوارع، فيه الترامات ترجّ الأرضَ إذا مشت، والسيارات توقظ الموتى إذا زعقت، والباعة يصرخون. وإلى جنبه عمارة تُبنى، فيها الطَرْق والخَبط، وخلال ذلك عشرون رادّاً تصرخ وتولول بأشد صوت وأنكره؛ يمتد هذا البلاء من الصباح الباكر إلى قريب الفجر.

فاحتملت الليلة الأولى، وتضعضعتُ الثانية، وبدأت أحس الليلة الثالثة أنني أنهار، ولو بقيت في هذا الفندق لانهارت أعصابي فعلاً.

هذا مثالنا؛ كان الناس يعيشون في القرى والمدن الصغيرة، حياتهم هادئة، وجوّهم ساكن، ومشكلاتهم قليلة، فاتسعت المدن وصعبت الحياة وصخب الجو وكثرت المشكلات، وكان الليل (كما خلقه الله) للنوم والراحة، فصار الليل للّهو أو للعمل. كان آباؤنا يغلقون دكاكينهم من العصر، يقنعون بما رُزقوا، فيتعشون

قبل المغرب وينامون بعد العشاء، ويقومون بعد الفجر أو قبل الشمس، أجسادهم مستريحة وأعصابهم هادئة، فصرنا نتعشى الساعة الحادية عشرة، وننام في الواحدة، ونستيقظ في التاسعة. أردنا أن نبدّل سنة الله في الوجود (وسنة الله لا تُبدَّل) فبدّل الله صحتنا سقماً وراحتنا تعباً.

هذه واحدة، إن السهر -كما يقول جاكسون- هو السبب الأول لمرض الأعصاب.

ولا يقل أحد: "إني أنام إلى الضحى فأعوض ما فاتني من نوم الليل"، فليس الأمر بعدد الساعات. وإن نوم ساعة واحدة من أول الليل لا يعدلها نوم ساعات من الصباح. ثم إن في السهر خسارة لا تعوض، وليس يدرك مقدارَها إلّا من يصحو مرة قبل الشمس ويرى جمال الدنيا في تلك الساعة ويبصر ما يحس به من النشاط والانتعاش. ثم إن السهر مخالفة للشرع وإضاعة لصلاة الصبح.

والثانية: كثرة المشاغل والمشكلات، لذلك يُصاب رجال المال والأعمال في أميركا بقرحة المعدة التي لا يدري بها ولا يعرفها العامل ولا الفلاح. وإذا كان في العمل الكثير ربح مال وفير فإن فيه خسران الصحة، فهل يعوض المال الصحة، وهل يفي وجوده بفقدها؟

وما قيمة الملايين إذا كان صاحبها لا يستطيع أن يأكل ولا أن يشرب وكان طعامه الخضر المسلوقة والحليب؟ أهذه حياة؟ أهذا غنى؟

الفقر –والله– خير من هذا الغنى، إذا كان الفقير يأكل ما يريد وهذا الغني محروم من كل شيء.

والثالثة في رأي الدكتور جاكسون: التدخين.

إنه يرى أن التدخين سم وأن الإكثار منه انتحار، وهو يوصي كل مريض بأعصابه أن يبدأ بترك التدخين.

والرابعة: القهوة. إنه يسأل كل مريض بالأعصاب يدخل عليه: كم فنجاناً من القهوة يأخذ كل يوم؟ لأن الإفراط في التدخين وشرب القهوة أكبرُ أسباب هذا المرض، وأكثر المرضى الذين راجعوه لم يكن بهم حاجة إلى جراحة ولا إلى دواء، لا يحتاجون إلّا شيئاً واحداً هو أن يشربوا الحليب أو الشاي الخفيف جداً بدلاً من القهوة القوية، وأن يتركوا التدخين.

* * *

ورأس الأمر كله هو راحة الفكر والبعد عن الهم والقلق والحصر، وكم من مريض يشكو عللاً مختلفات وما به مرض، ما هو إلّا الحصر وشغل الذهن. إن الهم الخفي ينخر الأعصاب كنخر السوس الخشب، لا يحس به الإنسان حتى يفتش عنه.

وربّ رجلٍ يشكو سوء الهضم لا يستطيع أن يأكل، في معدته قرحة وفي ضغطه ارتفاع وفيه مرض السكر، ومنشأ ذلك كله همٌّ في نفسه: همّ العمل، أو همّ الحذر من الإفلاس، أو الخوف من العزل، يزيده ضرراً السهر والتدخين وشرب القهوة.

هو شقي في عمله، شقي في بيته، مخاصم لامرأته، قد أشرف الأمر بهما على الطلاق. وهي تشكو الإمساك المزمن والصداع وضيق النفس ونقص الوزن، تضجر من أولادها وتعاقبهم بلا ذنب، وتضيق بالخادمة وتشتمها، ولا تحمل من زوجها كلمة، حتى يظن أنها شرسة الخلق وما بها إلّا مرض الأعصاب. ولا يحتاج كلاهما -على رأي الدكتور جاكسون- إلّا إلى الراحة والاسترخاء والبعد عن ضجيج المدن، إلى هدوء القرى والاعتدال في الشغل، وأن يعود إلى داره كما يعود الموظفون، وأن يجعل لنفسه أياماً للراحة، والإقلال من الحفلات والولائم، والتبكير في النوم وفي القيام، والإقلال من التدخين ومن المنبهات كلها، القهوة والشاي والكوكا كولا.

هذه وصفة أعظم طبيب للأعصاب في العالم اليوم.

وأزيد أنا على ذلك شيئاً آخر: هو تجديد الإيمان، والاتصال بالله، والشعور بحلاوة المناجاة، ولذة الصلاة والناس نيام، ومتعة الدعاء بالأسحار.

إنه ليس في الوجود شيء تصفو به النفس، وتستريح الأعصاب، ويكون منه السعادة الدائمة والهناء كالإيمان. ومن جرّب عرف، ومن أراد أن يعرف فليجرب.

* * *

ما هي السعادة ؟

أذيعت سنة ١٩٧٢*

كنت قاعداً أفكر في موضوع أتحدث به إليكم، فوقع بصري على زاوية في مجلة فيها خبر فتاة جميلة وصل إليها إرث ضخم من قريب لها، وتحتها هذه الكلمات: «الجمال والمال، هذه هي السعادة».

فقلت في نفسي: هذا هو الموضوع، الموضوع: «السعادة».

ولكن هل صحيح أن السعادة بالمال؟ وهل أصحاب الأموال كلهم سعداء؟ وهل المال هو نهاية الآمال؟

عرفت في صغري رجلاً في بلدنا كان له من الأموال ما لا تأكله النيران، ودائع في المصارف، ومبالغ في الصناديق، وعقارات وبساتين. ولكنه كان معتل الصحة واهي الجسد، فهل أسعده ماله؟

---

* في كتاب «صور وخواطر» مقالة عنوانها «السعادة»، كتبها الشيخ -رحمه الله- ونشرها وهو في مصر سنة ١٩٤٨. وبين المقالتين بعض التشابه وكثير من الاختلاف، ومن أجل ذلك لم أتردد في نشر هذه المقالة التي كانت -في الأصل- حديثاً أُذيع من إذاعة «صوت الإسلام» بمكة المكرمة على حلقتين في محرم سنة ١٣٩٢ (مجاهد).

وقد سمعنا قصة الغني المريض الذي يملك الملايين ولكنه لا يملك القوة على هضم أكلة يأكلها، حين أطلَّ من شباك قصره على البستاني وهو يأكل الخبز والزيتون، فتمنى أن يخسر ملايينه ويربح مثل معدة البستاني.

وقرأنا ونحن صغار خرافة تقول أن رجلاً أُعطي أمنيتين، فتمنى أن يصير كل شيء يلمسه ذهباً، فأُعطي ذلك. فأمسك بالقرش فصار ديناراً، وأمسك بالخشبة فصارت ذهباً. فكاد يطير عقله من الفرح، ورأى أنه صار أغنى الناس. وجاع فجاؤوه بالطعام فمس الرغيف فصار ذهباً، فلم يستطع أن يأكل وبات جوعان، وجاءت بنته تسلم عليه فمسها فصارت ذهباً، فقعد يبكي... ماذا ينفعه الذهب إذا خسر بنته وبقي بلا طعام؟ وتمنى الأمنية الثانية، وهي أن يعود كل شيء إلى حاله، لأنه علم أن الذهب ليس هو كل شيء.

فليست السعادة بالمال، بل قد يجيء مع المال التعب وشغل البال. إننا لم نكن نعرف ما قرحة المعدة ولا سمعنا بها حتى علمنا أنها تصيب رجال المال والأعمال. والصحة مقدمة على المال؛ مَن يرضى أن يصير مريضاً عليلاً لا يُرجى شفاؤه ويأخذ مئة ألف ريال؟ من يتنازل عن بصره ويأخذ مئة ألف ريال؟

ومع ذلك، فهل الصحة والمال هما السعادة؟ أليس في الناس من هو صحيح غني وليس بسعيد؟

قرأت في الجريدة مرة عن رجل أمريكي اسمه هارولد هنت، قالت الجريدة أنه أغنى رجل في العالم، عمره تسع وسبعون سنة

وهو يشتغل عشر ساعات في اليوم وربحه اثنا عشر ألف دولار في الساعة (أي أربعة وخمسون ألف ريال). أي أن ربحه في الدقيقة الواحدة تسعمئة ريال، أي خمسة عشر ريالاً في كل ثانية! فهو لذلك يمنع نفسه كل متعة. حتى التدخين الذي كان مولعاً به، وجد أن الوقت الذي يستغرقه إشعال الدخينة يخسر بإضاعته ثلاثمئة ألف دولار في السنة، فترك التدخين!

فقعدت أفكر: هل هذه حياة؟ هل هذا الرجل سعيد؟ لقد تحول من بشر يحس ويشعر ويتذكر الماضي ويحلم بالمستقبل ويمتع نفسه بأنواع المتع إلى آلة، مجرد آلة لصنع النقود. كل ثانية بخمسة عشر ريالاً. أي أنك إذا سلمت عليه فإن ردّ السلام يستغرق نصف دقيقة، أي ثلاثين ثانية، فيكلفه أربعمئة وخمسين ريالاً. وإن قعد على المائدة ثلث ساعة خسر ثمانية عشر ألف ريال! حُرم من كل شيء ليجمع المال.

وذكرت قصة أدبية قرأتها وأنا صغير، نسيت مؤلفها، موضوعها أن رجلاً ذهب ليقابل واحداً من أصحاب الملايين. فلما رآه رجلاً مثله لم يصدق، لأنه كان يتصور أنه سيكون طويلاً عريضاً ضخماً كأنه كرة من الشحم واللحم. ثم نظر إلى ثيابه فوجده يلبس ثوباً واحداً عادياً، وكان يظن أنه يلبس خمسين ثوباً بعضها فوق بعض. ورآه يأكل رغيفاً وطبقين صغيرين، وكان يظن أنه لكثرة ماله يأكل مئة رغيف ومئة صحن على الغداء، ومثلها على العشاء. ورآه ينام على سرير واحد، وكان يظن أن في غرفة نومه خمسين سريراً ينام عليها كلها في وقت واحد. فقال له: إذا كنت تلبس ثوباً واحداً وأنا ألبس ثوباً واحداً، وتأكل مثلما آكل، وتنام

مثلي على سرير واحد، فكيف تستفيد من هذه الملايين؟

إن الله جعل معدة المليونير بمقدار معدة الفقير، ولو كانت تتسع لكل ما يستطيع أن يشتريه ماله لأكل الغني كل شيء ولم يترك للفقير شيئاً. بل إن حكمة الله أدق من ذلك وأعظم. إنه جعل للطعام حداً إن نقصت عنه أصابك فقر الدم والضعف والهزال، وإن زدت عنه أصابك وجع المفاصل والأملاح والرمل وآلام الكلية.

فلا يأسف الفقراء، فها هو ذا المليونير الأميركي أمامهم. هل يتمنون أن يكونوا مثله: يكسب أربعة وخمسين ألف ريال في الساعة فيمنعه ذلك من إنفاق ربع ساعة في راحة نفسه؟

* * *

فما هي السعادة؟

السعادة -يا سادة- تأتي من داخل النفس، لا تأتي من خارج.

أقول لكم ما السعادة في كلمة واحدة؟ السعادة هي الرضا، فإذا أردتم أن تكونوا سعداء فارضوا.

إذا رضيت فأنت سعيد، وكلما زادت طلباتك نقصت سعادتك. الذي يملك ثلاثة ملايين ويطلب أن يكون معه أربعة تكون سعادته ناقصة مليوناً، أما الذي يملك مئتين ولا يطلب شيئاً فلا تكون سعادته ناقصة شيئاً.

إن الفضيل بن عياض لم يكن له إلّا دار فيها غرفتان من الطين، وجلد خروف يقعد عليه، وإبريق ماء يتوضأ به، وسراج يوقده في الليل. ولكنه كان أسعد من هارون الرشيد، لأنه كان

راضياً لا يطلب شيئاً فوق ما هو فيه وهارون كان يملك ربع المسكون من الأرض ويطلب فوق ذلك الكثير.

وأنا لا أدعو إلى كره المال والانصراف عنه والزهد المطلق فيه، فإن المال مطلوب والله سماه في القرآن «خيراً»، ولا بد لنا من المال. ولكن المال وسيلة إلى متع العيش في الدنيا وإلى كسب الحسنات في الآخرة، فإذا أنفقته على طعام تأكله أو ثوب تلبسه أو صدقة خالصة تقدمها كان مالك، وإلّا لم يكن لك منه شيء. وهذا ما قاله رسول الله ﷺ، قال[1]: «لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت»، وما زاد فإنك خازن تحفظه للورثة، هم يستمتعون به ويكون حسابه عليك.

* * *

وقد عبّر الرسول ﷺ عن السعادة في كلمات في حديثه المشهور: «مَن أصبح منكم مُعافًى في جسده، آمناً في سِرْبه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»[2].

هذه الدنيا: أن تكون صحيح البدن، فإنك لا تعرف قيمة الصحة إلّا عند المرض. إذا وجعك ضرسك أو آلمك رأسك لا تتمنى إلّا الشفاء وتراه غاية السعادة، فلماذا لا تذكر ذلك وأنت صحيح؟

---

(١) الحديث رواه مسلم والنسائي وأحمد، ولفظه عند مسلم: عن قتادة عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟» (مجاهد).

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه (مجاهد).

والثانية: الأمان. إذا كنت خائفاً من عدو يتربص بك أو لص يحوم حول دارك أو حية اختبأت في شق جدارك عرفت ما قيمة الأمان.

الثالثة: أن تجد قوت يومك. ماذا تريد أكثر من هذا؟

فيا أيها السادة، السعادة في أيديكم ولكنكم تفرطون بها. سعادتكم أن ترضوا عما أنتم فيه؛ إذا رضيت بما أنت فيه كنت سعيداً. فهل تحبون أن أقول لكم من أين تأتون بالرضا؟

من أكبر أسباب الرضا أن تنظر في أمور الدنيا لمن هو دونك، وفي أمور الآخرة لمن هو فوقك. لا تقل: فلان مثلي، فلماذا صار يملك عشرة آلاف وأنا لا أملك ألفاً؟ ولكن قل: لماذا حصّل من العلم أكثر مما حصّلت، ولماذا عمل من الحسنات أكثر مما عملت؟

يكون في المدرسة الواحدة، بل في الفصل الواحد، ثلاثون أو أربعون. يقعدون على مقعد واحد ويستمعون لمدرّس واحد، ولكن الحياة تفرق بينهم من بعد، فيرتفع زيد وينخفض عمرو، ويكون منهم المدير ومنهم الكاتب عند هذا المدير، ومنهم الرئيس ومنهم المرؤوس لهذا الرئيس. ويصير واحدٌ غنياً له الآلاف المؤلفة والآخر لا يجد إلّا مرتبه.

هذه هي سنّة الله في الحياة وهي قسمته: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾. انتبهوا، فإن ربنا ما قال: قسمنا «رزقهم»، بل «معيشتهم»، فالراحة في المعيشة قسمة والتعب قسمة، والضيق قسمة والسعة قسمة.

فإذا أردت السعادة فلا تنظر لمن قُسم له أكثر منك، بل لمن قُسم له أقل. ولا تقل: فلان زميلي وقد سبقني، فإنّ سبْقَه لك لا يضرك. وقد سبقني كثير من تلاميذي فضلاً عن زملائي، مِن تلاميذي مَن صار وزيراً ورئيساً، ومنهم رئيس جمهورية، إي والله، فما شكوت ولا بكيت، بل افتخرت بنجاحهم وسررت لهم.

ولو تألمتَ لأن زميلاً لك سبقك فأرضوك بأن جعلوك مثله، فهل تظن أنك تستريح؟ إنك ستجد زميلاً آخر صار أعلى منك رتبة فتحزن لأنك لست مثله، وإن جعلوك مثله وجدت ثالثاً ورابعاً... وإذا تألمت المرأة لأن رفيقتها أو جارتها اشترت ثوباً ليس لها مثله أو حلية لا تستطيع شراء حلية مثلها فاشتروها لها، فهل تسعد؟ أبداً والله، لأنها إذا تعودت النظر إلى أعلى منها فستجد دائماً من هي خير منها وأغنى.

فلماذا نتعب أنفسنا بالنظر لمن هم أعلى منا؟ ولماذا نضيع السعادة والسعادة بين أيدينا؟

* * *

سبحان مقسّم الأرزاق

نشرت سنة ١٩٦٥

فكرت اليوم في أمر الرزق، فوجدت أمر الرزق عجيباً؛ كل امرئ يأكل رغيفه، لا يبيت أحدٌ جائعاً، ولكنّ كلاً يجد رغيفه في مكان.

الموظف جعل الله رغيفه على مكتبه، يقعد على كرسيه يدخن دخينته ويترشف قهوته، ويمد يده فيأخذه. ومنهم من يكون ساكناً في مكة -مثلاً- ورغيفه في جدة، فهو يذهب كل يوم، يقطع أكثر من سبعين كيلاً[1] ليأتي به ويرجع، فإذا لم يذهب لم يأخذه. ومنهم من يكون من أهل الشام أو مصر، ولكن الله يضع له رغيفه -في بعض السنين- في الكويت أو في الرياض.

والطيار وُضع رغيفه فوق السحاب وقيل له: اصعد لتأخذه، والغواص وُضع رغيفه في أعماق البحار وقيل له: انزل لتأخذه، وعامل المنجم رغيفه في بطن الأرض أو في وسط الصخر الصلد، لا يصل إليه حتى يفجره بالديناميت. والعطار يتناوله بيد مضمخة بالعطر، والزبال يتناوله بيد ملطخة بالزبل. ومَن يأكله هنيئاً مريئاً،

(١) الكيل وجمعه أكيال، مثل الميل والأميال، تعريب كيلومتر.

ومَن يأكله ليحاسَب عليه -من بعد- حساباً عسيراً، وقد يصلى به سعيراً.

ومِن الناس مَن يكون مثل أمين الصندوق في المصرف: تحت يده مئات الآلاف وليس له منها آخر الشهر إلا خمسون ديناراً، وهو الغني البخيل؛ تكون عنده الأموال الطائلة ويعيش هو وأهله على القليل، فهو «أمين صندوق» يحفظها ليستمتع الورثة من بعده بها ويكون عليه حسابها.

ومَن يكون مثل «المعتمَد المالي»، أعني الموظف الذي يوكله إخوانه في الدائرة باستلام الرواتب من الخزينة وتوزيعها، وهذا هو الغني الذي يلهمه الله الإنفاق على الفقراء. إنه يعطي كلاً رزقه ولا يعطيه من رزق نفسه، فهو كالمعتمَد، ولكن الموظف المعتمد يكون جزاؤه كلمة شكر، وربما حرموه من كلمة الشكر، وهذا المحسن يوصل إلى الفقراء أرزاقهم ويكون له عن كل مئة دينار يوزعها سبعون ألف دينار: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

ومَن يكون حافظاً لمال والمال مقسوم لغيره.

حدثني الشيخ صادق المجددي، سفير الأفغان سابقاً في مصر، أنه كُلِّف مرة بمهمة سياسية عاجلة في روسيا. وخاف أن يمر ببلد لا تُؤكل ذبيحة أهله شرعاً، وكان عنده دجاجتان فأمر بذبحهما، واتخذت له زوجته سُفرة[1] منهما حملها معه. فلما

---

(١) السُّفرة زاد المسافر.

وصل إلى طاشقند[1] دعاه شيخ مسلم، فكره أن يأخذ الدجاجتين معه إلى دار الشيخ، ورأى في طريقه امرأة مسلمة فقيرة معها أولادها ورأى الجوع بادياً عليهم وعليها، فدفع إليها الدجاجتين. فلم تمضِ ساعة حتى جاءته برقية أن ارجع، فقد صُرف النظر عن «المهمة». فكانت هذه الرحلة لأمر واحد، هو أن الدجاجتين كانتا في داره ولكنهما ليستا له ولا لأهله؛ إنهما لهذه المرأة وأولادها، فطبختهما زوجته وحملهما بنفسه أربعة آلاف كيل ليوصلهما إليها!

* * *

والرزق ليس المال وحده، وقد يُعطَى الرجل المال الوفير ويُحرَم ما هو أحب إليه وأعز عليه من المال.

أمَا سمعتم قصة السيد الغني الذي كان له القصر الفخم ومن حوله الخدم والحشم، وكان في صندوقه الذهب والجوهر، ولكنه كان مريضاً قد اصطلحت عليه أضداد الأمراض وربطته بسريره سنوات. فاشتهى يوماً أن يرى بستان قصره، فنحّوا سريره حتى واجه النافذة، فنظر فرأى الفلاح وزوجته وولده، قد افترشوا التراب ووضعوا أمامهم صحن الفول فعصروا عليه الليمون ونقطوا عليه زيت الزيتون، ثم غمسوا فيه الخبز فأكلوا، ثم أخذوا من الساقية فشربوا، فقال الرجل: آه، ليتني آكل مثل هذه الأكلة وأبقى بلا مال!

---

(١) وكانت تُسمّى «الشاش»، ومنها الشاشي الكبير والشاشي الصغير، الفقيهان الشافعيان.

وإذا كانت هذه القصة مثلاً مضروباً لا يُدرى أهي من الواقع أم من الخيال، فإني عرفت في دمشق رجلاً (توفي من سنين طوال) كانت له أعلى العمارات وأكبرها، وكان له أوسع الضياع وأجلّها، وكانت له آلاف الأسهم في أشهر الشركات وله الحسابات الجارية في أعظم المصارف، وكانت في معدته قرحة خبيثة فهو لا يستطيع أن يُدخل إليها شيئاً إلا الحليب، وكان لا يبصر إلا بنظارتين يركب إحداهما على الأخرى ثم لا يفرق من بعد عشرة أمتار بين الإنسان والحمار (أعني الحمار الحقيقي، لأن الحمار المجازي في ظاهره كالإنسان!)... ألا يتمنى لو ذهب نصف ماله وكان كامل الصحة، متين البناء، حادّ البصر؟

وهاتوا أفقر فقير لأسأله: هل يرضى أن نبتر إبهام يده ويأخذ ألف دينار؟ هل يبيع عينه بعشرة آلاف دينار؟

والفقير الذي عنده عشرة أولاد يشتكي من كثرتهم والإنفاق عليهم، أينزل عن واحد منهم لأَكَلة لحوم البشر فيعملوا من لحمه «كفتة» ويأكلوه أمامه ويأخذ مئة ألف دينار؟

البصر -يا سادة- نعمة، والمعدة الصحيحة نعمة، والولد نعمة، وكلها يدخل في حساب الأرزاق. فلا تحسبوا الرزق «المرتب» وحده، بل هذه النعم كلها من الرزق.

فاسعوا لطلب الرزق وجدّوا فيه ولا تدّخروا وسعاً ولا جهداً، ثم ارضوا -بعد ذلك- بما جاءكم ولا تغضبوا ولا تسخطوا. هل يغضب الموظفون على زميلهم الذي اعتُمد لتوزيع الرواتب آخر الشهر ويقولون له: لماذا أعطيت الرئيس أكثر مما أعطيت

الفراش، أم يعلمون أن الرواتب حددتها الحكومة من قبل ولم يحددها هو، ولا يملك زيادة فيها ولا نقصاً ولا تبديلاً ولا تحويراً؟

إن الأرزاق مثلها؛ إنها محددة من قبل، إنها مقدرة من الأزل، والذي قدرها هو الله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾. فنحن نعمل ونجدّ ونكافح ونتخذ الأسباب كلها لأن الله أمرنا بالعمل والجد والكفاح واتخاذ الأسباب، ثم نرضى -بعد هذا- بما جاءنا من الله.

فلا نعيش خاملين ولا نحيا ساخطين، وهذا هو شأن المسلمين.

* * *

معلّم القرية

نشرت سنة ١٩٣٥

أطبق حسني أفندي كتابه مَغيظاً مُحنَقاً على أنه لم يفهم منه شيئاً، وطفق ينظر إلى هذه الغرفة التي أكرموه بها، وآثروه بها على نفوسهم، وحلفوا له على أنها أحسن غرفة في «الصنمين»[(١)]! فعافتها نفسه، وملّ النظر إلى هذه الجدران الحجرية المليئة بالثقوب العميقة، التي لا يدري ما فيها ولا يعلم من أمرها إلّا أن صاحب الغرفة قال له -لما منحه غرفته- يسكنه ويسليه: لا تخف من هذه الثقوب، فإنه ليس فيها إلّا حيات وثعابين «أليفة»... هي في هذا البيت منذ مئة سنة ولم تؤذِ أحداً!

فكان -من بعدُ- يرتجف هلعاً كلما تصور هذه الحيات والثعابين، ويراها في منامه ترقص من حوله، وتلمس وجهه، وتلتف على عنقه، فيهبّ من نومه خائفاً مرتاعاً، لا يهنأ بمنام ولا يستقر به مقام، خشية أن تنقُضَ هذه الحيات عهودها، وتنقَضَّ عليه فتلدغه. وكيف يطمئن إلى عهود الحيات والحكومات تخلف مواعيدها؟!

---

(١) وهي قرية على بُعد نحو خمسين كيلاً إلى الجنوب من دمشق (مجاهد).

وضاقت هذه الغرفة بحسني أفندي فخرج منها إلى السطح، ووقف يطل على هذا الدار العامرة فيرى أقراص الجلة[1] وقد ملأت الساحة ونُشرت على السطح، تُجفَّف لتُتَّخذ «حطباً» في الشتاء! ولا يأنف الفلاحون من غمس أيديهم فيها، ولا يزيدون -بعدُ- على أن يمسحوا أيديهم بثيابهم، ولا يمتنعون من أن يقبلوا على عملهم فيعجنوا أو يصنعوا هذه «القهوة المرة»، التي ما شربها حسني أفندي مرة إلا تصور فيها أقراص الجلة فوثبت معدته إلى حلقه!

ويرى تحت غرفته إصطبل البقر وإلى جانبه مخزن التبن، ويرى في وسط الدار حماراً مربوطاً، لا يفتأ يغني بصوت عالٍ كلما خطر لحسني أفندي أن يترنم بأغنية، وإلى جانبه خروفان يأكلان ويكملان هذا «الأوركسترا» الحماري، وبين أرجل الحمار أو الخروفين عشر دجاجات تغدو وتروح، تلتقط الحب والنوى.

ويرى القرية، فإذا هي مئة بيت من حجر أسود قد صفف تصفيفاً لا يمسكه شيء من كلس أو طين، تتخلل البيوتَ بِرَكٌ واسعة تمتلئ من مياه المطر فيشرب منها الناس والأنعام، ويغسلون فيها ثيابهم وقدورهم، ويدخلون فيها مواشيهم ويطلقونها فيها تصنع ما تشاء!

وتصوّر إخوانه المعلمين وقد اجتمعوا -في هذه الساعة- في

(١) «الجلّة» كلمة مثلثة الجيم (أي هي بفتحها وضمها وكسرها). وهي روث وبعر الدواب، كانوا -لفقرهم- يجففونه ثم يوقدونه في الشتاء ليستمدوا منه الدفء، فيكون له ريح نتنة تزكم الأنف (مجاهد).

قهوة فاروق، يشرفون على شارع بغداد الفخم ويطلّون من الجهة الأخرى على شارع الصالحية، وقد أخذوا يتحدثون ويتنادرون. ثم يذهبون إلى دورهم فيأنسون بأهلهم وأولادهم، وينعمون بالفراش الوثير والنعمة الشاملة، وهو يقضي ليله وحيداً ضَجِراً ، بعيداً عن أهله وأولاده، نائياً عن داره وبلده.

وذكر كيف ودّ لو افتدى من هذا السفر بكل ما يملك، وكيف حُبِّبت إليه ليلةَ السفر دارُه وبلدته، وأشرق على صورتها (التي كانت مظلمة في عينيه) نورٌ جديد جعلها بهيّة جميلة، وكيف ذكر -وهو يودّع أولاده وصحبه- كل ما يحفظ من الأشعار وما قرأ من القصص التي تصوّر موقف الوداع، وكيف امتلأت نفسه حزناً ويأساً حتى شعر كأنما قد بُتر من الحياة بتراً. والمرء لا يحيا إلّا في بلده وداره، ونفوس أصدقائه ووجود أهله، فإذا فارق أهله وبلده إلى بلد لا يعرفها وأهل لا صلة له بهم كان كالنبات يُنقَل من تربة إلى تربة أخرى، فتتمزق جذوره وتتقطع أوصاله، ويقوم بين الحياة والموت!

وهاج حسني أفندي الشوقُ ولَجَّتْ به الذكرى[1]، فضاق صدره وانقبض، وأحسّ باليأس جاثماً على قلبه فلم يعد يبصر مما حوله شيئاً، ثم أدركته يقظة من عقله فجعل يسأل نفسه: أن لماذا يحزن؟ لماذا تؤلمه الوحدة ويضيق بها صدره؟ ولماذا يسعى أبداً ليجد في الحياة ما يشغله؟ لماذا يخشى من معرفة نفسه والاطمئنان إليها؟

---

(١) يقال: لجّ في الأمر: لازمه وأبى تركه، ومنه قولهم: لج بهم الهم، أي لزمهم (مجاهد).

وما هذه الحياة التي تبغّض إلى الإنسان نفسَه حتى يتناساها ويشتغل عنها؟ وهل يستطيع المرء أن يعرف نفسه، وهو مذ يفتح عينيه إلى أن يغمضها لا ينقطع لحظة واحدة عن التفكير، في كل شيء إلّا... نفسه؟! فهو يفكر في طعامه وشرابه، وهيئته وثيابه، وأصدقائه وأصحابه، بل هو يحسّ الضيق إذا لم يجد صاحباً يستمع إلى هرائه ويُسمعه هراءه، أو كتاباً ينقل فكره من مكان إلى مكان دون أن يلمس في هذا التنقّل حقيقة واحدة من الحقائق الكبرى التي خُلق لها. بل هو قد يجاوز هذا الحدّ فلا يفضّل من الكتب والمجلات إلا أبعدَها عن هذه الحقائق وأقدرَها على تبديد عمره وتمزيق أوقاته، كأنما لا عمل له في هذه الحياة إلا إضاعة الحياة! وإذا أعجزه الأمر ولم يجد من الناس أو من الكتب ما يشغله عن عمله ويضيع من وقته اعتراه الضجر والسأم، وأظلمت الدنيا في ناظريه. وما ذاك إلّا لأن نفسه غريبة عنه فهو يخشاها ولا يستطيع أن ينفرد بها، ولا يسيغ صحبتها كما يسيغ صحبة رفيق سخيف لا يمت إليه إلا بصلة الحديث التافه والنفاق المتبادل!

وجعل يخاطب نفسه ويقول لها: ماذا؟ أمثلك -يا حسني- يجزع من القرية وتذهب نفسه حسرة على أن يكون قد فارق قهوة فاروق، ولم يتنفس ذاك الهواء الثقيل الفاسد، ولم يستمع إلى ذلك الحديث البارد، ولم يقدر أن يسرق من عمره أربع ساعات يبددها ويضيعها؟!

أنت رجل! والرجولة لا تُظهر معانيها ولا تعمل عملها إلّا إذا حاقت بها الشدائد واكتنفتها الآلام، كالمصباح لا يظهر فيه معنى النور ولا يعمل عمل النور إلّا إذا حفّت به الظلمة وشملته معانيها.

وما قيمة مصباح يُضاء به لشمس الضحى؟ وما قيمة رجولة نائمة في قصور النعيم؟

ثم إنك عربيّ! ولن تتم للعربي عروبته بنسب الدم دون نسب الصفات. وليست العروبة بالضاد يدهورها الرجل من شدقيه، ولا بالنسب ينحدر إليه من أبويه، ولكن العروبة بحزم العرب، ومضاء العرب، وصبر العرب. وليس بالعربيّ من لا يتحقق فيه جزء من هذه الصفات، ليتحقق من مجموع هذه الصفات في أفراد الأمة مجموع سجايا الأمة. وأول هذه السجايا الصبر على البلاء، والرضا بالقليل، والبعد عن الترف.

ومتى كان العربيّ يجزع من حياة البادية، ويكره الفلاة، ويأبى أن يلبس ثوب الصحة الذي تنسجه عليه -من خيوطها- الشمس؟ وأن يملأ عينه وأنفه وأذنه من الجمال الخالد الذي أفاضه على الدنيا الله؟

ورفع حسني أفندي رأسه، ونظر إلى هذه السهول الواسعة التي تحيط بالبلد، فراقه مشهد الشمس وهي مائلة إلى الغروب، وأعجبه منظر الفلاحين وهم يروحون إلى بيوتهم، لا تشتمل ثيابهم إلّا على صحة الأجسام وصحة النفوس وصحة الأخلاق... فأحسّ بالرضا والاطمئنان.

* * *

هذه الامتحانات!

نشرت سنة ١٩٦١

فكرت اليوم في هذه الامتحانات: هل هي ميزانٌ صادق لكفاية الطلاب؟ ألا يمكن أن نجد طريقة أحسن منها؟ لماذا يحفظ الطلاب الكتب غيباً؟ صحيح والله... لماذا نكلفهم بحفظ الكتاب؟

كنا مرة في المحكمة من سنين نتحدث، فذكر لنا أحد الزملاء الأسئلة التي وُجّهت إلى طالبي الدخول في القضاء، فخطر على بالي خاطر، فقلت للإخوان: هؤلاء الذين دخلوا المسابقة سيعيَّن الناجح منهم في أدنى درجات القضاء، ونحن هنا في أعلى الدرجات، وما منا إلا من أمضى في القضاء عشرين سنة على الأقل حتى غدا مستشاراً في محكمة النقض (التمييز)، فهل نستطيع نحن الجواب عليها؟

وفكرنا، فلم نستطع، لأنه ليس فينا من يحفظ مواد «القانون المدني» غيباً. ولو سألتَ المفتي أن يَعُدّ لك سنن الصلاة الثماني عشرة ويسردها سرداً لما قدر. ولو جئت لأكبر علماء اللغة فكلّفته أن يسرد عليك أوزان المجرد والمزيد من الأفعال بنَفَس واحد لعجز. فلماذا نكلف الصغار المبتدئين بما يعجز عنه الكبار من الواصلين؟

ولماذا يكلَّف من يدخل القضاء بحفظ القانون المدني عن ظهر قلب وثمنه ليرتان وهو موجود في كل مكان؟ لماذا يحفظه طالب الدخول في القضاء ونحن القضاة الكبار لا نحفظه؟ وليس في قضاة الدنيا من يحفظه مادة مادة، ولا يحتاج قاضٍ إلى حفظه، إنما يحتاج إلى معرفة المراجعة فيه وفهمه.

ولماذا يحفظ الطالب عن ظهر قلب مساحة فنلندا والكونغو وتشيلي، وأسماء جبالها وعلوها، وبحيراتها وعمقها، وأنهارها ومقدار مائها؟ لماذا بالله؟ وهو إن احتاج إليها يوماً فتح الكتاب فراجعها. وهل يحفظها الأستاذ نفسه؟

الأستاذ يقعد على منبر الدرس فيفتح الكتاب وينظر فيه أو يقرأ في مذكرة في يده ويقرر الدرس، فإذا عمل التلميذ مثله وفتح الكتاب يوم الامتحان أو نظر في ورقة عدّوه لصاً من اللصوص ومجرماً من المجرمين، وقبضوا عليه بالجرم المشهود وطردوه من الامتحان. فلماذا نطلب من التلميذ ما لا نطلب مثله من الأستاذ؟ ولماذا يُحرَّم على الطالب ما يجوز للأستاذ؟ مَن مِن الأساتذة يحفظ الكتب التي يدرّسها غيباً؟

أنا قد ألّفت أكثر من خمسة وعشرين كتاباً، فهل تظنونني أحفظها عن ظهر قلب؟ فلماذا يكلَّف الطلاب بحفظ كتب لا يحفظها مؤلفوها؟

دُعي مرة أحد العلماء لامتحان القضاء (ولم يكن يُطلَب من القضاة قبل خمسين سنة شهادة ولا كانت الشهادات، إنما كانوا يُختارون بالامتحان) فكلفوه أن يحفظ «المجلة» ويجيء.

فقال: إن المجلة[1] فيها ١٨٠٠ مادة، وهي موجودة في أيدي الناس، فلماذا أحفظها؟

قالوا: لا بد من ذلك، احفظها لنمتحنك بها.

قال: اسمحوا أولاً أن أمتحنكم أنا فأسألكم منها، هل تحفظونها؟

وكانوا منصفين، فقالوا: لا.

قال: كيف تحكمون بها وأنتم من كبار القضاة؟

قالوا: نفتح الكتاب ونقرأ المادة، ثم نفهمها ونستنبط منها ونطبق عليها.

قال: فبهذا فامتحنوني.

* * *

وأنا واحد من الآلاف المؤلفة الذين درسوا في هذه المدارس من الصف الأول الابتدائي إلى آخر التعليم العالي، وقرأت مع ذلك بنفسي ما لا يقل بحال من الأحوال عن ثلاثة آلاف كتاب، وحفظت أشياء كثيرة وأديت الامتحان بها، فماذا بقي عندي منها؟

ماذا بقي عندكم الآن -يا أيها الأساتذة الكبار- من المعلومات التي حشوتم بها أذهانكم وحملتها ذاكرتكم؟ ما بقي إلا المَلَكة العامة ومعرفة المَراجع والمُراجعة.

---

(١) هي «مجلة الأحكام العدلية» التي أصدرها العثمانيون، وتمثل القانون المدني، وأكثر مادتها (أو كلها) من المذهب الحنفي (مجاهد).

والامتحان: هل هو طريقة صحيحة لقياس الكفايات؟

يدخل الامتحانات العامة في كل سنة عشرات الآلاف من الطلاب يُطرَح عليهم سؤال واحد، ولكن المصححين كُثُر ومقاييسهم مختلفة كاختلاف حالاتهم النفسية عند رؤية ورقة التلميذ، فمن المصححين المدققُ والمتساهلُ، والسخيُّ بالدرجات والبخيلُ، وكل مصحح يكون نشيطاً ويكون متعَباً، ويكون مركّز الذهن ويكون موزّع الفكر، والدرجات تختلف تبعاً لذلك.

وهذا الذي أقوله لا أقصد به انتقاد الامتحان في بلادنا، بل أريد نقد النظام من أساسه، وهو بحثٌ طالما عرض له رجال التربية وأيدوا الحكم عليه بالفساد بتجارب كثيرة. منها أنهم عمدوا في أميركا إلى مئة ورقة عرضوها على لجنة فاحصة مدسوسةً وسط آلاف من الأوراق، فوضعت لها اللجنة الدرجات، فاحتفظوا بها وكتبوها نفسها مرة ثانية وعرضوها على اللجنة ذاتها في وقت آخر، فوضعت لها درجات اختلفت أكثر من عشرين في المئة علواً وانخفاضاً. أي أن الورقة التي أخذت أول مرة ثلاثين من مئة أخذت المرة الثانية اثنين وعشرين، والتي أخذت خمسين أُعطيت المرة الثانية ستين. وقد يكون سقوط التلميذ ونجاحه متوقفاً على خمس درجات من مئة.

وأنا لا أعجب -مع هذا- إلا من مصحح يضع للتلميذ ٤٩ وسبعة أعشار الدرجة فيسقط، مع أنه لو أخذ خمسين لنجح. ٤٩ وسبعة أعشار؟ هل كان في يده ميزان الذهب؟!

وجرَّبوا تجربة أخرى: طلبوا من أستاذ كبير أن يكتب هو

الجواب الذي يستحق أعلى درجة، فكتبه. فبدلوه تبديلاً يسيراً وكتبوه بخط آخر وعرضوه عليه وسط مئات من الأوراق فأعطاه درجة دون الوسط!

ومن الأساتذة من يتحذلق فيختار السؤال من حاشية في الكتاب أو من مسألة فرعية، كأن المدار كله على الذاكرة فقط، مع أن المدار في النجاح في الحياة والتفوق في العلم لا على الذاكرة وحدها، بل عليها وعلى المحاكمة وعلى الشخصية.

ولقد حدثني صديق أنه درس الاقتصاد من قديم في إحدى الجامعات الإنكليزية، واستعد للامتحان وحفظ كل ما في الكتب من نظريات وأرقام، فكان السؤال كما يلي: "إذا سُلِّمتَ مصرفاً وَضْعُه المالي كذا وحالته كذا، كيف تستفيد من النظريات التي درستها في رفع مستواه وتحسين وضعه؟". هذا هو الاختبار الحقيقي.

فإذا أردنا أن نختبر طالب الحقوق في السنة الأخيرة فلنعطِه إضبارة دعوى ولنكلّفه إعداد الدفاع فيها أو تهيئة الحكم، ولا نطالبه بحفظ القانون المدني ولا قانون الجزاء. وإذا أردنا اختبار طبيب فلنأته بمريض ليفحصه ويصف له الدواء، وإن كان طالباً في دار المعلمين كلفناه بإعداد الدرس وإلقائه، وإن كان طالب هندسة كلفناه بإعداد خريطة البناء.

ولست أعني أن نعفي الطالب من النظر في الكتب والإلمام بالنظريات. لا، وإلا صار كالعامل المتمرن. لا بد من العلم، ولا بد من الاطلاع على النظريات والبحوث، ولا بد من فهم القوانين والإلمام بها، ولكن الذي أُنكره أشد الإنكار هو أن نكلّف الطالب

حفظ الكتب. ولو كان هذا لازماً للزم حفظ القاموس غيباً، وإذا صحت نظرية الحفظ والامتحان به لوجب حفظ دليل الهاتف غيباً على موظفات السنترال!

قيل للشيخ محمد عبده: إن فلاناً قد حفظ حاشية ابن عابدين كلها غيباً. فقال: زادت نسخةٌ في البلد!

ليس المهم أن يحفظ «الحاشية»[١]، ولكن المهم أنه إن سُئل عن مسألة يعرف أين يجدها في «الحاشية»، وإذا وجدها يعرف كيف يفهمها، وإذا فهمها يعرف كيف يطبقها على الواقعة التي سُئل عنها. وهذه هي الملكة المطلوبة.

هذه واحدة. والثانية ألّا نجعل الاعتماد كله على الامتحان، بل على الأساتذة ومعرفتهم بالطلاب وأحوالهم.

* * *

والامتحان له مضار صحية، وله مضار أخلاقية، وله مضار عقلية.

أما مضراته الصحية فالسهر وحصر الذهن وصدمة الخوف من الامتحان. وكم من الطلاب الذين أصابتهم الأمراض وتحطمت منهم الأعصاب وابتلوا بالعاهات من جراء الامتحان. ولا تحسبوه

---

(١) المقصود «حاشية ابن عابدين»، وإنما ذكرها هنا دون غيرها لأن الفتوى في الشام في تلك الأيام (يوم نُشرت هذه المقالة) كانت تعتمد عليها دون سواها من كتب المذهب (مجاهد).

شيئاً هيناً، فإن نابليون (وهو مارد الحروب وقائد المعارك) كان نائماً مرة في الميدان، فهجم العدو هجوماً مفاجئاً فأيقظوه، فقام مرعوباً وقال: ما هذا؟ قالوا: العدو. قال: أرعبتموني؛ حسبت أني دُعيت للامتحان.

أما مَضارّه الخلقية فإننا حين نكلف الطالب بما لا يقدر عليه أستاذه ولا يستطيعه العلماء من الحفظ نَضطره إلى التزوير والسرقة والنقل. ثم إن التلميذ يهمل دروسه السنةَ كلها ويشتغل بالحفظ شهراً واحداً، يعلق المعلومات في ذاكرته تعليقاً، فإذا انتهى الامتحان طرحها منها فنسيها فكأنه ما عرفها!

أما المضار العقلية فهي أن العلم يتلخص في أمرين: معرفة المراجع، والقدرة على الاستفادة منها. فخبّروني: مَن يحفظُ كتاباً واحداً في التاريخ يكونُ أقربَ إلى حقيقة العلم وأقدرَ على البحث أم الذي لا يحفظه ولكن يعرف عشرين مرجعاً في التاريخ؟

* * *

كلما جاء حزيران من كل سنة كانت هذه الهزة التي تحس بها كل دار في البلد، هزة الامتحان. لا يشتغل به الطلاب فقط، بل الطلاب والآباء والأمهات، كلهم يحمل الهم وكلهم يرقب النتائج.

تضطرب أوقات اليقظة والمنام، والشراب والطعام، وإن كانت الأسرة على عزم الاصطياف تأخرت من أجل الامتحان، وإن سقط التلميذ كانت النكبة في الدار.

فلماذا لا نتخلص من هذا كله؟

لقد بحث المربون في أمر الخلاص من الامتحان، وعندنا -بحمد الله- كثير من الأساتذة المربين والنفسيين الباحثين، فليفكروا في أسلوب آخر لمعرفة كفايات الطلاب، أسلوب يكشف عن قوة الشخصية في الطالب، وعن ملكته العلمية، وعن قدرته على البحث. أما الامتحان فليس فيه إلا اختبار قوة الذاكرة، وفي هذا الاختبار ما علمتم من المساوئ والأضرار.

* * *

مرضى الوهم

نشرت سنة ١٩٨٧

العنوان الجديد في هذه الفصول هو «صور وخواطر»[(١)] أما تحت العنوان فهو كل ما تحوي الدنيا. وهل الدنيا إلّا صور تراها وخواطر تخطر على بالك عند مرآها؟ وكل صورة تبعث في الذهن خاطرة، أو تولّد في العقل فكرة، أو تنشر في النفس ذكرى، فالسائح الذي يحمل في عنقه آلته يصور بها يسجل ما شاء مما رأى، ومن في يده القلم وفي نفسه ملكة يصف ما صوره السائح وصفاً أبقى على الدهر من لوحة المصور.

كنت كمن يسوق سيارته في الطريق المعبد لا يستطيع أن يخرج عنه، فصرت إلى فلاة متسعة ليس فيها طريق واضح، ولكن

(١) نشر الشيخ -رحمه الله- ذكرياته في جريدة الشرق الأوسط منجَّمة سنوات، حتى ختمها أخيراً في يوم من أواخر سنة ١٩٨٧. فلما أَلَحَّ عليه القراء وأصحاب الجريدة أن يمضي في الكتابة عدل عن الذكريات إلى كتابات منوعة جعل عنوانها «صور وخواطر» (وهي غير المقالات المنشورة في الكتاب الذي يحمل العنوان نفسه). وهذه المقالة هي الأولى في تلك المجموعة، صدرت يوم الخميس ١٩٨٧/١٠/٢٢، وبدأها الشيخ بمقدمة تركتها ليقرأها من لم يكن قرأها آنذاك (مجاهد).

كل مكان فيها طريق لمن شاء أن يسير. فأنا حيثما أردت مشيت، وأنّى شئت توجهت، لقد انطلق اللسان فما أردت قلت، فأصبت أو أخطأت وأحسنت أو أسأت، فكان في ذلك كله إن شاء الله خير: إن أحسنت أفدت الناس أو سررتهم بإحساني، وإن أسأت أغضبتهم أو هجتهم فكتبوا يكشفون إساءتي أو يصححون خطئي، فكان من ذلك غنى للأدب وكسب للقراء.

على أني أذكر دائماً أن القلم أمانة، فلا أتخذه مفتاحاً لباب جهنم، ولا سلاحاً للعدوان على الناس، ولا عوناً للشيطان عليهم أغضب الله بإرضائه (وأعوذ بالله من أن أكون مع الشيطان). القلم أمانة:

فلا تكتبْ بخطك غيرَ شيءٍ　　يسرّك في القيامةِ أن تراه

* * *

سأخرج من ضيق الذكريات إلى سعة الحياة؛ أكون يوماً أديباً، ويوماً قاصّاً، ويوماً واعظاً، ويوماً ملاحظاً عابراً. ولكني جئت اليوم طبيباً، بل واحداً ممن يدعّي الطب.

والذي دفعني إلى هذا مقالة قرأتها في مجلة «اليمامة» عنوانها «من يوقف أدعياء الطب؟»، يتكلم فيها كاتبها عن «الشيخة عبير». وما الشيخة عبير؟ إنها -كما يقول- فتاة شابة، أنجزت الدراسة الثانوية وهي الآن طالبة في الكلية، قالت أنها تعالج الحريم من كل مرض. فسألها: حتى المرأة العقيم التي لا تنجب؟ قالت: نعم، نعم، أعالج كل شيء. فسألها: وبم تعالجين؟ قالت: بالماء والزيت

وأقرأ عليهن. فسألها: وما تكاليف العلاج؟ قالت: كل حالة لها سعر، وما نختلف. وقالت أنها تعالج مريضات يتراوح عددهن من مئة إلى مئتين في اليوم الواحد.

وأنا أعلم أنهم يخرجون من عندها وقد أحسوا بالشفاء، ولكنها ما داوتهم لأنه لم يكن فيهم من الأصل داء، وإنما هو نوع من المرض النفسي أو العصبي أو الوهم أحياناً. وفي كتب علم النفس تفصيل لهذا الذي أجملته، بل لقد قرأت مرة في كتاب مترجم للدكتور جاكسون (من كبار أطباء الأعصاب في أميركا) فوجدته يؤكد أن نصف المرضى الذين يفِدون على عيادته ليس فيهم مرض، وإنما هو تعب الأعصاب من كثرة المشاغل والمشكلات، ومن حصر الذهن وشدة القلق، وأن تعب الأعصاب لا يقتصر أثره على الصداع وعسر الهضم والإمساك المزمن وقرحة المعدة، بل ينشأ عنه ضيق الصدر وسوء الخلق والنزاع الزوجي، ويسرد حوادث طريفة رأى فيها أناساً تبدو عليهم أعراض المرض كلها ليسوا مرضى.

ومن قرأ منكم قصة موليير المشهورة، «المريض بالوهم»، علم أن من يتوهم المرض يحس بأعراضه كلها وتعتريه الآلام التي تعتري المريض الحقيقي، بل لقد قرأنا عن نساء تظهر عليهن أمارات الحمل، فينتفخ البطن وينقطع الحيض، تظهر عليهن أعراض الحمل كلها وما هنّ بحوامل.

ومما قاله الدكتور جاكسون في كتابه أن فتاة جاء بها أهلوها إليه محمولة على محفة، بها شلل في رجليها لا تستطيع معه قياماً، ففحصها فلم يجد فيها شيئاً وعلم أنه وهم. واستخبر خبرها، فإذا

هي فتاة مدللة تُعطَى ما تطلب ويُحقَّق لها كل ما تريد. فشد من قامته، وزوى ما بين عينيه، وأخذ هيئة الجد، وقال لها: قومي فليس بك شيء! فارتاعت البنت وغضب الأب واحتجت الأم، فلم يبالِ بأحد منهم، وصرخ بها صرخة لا تملك معها خلافاً وقال: قومي! ومد إليها يده فأمسكت بها، فأقامها فقامت، ثم سيّرها فسارت حتى بلغ بها الباب، فخرجت ماشية على قدميها وقد دخلت متمددة على المحفة.

* * *

فذكرني[1] هذا الذي قرأته بحوادث تماثله عرفتها أو قرأتها، من ذلك أن صديقاً لنا من الأدباء المعروفين في دمشق، هو رفيق عمري الأستاذ سعيد الأفغاني الذي هو اليوم المرجع في علم النحو[2]، لم يكن يشرب القهوة بعد العصر، لأنه إذا شربها أصابه الأرق فلم ينم. وكنت أجادله فأقول له أن في بعض الأدوية التي نستعملها لا نبالي بها من العنصر الفعّال في القهوة (الكافئين) ما يعدل عشرة فناجين، فنأخذها وننام. ولم يكن يقبل ما أقول.

وجاء الشامَ يوماً الأستاذُ المازني فدعاه أستاذنا محمد كرد علي إلى قريته «جسرين» في الغوطة الشمالية، وبقينا بها يوماً كاملاً، وكانت القهوة تدار علينا من الضحى إلى الليل. ثم نزلنا إلى دمشق مُشاةً في ضوء القمر، فلما بلغنا بيوتنا نمنا من التعب

(١) الجزء المتبقي من هذه المقالة، من هنا إلى آخرها، أصله مقالة نشرها الشيخ سنة ١٩٦٥ في جريدة «المدينة» (مجاهد).

(٢) توفي -رحمه الله- بمكة سنة ١٩٩٦ ودفن فيها (مجاهد).

كالقتلى، ونام صديقنا سعيد، فلما كان من الغد ذكر أنه شرب القهوة بعد العصر وأنه لم يأرق، فأرق الليلة التي بعدها. أي أنه -لمّا فاته الأرق «أداءً»- أَرِق «قضاءً»!

* * *

ومن المعروف شرعاً وعقلاً أن التمائم والحجب لا أثر لها، ومن اعتقد أنها تنفع أو تضر يكون قد خالف الدين. وقد حدثني صديقنا الشاعر الحوماني (رحمه الله ورحم كل من ذكرت وأطال عمر من بقي) أنه كان في قرية قريبة من قريته في جبل لبنان رجل دجال، يكتب تمائم وحجباً لمن كان مصاباً بالصرع، يعلقها في عنقه ليخرج الجني من جسده! وكان النساء يصدّقنَه ويعتقدنَه. وكان من قريبات ذلك الصديق فتاة أصيبت بداء الصرع ولم ينفع في علاجها طب الأطباء، فبعثت أمها بهدية للشيخ وأرسلت إليه بمال ليكتب لها الحجاب. وكان الرسول شاباً عاقلاً يعلم أن هذا الرجل دجال، فأخذ لنفسه الهدية والمال وتوارى بمقدار ما يذهب الذاهب إلى تلك القرية ويعود منها، ثم ظهر ومعه ورقة كتبها على هيئة التميمة (أي الحجاب) ولفّها بورقة مشمّعة (على عادتهم في التمائم). وعلقتها الفتاة في عنقها فبرئت من داء الصرع.

وراحت الأم تثني على الشيخ وراحت تنشر خبر شفاء البنت على يده، فقال الشاب: افتحوا الورقة واقرؤوها. ففتحوها فإذا فيها بخط الشاب «قبّحَ الله هذا الشيخ الدجال وقبح من يعتقده».

وقد وقع مثل ذلك للشيخ أبي النصر الخطيب، وهو عم أمي، وهو من علماء دمشق في القرن الماضي. جاءته -وهو في

حلقة درسه في الجامع الأموي- امرأة بدوية تسأله أن يكتب لها ورقة للحَبَل، فأفهمها أن الحَبَل بيد الله، وحاول أن يصرفها فما انصرفت، وخبّرها أن هذه التمائم والحجب لا تنفع ولا تضر فما صدّقت، ولم تنصرف عنه بل وقفت ملحّةً عليه. وكانت للشيخ دعابة وميل إلى المزاح فقال لها: انتظري أكتب لك. فانتظرت حتى انقضى الدرس، فكتب لها ورقة ولفّها على هيئة الحجب ودفعها إليها، فأخذتها وذهبت.

ومرت سنة كاملة نسي فيها الشيخ القصة، وإذا بالمرأة تجيؤه ومعها ولد فتنكبّ على يديه لتقبلها فيمنعها، ويسألها ما خبرها، فتخبره أنها هي التي كتب لها الحجاب للحَبَل. فقال لها: هاتيه. فدفعته إليه، وفتحه وقرأه على تلامذته فإذا فيه: "الحبل بيد الله، والحجب لا تفيد، ولكن هذه المرأة حمقاء".

وهذه كلها قصص واقعة فعلاً.

ولما كنت أعمل مدرّساً في العراق سنة ١٩٢٧م نُقلت إلى البصرة، فأصابني فيها أرق شديد لزمني ليالي طِوالاً كنت أحس فيها أن النعاس يكاد يقتلني ولا أستطيع أن أنام، وأصبح مكدود الجسم مطحوناً طحناً.

وكنت -من توتر أعصابي- أجزع من وضع جنبي على الفراش، وأترقب الأصوات قبل سماعها، وأحس أن لها حجماً حتى كأني أراها وألمسها: صوت رفيع ثاقب أشعر به كالإبرة الحادة، وصوت أحس به كالمطرقة، وثالث كالصخرة الكبيرة! وجربت الأدوية الكثيرة فلم تُفِدْ، فقال لي طبيب ذكي: إن عندي

علاجاً لك ناجعاً، ولكنه قوي فلا تستعمله إلّا عند الضرورة. وأعطاني حبة بيضاء وقال: هذا هو العلاج فاحتفظ به.

ولما ذهبت لأنام بدأت أعصابي تتوتر كالعادة خشيةَ الأرق، ثم تذكرت الحبة البيضاء فقلت لنفسي: إن السلاح معي فلماذا أخاف؟ وصرت كلما سمعت صوتاً قلت لنفسي: إنه لا يضرني ما دامت الحبة البيضاء عندي وكأس الماء إلى جنبي، فإذا أنا لم أنم أخذتها.

واستمرت الضجة على حالتها كل ليلة، ولكن شعوري بها قد ضعف، وأحسست أنها تبتعد عني، ثم استرخت أعصابي حتى غلبني النوم ولم آخذ «الحبة البيضاء».

* * *

وذلك ما وقع لكانْت، الفيلسوف الألماني، إذ كان لجاره ديك وضعه على السطح حيال غرفة الفيلسوف كانت، فكلما أخذ يفكر صاح الديك فشتت أفكاره. وصبر عليه حتى لم يعد يطيق الصبر، فأمر خادمه أن يشتري له هذا الديك مهما بلغ ثمنه وأن يذبحه وأن يجعل غداءه منه.

ودعا كانْت صديقاً للغداء وقدم إليه من لحم الديك وقال له: هذا الذي كان يزعجني ويقطعني عن عملي، وقد استرحت منه واستطعت -لمّا ذبحته- أن أفكر هادئاً لا يزعجني شيء.

وسمعه الخادم فقال: ولكن الجار -يا سيدي- أبى أن يبيع الديك فاشتريت غيره من السوق.

فتنبّه فإذا الديك في مكانه وإذا هو لا يزال يصيح.

وقد ذكرت هذه القصة من قديم وعلقت عليها تعليقاً ترونه في كتابي «صور وخواطر».

ومن عجائب تأثير الوهم ما كان حدّثنا به في المدرسة أستاذ لنا درس في إسطنبول[1]. والقصة أن رجلاً من الموسرين في البلد أصابه مرض التوهم، فكان يقصد الطبيب فيسأله عما به، فيسرد عليه طائفة من الأمراض يجمع منها ما لا يمكن اجتماعه، فيفحصه الطبيب فلا يجد فيه شيئاً فيصرفه، فيذهب إلى طبيب آخر. وما زال على ذلك حتى كاد ييأس من الأطباء جميعاً.

وسمع به طبيب يعنى بالأمراض النفسية، فبعث من يستقدمه إليه من حيث لا يشعر، فلما جاءه وفحص عن مرضه أظهر الاهتمام وأبدى الجزع، ونفخ بفيه ولوح بيديه. فقال المريض جزعاً: ماذا يا دكتور؟

فقال: كيف تأخرت في التداوي إلى الآن؟! إن معك من الأمراض ما لا يكاد ينفع فيه دواء، معك كذا وكذا (وعدد عليه باللاتينية أسماء أمراض لا يعرف ما هي ولا يدري ما مدلولها). فقال له: أرجو أن تسميها لي بأسمائها التي نعرفها.

فعدد له الأمراض التي كان يعتقد أنه مصاب بها. فقال المريض: صحيح والله، معي هذا كله، ولكن الأطباء لم يصدقوني.

---

(١) وأصلها «إسلام بول» (أي بلد الإسلام، وهي بمعنى «إسلام أباد»)، سماها بذلك السلطان العثماني محمد الفاتح.

والآن، ما العمل يا دكتور؟

فسكت الدكتور وجعل يُظهر أنه يفكر، ثم فتح المجلدات الكبار يقلب فيها والمريض ينتظر على مثل لذع الجمر، ثم قال بعد تردد طويل: عندي دواء ولكنه خطير جداً، فإما أن يشفيك من الأمراض كلها وإما أن يقتلك، فهل ترضى بأخذه؟

ففكر المريض ثم قال: نعم.

قال: اكتب رضاك بهذا بخطك وذيّله باسمك.

فكتب، فأعطاه شيئاً من «أزرق الميثيلين» (وهو دواء لا ضرر منه كنا نستعمله للتعقيم الموضعي -كالميكروكروم الآن- ومن شأنه أنه يصبغ البول باللون الأزرق) وقال له: ها هو ذا، فإذا قررت المخاطرة فخذه وانتظر، فإذا صار لون بولك أزرق فاعلم أنك قد شفيت من كل مرض، وإلّا فإنك ميت.

فأخذه وذهب إلى داره، فجمع أهله وأولاده وأخبرهم الخبر، وودّعهم وكتب وصيته وأدى ما عليه من حقوق، ثم أخذ الدواء وطفق يبول في قارورة كل عشر دقائق وينظر: هل ازرقّ البول؟ فلا يجد فيه زرقة، فيترقب خائفاً وأهله من حوله في وجوم وجزع، حتى وصل الدواء إلى الكلية وطُرح منها فازرقّ البول.

فأشرقت الوجوه، وعمّ الفرح، وزغردت النساء، وأحس أنه شفي حقاً من كل مرض وأنه وُلد من جديد، وجلس يتقبل التهنئات من المهنئين.

* * *

وخبرني الصديق الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام -رحمه الله- أنه قد وقع مثل ذلك للشيخ الخضري المؤرخ المصري المعروف، إذ أصابه في آخر عمره وجع في بطنه، فصوّرَ له هذا الوجعُ وكبر السن أن في بطنه ثعباناً. فكان الأطباء يسخرون منه أو يعتذرون إليه، حتى وجد طبيباً ذكياً أراه أنه قد صدقه، وخبره أنه سيعطيه دواء يقتل الثعبان. وسقاه المسهل ووضع له ثعباناً ميتاً في المرحاض، فلما رآه الشيخ وظن أنه قد سقط منه أحس بالشفاء!

وقد روي عن الطبيب المشهور، أبي بكر الرازي، أن رجلاً في زمانه أصابه صداع ملازم اعتقد معه أن على رأسه جرة، وكان كل من سمعه يضحك منه ويهزأ به، حتى بلغ خبره الرازي. فجاء به، فلما دخل عليه قال له: اخفض رأسك، فإن الباب واطئ وعلى رأسك جرة وأنا أخاف أن تنكسر.

فاستبشر الرجل وقال له: وهل تراها؟

قال: وكيف أكون طبيباً إذا كنت لا أراها؟

فلما وثق به وجعل يداويه أعطاه دواء يرخي أعصابه ويخدره تخديراً خفيفاً، ثم قال له: استعدّ فإني سأكسر لك الجرة، فإذا تألمت فاحتمل الألم ساعة لتستريح ما بقي من عمرك.

وكان الرازي قد أعدّ رجلاً يحمل جرة يقف بها وراء المريض من حيث لا يراه، وضرب الرازي المريض بالعصا على رأسه ضربة موجعة لكنها لا تؤذي وأشار إلى الرجل فألقى الجرة فتكسرت. فلما أحس المريض بالضربة ورأى أمامه الجرة مكسّرة شفي من مرضه.

وكلنا يذكر القصة التي كانت تقصّها علينا الجدات في أيام الشتاء أن صِبْية أرادوا أن يستريحوا من المدرسة فجاء أحدهم إلى الشيخ وقال: يا شيخي وجهك أصفر. فزجره، فجاء الثاني فقال مثلما قال الأول، فشَكَّ الشيخ. ثم جاء الثالث والرابع والخامس والسادس... فاصفرّ وجه الشيخ حقيقة وأحس بالمرض، فصرف الصبيان وراح إلى بيته مريضاً.

ولقد قضيت شطراً من شبابي وكهولتي أذهب كل سنة مرة إلى طبيب لا يعرفني فأسأله أن يفحص جسدي كله فحصاً عاماً، فحصاً سريرياً (إكلينيكياً) ومخبرياً وفحصاً بالأشعة، فإذا انتهى من ذلك كله وأعطاني التقارير قال لي: ما بك شيء، فلماذا جئتني؟ قلت: جئت لأسمع منك هذه الكلمة.

* * *

وأكثر من يدّعي الطب الشعبي ليس بطبيب، وربما استعمل الدين والقرآن وسيلة إلى كسب الزبائن وجمع المال، فأدخل الدين في هذا الباب. والدين لا ينكر أثر الدعاء ولا الرقية بالقرآن، لأنها من جنس الدعاء، ولا ينكر المعجزات والكرامات إذا جاءت من أهلها؛ وقد وقع لبعض الصحابة أن ضاقت بهم الحال في سفرة لهم، فوجدوا مريضاً يطلب العلاج فرَقَوْه بالقرآن وأخذوا على ذلك أجراً، ثم شكّوا في حِل ما أخذوا فراجعوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فخبّرهم أنه حلال. كل ذلك ثابت، ولكنْ ما علمنا أن أحداً من الصحابة ولا من التابعين ولا من الأئمة المتبوعين ولا من العلماء الصالحين العاملين، ما علمنا أن واحداً منهم اتخذ

ذلك مهنة أو ادّعى أن تلاوة القرآن على الماء وشربه يقوم مقام التداوي الذي أمر به رسول الله ﷺ حين قال ما معناه: «يا عباد الله تداووا، فإن الله ما أنزل داء إلّا أنزل له دواء». والقرآن ما أُنزل ليُتلى على الماء فيشربه المرضى فيغني عن كليات الطب، ولا عن المستشفيات ولا عن الصيدليات، ولم يقل بهذا أحد من علماء الإسلام.

* * *

إلى من حُرم الولد،
وإلى من يستكثر الولد

نشرت سنة ١٩٨٧

ترد على برنامجي في الرائي «نور وهداية» وبرنامجي في الإذاعة «مسائل ومشكلات» نحو خمسمئة رسالة في الشهر.

وقد جاء في واحدة منها أن مرسلها متزوج من سنين طوال، وأنه أوتي المال الكثير الذي ينفق منه فلا يقل، والنفس السمحة التي تعطي الجزيل فلا تمل، أصابه الغنى بعد ضراء مسَّته، فذاق لذعة الفقر فصبر عليها فلم يقنط، وعرف نعمة الغنى فشكر عليها فلم يبطر، ولم يكن شكره أن يقول بلسانه ألف مرة «الحمد لله» ويده ممسكة بالمال، بل كان شكره أن يفيض بالنعمة على المحرومين منها.

وأن له زوجة شاركته ضراءه ونعماءه، ورافقته في عسره ويسره، فما رأى منها في الحالين إلّا الخير. ولكن الله ما أتم نعمته عليه، إذ حرمه الولد. ولم يَدَعْ طبيباً لم يذهب هو وامرأته إليه، ولم يترك دواء لم يجربه، حتى يئس من الولد وصار يأسه حرقة في قلبه وقلبها. ولم يحب أن يسيء إليها بالزواج من غيرها

لأنه لا يدري هل العقم منه أو منها، وقد اسودّ من هذه الحسرة عيشهما، وتنغصت عليهما حياتهما، ولم يعودا يجدان للمال لذة ولا للغنى متعة.

وآخر يشكو إليّ كثرة الولد، كل سنة يزدادون واحداً، حتى صار بيته مستشفى مجانين، يتمنى هدوء ساعة فلا يجدها، في الليل بكاء الأطفال، وفي النهار صخبهم وصراخهم وما يكون بينهم من نزاع وخصام، وما يسببون لأمهم ولأبيهم من الخلاف من أجلهم. ثم يشكو ما يكسرون من آنية وما يفسدون من متاع، وأنه ضاق بنفقاتهم، بإطعامهم وكسوتهم وما يحتاجون إليه في مدرستهم، وما يمر شهر لا يمرض منهم واحد، فيحمّله مرضُه الهمَّ الثقيل ويكلفه النفقة الباهظة. ويسألني: ماذا يصنع؟

* * *

سؤالان متضادان: هذا يتمنى الولد وذلك يشكو كثرة الولد، فكيف أجيب جواباً واحداً يرضي الأول ولا يسخط الثاني؟ ثم ذكرت أن شيخنا الجاحظ كان يمدح الشيء حتى لا يدع فيه موطن مذمة، ثم يذمه حتى لا يترك فيه مكان مَحمَدة، يريد بذلك إثبات قدرته على البيان، وامتلاكه زمام المقال، وتصرفه في فنون الأدب، وألّفَ في ذلك كتاباً يعرفه كثير منكم، هو: «المحاسن والأضداد».

ويظهر أني أنحو اليوم منحى الجاحظ، لا لأني مثله في البلاغة والبيان وقوة القلم واللسان، أستغفر الله أن أدّعي ذلك وحظي منه أوكس الحظوظ، بل لأن لكل شيء في الدنيا صفات قبح وصفات حسن.

وفي كل شيء في الدنيا خير وشر، فإن اقتصرتَ في القول على وصف حسنه وذكر خيره كان كلامك مدحاً له وثناء عليه، وإن اقتصرتَ على نعت قبحه وبيان شره كان كلامك ذماً له وقدحاً فيه.

لما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ سأل أحدهم عن الزبرقان فمدحه، فلم يرتضِ الزبرقان مدحه وظن أنه قد نقصه قدره، فعاد فذمه بعد أن مدحه، فتغير وجه رسول الله ﷺ استنكاراً، فقال الرجل: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت، وكنت صادقاً في الحالين، فرضي عن ذلك رسول الله ﷺ وقال (كما رووا): «إن من البيان لسحراً»[١].

وأنا أقول للذي يتمنى الولد ويشاقّ زوجته من أجل الولد: ماذا يرجو من الولد؟ هل نسي ما يجر الولد من المتاعب؟

يكون الحمل ومشكلات الحمل، يضطرب البيت أولاً للوحم ومصاعبه، فتتعب المرأة ويتعب الرجل، ثم تكون أعراض

---

(١) القصة في «أسد الغابة» (وغيره من المصادر) وفيه: كان الزَّبْرِقان بن بدر سيداً في الجاهلية عظيم القدر في الإسلام؛ وفد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم سنة تسع فأسلموا، وسأل النبيُّ ﷺ عمرو بنَ الأهتم عن الزبرقان فقال عنه: "إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدْنَيه"، فقال الزبرقان: "والله لقد قال ما قال وهو يعلم أني أفضل مما قال". فقال عمرو: "فوالله إنك لئيم الخال، حديث المال، أحمق الولد، مُبغَضٌ في العشيرة". ثم قال: "يا رسول الله، لقد صدقتُ فيهما جميعاً. أرضاني فقلتُ بأحسن ما أعلم فيه وأسخطني فقلتُ بأسوأ ما أعلم فيه". فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» (مجاهد).

الحمل وأمراض الحمل، ثم الولادة ومخاطر الولادة وهمّ الولادة ونفقات الولادة. فإذا انتهت بدأت مزعجات الوليد، من الخوف عليه إذا نام، ومراقبته إذا قام، ومداواته والسهر عليه إذا مرض. مع إزالة أوساخه، واحتمال بكائه، وحرمانه الأبوين من النوم في الليل والخروج في النهار. ثم تأتي مشكلات الرضاع، وإن سُقي الحليب بالزجاجة جاءت المتاعب من غلي الآنية وضبط المقادير وتحديد الأوقات. ثم إذا حبا وزحف على الأرض مسح بلاطها بثيابه، وأكل كل ما تقع يده عليه، حتى الحذاء العتيق يرفعه إلى فمه والجمرة المشتعلة يمد يده إليها. ولا يمضي عليه الأسبوع حتى يسقط ثلاثة سقطات، ولا يمر به الشهر حتى يُشَجّ ثلاث شجّات، فماذا تظنه يأتي منه بعد هذا من خير؟

لحظات فيها مسرة وفيها أنس، ولولا شفقة الأب وحنان الأم لم يكن فيها -في الحقيقة- شيء! يضحك فيحسب الأبوان أن الملائكة ضحكت لهما، وينادي «بابا» فيظنان أن السعادة الكاملة نادتهما، ويمد إليهما يديه فيحسّان أنْ قد حيزت الدنيا لهما. فهل تعدل مسرة هذه اللحظات تعب هاتيك الليالي؟

ثم يدخل المدرسة فيحمل الأبوان ضعف الحمل الذي يحمله الولد: يطالَب بالنفقات فيدفعانها، ويكلَّف بالوظائف والواجبات فيشفقان عليه فيكتبانها أو يعاونان على كتابتها، ويُعاقَب في المدرسة فيبكي في الدار فيحسّان أن العقاب نزل عليهما. ويكون الامتحان فلا يكون عليه وحده، بل عليه وعليهما، يسهران معه ويهتمان به أكثر من اهتمامه.

وهو -خلال ذلك- لا يعرف إلّا الأخذ، ولا يعرفان إلّا

العطاء؛ يطلب منهما كل شيء ولا يطلبان منه شيئاً. يحمل الأب همه في الابتدائية، وفي الثانوية، وفي الجامعة. تراه شاباً طويلاً عريضاً، يستطيع أن يحمل على عنقه شاة أو أن يجر من قوته عجلاً، ويصلح من أناقته أن يكون ممثلاً، ولكنه لا يحصل من كده وتعبه ريالاً. إن أراد كتاباً للمدرسة قال لأبيه: «هات»، وإن أراد أن يركب السيارة قال لأبيه: «هات». لا يعرف إلّا: «هات»! ثم لا يعجبه طعام الدار، ويعترض على أسلوب تربية الأب وعلى توجيه الأم، ولا يكاد يرضى عن شيء.

ولا يزال على ذلك حتى ينال شهادة الجامعة، فيظن الأب أنه استراح، وأنه قد جاءت نوبته ليعاون أباه كما أعانه أبوه، وإذا هو يعود فيقول: «هات». ماذا يا ولدي؟ وهل بقي شيء؟ قال: نعم؛ بقي أن تدفع لي نفقات التخصص في أوربا أو أميركا.

ثم إذا قُدّر له -بعد هذا كله- أن يحصل المال وأن يصل إلى الغنى لم يخطر على باله أن يقدم لأبيه جزءاً من مئة مما قدم إليه، وربما يحتاج إليه فيُعرِض عنه.

وإن تزوج زوجة فربما قدمها على أمه، أو تنكّر لأمه من أجلها، أو هجر أمه إرضاءً لها؛ ينسى أن أمه هي التي حملته في بطنها، وأرضعته من ثديها، وأمرضت نفسها ليصح، وأتعبتها ليستريح، وبذلت من أجله كل شيء، وكانت (وكان أبوه) يتابعان نموه إصبعاً إصبعاً، كل إصبع بمدمع، وكل شبر بنذر، فلما كبر وشبَّ وصار رجلاً كان جزاؤهما منه أن يعرض عنهما وينكر فضلهما.

وإن كان المولود بنتاً فربما تزوجت فنسيت أمها وأباها ولم تعرف إلّا زوجها، وإن هي كبرت وجازت سن الزواج ولم تتزوج

مثّلَ لها الوهمُ أن أباها هو الذي منع زواجها فاتخذته -بينها وبين نفسها- عدواً لها! ثم إن البنت غالباً ما تحب أباها ما دام يمشي مع هواها، فإن نهاها عن شيء يضرها أو قال لها: لا تنظري هذا الفلم في الرائي أو لا تتخذي هذه «الموضة» في الأزياء، لوت وجهها وزوت عنه بصرها، وابتعدت عنه وغضبت منه.

هل تظنون الأولاد يحبون آباءهم ويهتمون بهم مثلما يهتم بهم ويحبهم الآباء؟ وانظروا متى بلغ الأب سن الشيخوخة والعجز أو بلغتها الأم: ماذا يصنع الأولاد به وبها؟

* * *

هذا كله ولم أصور الولد العاصي المتمرد، ولا البنت التي تسلك غير طريق الخير، ولا الأولاد المشوهين، ولا المرضى مرضاً ما له شفاء. فتصوروا ما حال الآباء والأمهات إذا رزقوا مثل هؤلاء.

أفلا تحمد الله على أن عصمك من أمثال هذا البلاء؟ وهل تظن المسألة هيّنة عند الله يوم القيامة؟ إن الرسول ﷺ بيّنَ أن الأب راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، فكيف ينجو من المأخذة من يغفل عن تربية أولاده، أو ينشّئهم على ما لا يرضي الله، أو يضعهم في مدارس فيها ما يخالف شرع الله، أو يسمح لبناته بالخروج على هيئة لا يبيحها الدين؟

فمن لم يكن له ولد فهو في نعمة من الله وراحة، فليشكر الله عليها.

* * *

وأقول للثاني:

هل وضع الله هذا الميل إلى الأنثى في نفس الذكر إلّا لحصول الولد؟ وهل يتزوج الناس إلّا لقصد الولد؟ وهل يبقى البشر ويسلمون من الفناء والانقراض إلا بالولد؟ ولولا الولد ما وجد الوطن جنوداً تدافع عنه وتحمي حماه، ولا كان علم ولا كان أدب، بل لما كانت أمة يمكن أن تعيش.

ومن الحماقة أن أحاول إقامة الدليل على وجوب الاستكثار من الولد واستبقاء النسل. وماذا يبقى من الدنيا إذا ذهب منها المال والبنون؟ وهما زينتها وجمالها، لا يفضلهما ولا يسمو في المنزلة عنهما إلّا العمل الصالح، الذي يبقى معك في الآخرة على حين لا يبقى معك من متع الدنيا شيء ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾.

وإن نِعَم الله على العبد لا تعد ولا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾. ولكن ليس فيها كلها نعمة أعظم من نعمة الولد البارّ الصالح، يكون مسرة لعينك، وأُنساً لروحك، وعوناً لك على دهرك، وهو لك عمل صالح من الأعمال التي تبقى لك بعد موتك وتصحبك إلى آخرتك. ومن كان له ولد فأحسن تربيته ونشّأه على طاعة الله واختار له المدارس الصالحة المصلحة والمعلمين الهادين المهديين، وأراد بذلك وجه الله، كان ذلك من أفضل الفضائل، وكان له حسنة من أعظم الحسنات.

وإذا مات الرجل، وخُتمت دفاتر أعماله، وانطوى سجل حسناته، ولم يبقَ له عمل يُقيَّد لحسابه ليجد في الآخرة ربحه،

وجد في ولده مصدر حسنات له ينال ثوابها وإن لم يعملها. قال عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له».

فيا أيها الأبناء: اعلموا أنكم تستطيعون أن تبرّوا آباءكم بعد موتهم بدعوة صالحة تدعونها لهم، أو استغفار تستغفرونه لهم، أو صدقة عنهم، أو حجة تحجونها عنهم (إذا كانوا لم يحجوا). وإنك حين تقول في صلاتك «ربِّ اغفر لي ولوالدي، ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً» تقدم إليهما هدية وهما عند ربهما، وهذه وحدها تعدل تعب الآباء بأولادهم، وهمهم بهم، وحملهم مشقّاتهم.

ومن رُزق البنات فلا يحزن، فإنه لو علم ما ادُّخِر لأبي البنات لفرح الناس بالبنت أكثر من فرحهم الآن بالصبي. أوَلا يكفيك -يا أبا البنات- أن الرسول ﷺ روي عنه أنه قال: «مَن عالَ ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو أختين أو بنتين، فأدّبهنّ وأحسن إليهن وزوجهنّ، فله الجنة»؟

هل سمعتم؟ الجنة؟ هل في البشائر أعظم من هذه البشارة؟ إنها بشارة من رسول الله ﷺ لمن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فرباهن تربية ترضي الله، وعلّمهن طاعته واتباع شريعته والقيام بما أمر الله به والابتعاد عما نهى الله عنه، وأحسن إليهن فعاملهن بالعطف واللطف ولم يؤْثر ولده عليهن (كما جاء في إحدى روايات الحديث. فإن كان له صبي -ولو جاء هذا الصبي بعد سبع بنات- فلا يجوز له أن يفضله على البنات، لا في المعاملة ولا أن يزيده من العناية والرعاية). وأن

يزوجهن، ويختار لهن الأزواج الصالحين الموافقين من ذوي الخلق والدين، وألّا يجعلها تجارة فينتقي الذي يدفع من المهر أكثر والذي يقيم من الحفلات ما هو أفخم وأكبر والذي يكون له في الدنيا منزلة أعلى وأظهر.

وفي الصحيحين أن امرأة دخلت على عائشة ومعها ابنتان لها تسأل. قالت: «فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة». تمرة واحدة يا أيها القراء، ليس في بيت رسول الله مما يؤكل غيرها! قالت: «فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تدخل جوفها منها شيئاً». ثم خرجت فدخلت على رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له ستراً من النار». فالأولاد أكبر نعم الدنيا.

وإذا مات الأب وترك زوجة وأولاداً صغاراً، فانصرفت هذه الزوجة عن الزواج، ورَدّت الخُطّاب، وأقامت على تربية ولدها (إذا كانت تأمن -مع ترك الزواج- على نفسها وعرضها) كانت في الجنة مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، الذي قال: «أنا وامرأة سفعاء الخدين (أي مِن ترك الزينة) كهاتين[1] يوم القيامة: امرأة آمت من زوجها (أي مات عنها فصارت أيّماً) ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا».

فإذا كان فيمن يقرأ هذا الفصل امرأة تحضن أولادها، وتقوم على تربيتهم بعد موت أبيهم، وتأبى الزواج من أجلهم،

---

(١) قال راوي الحديث (عوف بن مالك الأشجعي): «وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى». والحديث أخرجه أحمد وأبو داود (مجاهد).

فلتفرح بهذه البشارة. وإنها لبشارة عامة لكل من يكفل يتيماً. أخرج الشيخان في الصحيحين وغيرهما أن الرسول ﷺ أشار بإصبعيه السبابة والوسطى وقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا».

* * *

إن للولد متاعب، وهل يخلو أمر في الدنيا من متاعب؟ ولكن مسرات الأولاد أكثر من متاعبهم، وخيراتهم أعظم من شرورهم. وإنّ حملَك طفلَك الرضيع وهو يبسم لك ويعبث بشواربك ولحيتك ألذُّ عندك من معانقة الغيد الحسان، ومناغاة وليدك وهو يكلمك بلسانه الناقص ولغته المختَرَعة أطرب لك من مناجاة الحبيب في غفلة الرقباء.

وأنت حين ترجع إلى بيتك متعباً مكدوداً فتجد أولادك ينتظرون قدومك، يتواثبون إلى عنقك يقبلون يدك ووجنتيك، تنسى جهدك وتعبك. وحين يكبر ولدك فيكون معك في غدوّك ورواحك، وحين يقوم على خدمتك في مجلسك وبين أصحابك، وحين يشاركك عملك إن كنت عاملاً، وفكرك إن كنت مفكراً، وحين تجده قد صار شاباً يمشي إلى جنبك ويصير عدة لك على دهرك، تحس أن قد نلت به أكبر النعم.

والبنت. هل ينكر أحدٌ عطفَ البنت على أبيها ونسيانها في سبيله نفسَها، توليه محبتها ولا تضنّ عليه بشيء هو لها؟ إنّ عطف البنت على أبيها وبرها بأمها يبدو من صغرها، ويستمر إلى كبرها؛ يعرف ذلك كل من رزق البنات، وأنا -بحمد الله- واحد ممن رزقه الله البنات.

وإذا كان في الأولاد من هو بلاء على أهله فإن هؤلاء هم الأقل، وأكثر الأولاد -بحمد الله- مسرة لآبائهم، وجمال لبيوتهم، وهم زهرة الدنيا، وهم من عدة الآخرة ومن مصادر الثواب فيها.

* * *

وبعد، فيا أيها الأخَوان اللذان كتبا إليّ؛ من يشتهي الولد ومن يضيق بالولد، ومن كان من الناس مثلكما:

اعلموا أنها ليست بأمانيّكم ولا أمانيّ غيركم. إنه شيء فوق إرادتكم كتبه لكم أو عليكم الذي خلقكم. فإن تمنيت الولد أو كرهت الولد، وإن رضيت ما أُعطيت أو سخطت ما أُعطيت، فما قُدِّر كائن، وما كتب الله ماضٍ، وما تأخذ من سخطك إلّا أن تمزق أعصابك وتنغص على نفسك عيشك وتملأ بالحزن أيامك.

* * *

في تربية الأولاد
(١)

نشرت سنة ١٩٦١

أخبرني غير واحد من إخواننا أنهم سمعوا في ندوة «نور على نور» الأخيرة في الرائي (أعني التلفزيون) ما عُرض من آراء في موضوع «التربية الإسلامية»، وقالوا أن الذي سمعوه -على جودته- كان كلاماً عاماً، فيه موعظة بالغة، وفيه أحكام صحيحة، وفيه نظرات نافذة، ولكن ليس فيه خطة واضحة، ولا منهاج عملي. وطلبوا إليّ أن أعرض عليهم في هذه الزاوية ما طلبوه فلم يجدوه في تلك الندوة.

الرسول ﷺ يقول: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، ويبين أن الأب راعٍ لأولاده ومسؤول عن هذه الرعية. فإذا أعطيت غنماً للراعي، فصعد بها الجبل فوجد ناراً مشتعلة، فساقها إليها حتى وقعت بها، ألا يكون مطالَباً بها معاقَباً على إهمالها؟

فكيف إذا كان بدل الراعي أب من الآباء، وكان بدل الغنمات أولاده من صلبه، أخذهم ليفرّجهم على الجبل فتركهم يسقطون في

النار؟ ألا يكون ذنبه أكبر وعقابه أشد؟ فكيف إذا كان بدل هذه النار «نار جهنم»؟ إن النار التي نعرفها نعمة من النعم، أما نار الآخرة فهي النار! فالأب الذي يلقي بولده فيها يكون أكبر ذنباً ممّن يلقي ولده في الفرن المشتعل أو يضعه فوق الموقد.

والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾. فكيف نقي أنفسنا وأهلينا هذه النار؟ كيف نربيهم على الإسلام في هذا الزمان الذي ظهر فيه الفساد في البر والبحر؟

ماذا يعمل الآباء؟

هذا ما أحاول أن أتكلم فيه.

وأنا أسوق للآباء وللأمهات هذه النصائح الهيّنة المتواضعة، وهي معروفة، لا أزعم -حين جئت بها- إني كشفت قانون أرخميدس، ولكني أذكّر بها مَن نسيها وأدعو إلى العمل بها مَن كان يذكرها.

* * *

الأولى: أن يكون للولد في أبويه قدوة عملية، فلا يقول الأب لولده: "حافظ على الصلاة" وهو لا يحافظ عليها. ولا تقول الأم لولدها: "لا تكذب" وهو يراها تكذب كل يوم عشرين كذبة، تكذب على أبيه، فتخبره أنها كانت عند أختها والولد يعلم أنها كانت في السينما، وتكذب على البيّاع فتقول له أن جاره باعها ذراع القماش بليرتين والولد يعلم أنه لم يبعها الذراع إلّا بثلاث ليرات، وترجع إلى البيت فتكذب على الأب فتقول أن ثمنه خمسٌ لتأخذ

منه أكثر مما دفعت فيه.

ولا يدّعي الأب أمام ولده أنه كان في صغره ملَكاً من الملائكة بحسن أخلاقه واستقامته، وأنه كان نابغة عصره في مدرسته بحفظه الدروس وسَبْقه في الامتحانات، والولد يسمع من جدته ومن عمته أن أباه كان في صغره عفريتاً من العفاريت، وأنه كان في مدرسته نابغة ولكن في الكسل والتقصير، وأنه أمضى عشر سنين حتى وصل إلى الصف السابع!

إنها لا تفيد المواعظ ولا تنفع إلّا إذا كان الواعظ عاملاً بما يقول وكانت أفعاله مصدِّقة لأقواله، فإذا كان نصحه كلاماً يخرج من فمه فقط وبضاعة برسم التصدير فقط لم ينفع أحداً أبداً، سواء أكان ذلك نصيحة من أب أم كان موعظة من مدرس في الجامع أو خطيب على المنبر.

فالشرط الأول للتربية الصحيحة أن يبدأ الوالدان بإصلاح أنفسهما قبل أن يصلحا الولد.

* * *

والشرط الثاني إطالة صحبة الأولاد. فإذا كان الأب يذهب إلى عمله في الصباح الباكر والولدُ نائم، ويعود الظهر ليتغدى والولدُ في المدرسة، ويخرج إلى القهوة أو النادي أو السهرة أو الدرس فلا يعود إلى الدار إلّا والولد نائم، فمتى يراه ومتى يقوم بتربيته ورعايته؟

وإذا كانت الأم تترك الولد للخادمات وتذهب إلى عمل تعمله

أو شيء تشتريه أو صديقة تزورها فكيف يتربى الولد وقد حُرم من عطف أمه، وحُرم من نصح أبيه، وبقي للخادمات الجاهلات، يتعرض لأعمالهن ويقطف ثمرات جهلهن (هذا إذا لم تكن الخادمة صغيرة السن سيئة السيرة، فتلقنه الفساد من الصغر مما يرى منها وما يسمع عنها)؟ أو يَدَعْنَه يخرج إلى الطريق فيلعب مع الأولاد، فيتلقى في مدرسة الشارع أولَ درس من كتاب الشرور؛ يسمع كل بذيء من القول نابٍ من اللفظ، ويؤذي المارة، ويتعرض لأخطار السيارات، وربما جاءه حجر فشجّ رأسه أو صدمَتْه سيارة فكسرت رجله، فعاد إلى أهله بالضرر في جسده وفي روحه.

أين هذا من الولد الذي تقوم أمه على تربيته، ترضعه من ثديها، وتخدمه بيدها، وتسهر عليه بنفسها، لا تعرف من دنياها إلّا بيتها وزوجها وولدها؟ والولدِ الذي ينهض أبوه لصلاة الصبح فيُنهضه معه، ثم يشرف عليه، ثم يعود من عمله فيبقى معه، يراقب سيره وسلوكه، ومراجعته ومذاكرته، ويقوّم خلقه ويعلّمه دروسه، وإذا أراد نزهة أخذه أبوه إليها، وإذا أراد تسلية مشروعة شاركه فيها؟ وبذلك يكون البيت دار أمن وسلام وبيت محبة ووئام، الشمل جميع، والود شامل، وكل مَن فيه راضٍ عن نفسه وعن كل من فيه، والله راضٍ عن كل من في الدار.

هذا هو الشرط الثاني، هو ألّا يُؤْثِر الأب تجارته أو لهوه عن صحبة ولده، ولا تفضل الأم عملاً أو زيارة أو حفلة على الإشراف عليه.

أما الشرط الثالث فهو أن يعلم كل والد أن الإيمان والكفر،

والصلاح والفساد، إنما توضع بذوره في سن الطفولة، فيلقّن ولده الإيمان بالله وحب الخير واتباع الحق من الصغر.

ولهذا الإيجاز تفصيل ضاقت عنه مقالة اليوم، فلعلها لا تضيق عنه -إن شاء الله- مقالة الخميس القادم.

* * *

في تربية الأولاد
(٢)

نشرت سنة ١٩٦١

في الناس رجال قليل مؤمنون صالحون لو أجمع الشيطان كيده فأغراهم بالكفر ما نال منهم منالاً، ورجال كثير من الضالين المفسدين لو اجتمع وعّاظ الأرض على هداهم ما صرفوهم عمّا هم فيه إصبعاً.

فكأن الصلاحَ والفساد مستقرٌّ في النفس استقرار الدوحة التي امتدت جذورها وبسقت أغصانها، ولو حقّقتَ لوجدت أن بذور الدوحة قد غُرست في النفس في سن الطفولة الأولى.

فالكفر والإيمان، والرشد والضلال، والصلاح والفساد، كل ذلك تُغرس بذوره في العقل الباطن في السنين العشر الأولى من العمر، حين يكون قلب المرء كالصفحة البيضاء كل ما يُنقَش عليها يبقى فيها، والأب العاقل هو الذي ينقش عليها سطور الخير قبل أن تمتلئ بسطور الشر. وما يُنقَش في سن الطفولة في العقل الباطن، حين لا يكون للإنسان عقل واعٍ يفسد فطرته ويوجّه سيره، يكون العدة للحياة كلها، ويكون الموجِّه للإنسان طول العمر.

فكيف يصنع الأب لينشئ طفله على الإيمان؟

أنا أعلم أن الذين يأخذون الجريدة للتسلية وتزجية أوقات الفراغ سيملون مما أقول ويستثقلونه، وربما مروا به مرور الكرام باللغو وانصرفوا عنه فلم يقرؤوه. أما الذين يريدون الفائدة، ويرون الحكمة ضالّتهم يمسكون بها حيثما وجدوها، فسيجدون فيه درساً نافعاً، ربما كان في الأخذ به حفظ إيمان أولادهم ووقاية أنفسهم من النار.

وما وجدت هذه النصائح في كتاب ولا نقلتها عن أحد، ولكنها نتيجة تجاربي في بناتي وفي أولادهن.

وأولها: أن تعلم الطفل من سن ثلاث (من حين يبدأ الفهم والكلام) أن كل شيء من الله. لا تلقي عليه في ذلك محاضرة علمية، بل تأتيه بالسُّكّر[١] أو بالشُّكلاطة فتقول له: "أتعرف من أين جئت بها؟ لقد جئت بها من عند الله". وتدعه ولو لم يفهم ذلك، يكفيك أن يطرق ذلك سمعه.

ثم تعود إليه في الغد بشيء آخر وتخبره أن هذا الشيء هو أيضاً من الله. ثم تبين له أن كل شيء من عنده، وأن عنده شكلاطة وعنده سكاكر وعنده لُعَباً، وعنده خيرات كثيرة، وهو الذي عمل الشمس والقمر والنجوم؛ تتدرّج في إفهامه ذلك بلا دليل ولا فلسفة، بل تلقيه عَرَضاً على أنه حقائق مسلَّمة.

---

(١) «السُّكّر» هنا هو حلوى الأطفال (كما يُدعى في لغة الشام الدارجة) ويجمعونه على «سَكاكِر» (مجاهد).

٢- ثم تعلمه الدعاء.

فإذا طلب منك شكلاطة فقل له: اطلب ذلك من الله. قل "يا الله ابعث لي شكلاطة"، ولا ترفع صوتك لأن الله يسمعك. والله يسمع كل ما تقول ويرانا دائماً أينما ذهبنا ولو أغلقنا الباب وأطفأنا الضوء.

فإذا طلب من الله وجاءت الشكلاطة فعلّمه أن يشكر الله، ويقول: "أشكرك يا الله، الحمد لله".

فإذا كبر الولد، فدعا فلم يصل إلى ما يريد، فخبره أن الله لم يعطِهِ ما طلب لأنه قد أذنب ذنباً، كأن يكون قد كذب كذبة، أو اعتدى على أحد إخوته، أو عصى أمه، والذي يعمل ذنباً لا يرضى عنه الله فلا يعطيه.

٣- وتفهمه أن الله قال لنا: "كونوا صالحين، وصلّوا، وساعدوا الفقراء، ولا تكذبوا، ولا تعصوا أمهاتكم ولا آباءكم". فإذا عملنا ذلك كثّرَ علينا الخيرات وأدخلنا الجنة، وإذا لم نعمل ذلك أحرقنا بنار جهنم.

٤- وتفهمه أن الجنة بستان عظيم فيه كل شيء جميل، فيه أشجار مثمرة، وطيور حلوة، وأنواع الطعام اللذيذ والشراب البارد، وكل ما نطلبه فيها يحضر حالاً من غير أن نتعب بإحضاره، فإذا طلب الولد ألف لعبة جميلة وأنواع السكاكر وأجمل الثياب، يصير أمامه، وليس في الجنة برد ولا حر ولا تعب ولا خوف.

أما جهنم ففيها نار مشتعلة، أرضها من نار، وسقفها من نار،

وجدرانها من نار، ومن يدخلها يتألم أشد الألم ويحترق دائماً، وإذا عطش لا يجد إلّا ماءً وسخاً يغلي فلا يستطيع أن يشربه.

وتعيد عليه هذه المعاني في كل مناسبة. حتى إذا كبر وبلغ سن الفهم والتمييز، ودخل المدرسة، تعلمه فهم معاني الآيات التي يقرؤها في المصحف والتي فيها وصف الجنة والنار.

٥- وتلقنه الأخلاق الحسنة مقرونة بذكر الله، فتقول له: لا تكذب لأن الله لا يحب الكذب ومن يكذب يعذبه الله بالنار، ولا تسرق لأن الله نهانا عن السرقة، ولا تُغضب أمك لأن مَن يُغضب أمه يَغضب الله عليه.

٦- وإذا عمل ذنباً لا تهدده بالضرب ولا تخوفه من عقوبتك أنت، ولكن خوفه من عقوبة الله. قل له: "إذا كذبت عليّ فأنا لا أعرف الحقيقة ولا أعلم أنك تكذب، ولكن الله يعلم الحقيقة وهو الذي يعاقبك على الكذب"، فيتعلم -بذلك- عمل الخير وترك الشر.

وهذا هو الطريق الصحيح للتربية الصحيحة.

أما إن قلت له: "لا تسرق لئلا يضعوك في الحبس" فإنه يترك السرقة ما دام خائفاً من الحبس، فإذا أمن أن يراه الناس فيُدخلوه الحبس سرق. وإن قلت له: "لا تكشف عورتك لأن ذلك عيب" فإنه يسترها ما دام الناس يرون ذلك عيباً، فإذا فسد الناس وتعارفوا هذا المنكر ولم يعد عندهم عيباً، كشف. أما الذي يترك الشر خوفاً من الله فإنه يتركه دائماً، لأن الله مطلع عليه دائماً.

والأخلاق التي لا تبنى على أساس من الدين، ولا تقوم على ذكر الله ومراقبته والأمل في ثوابه في الجنة والخوف من عقابه في النار، تكون أخلاقاً واهية، كأنها بناء قائم على تل من الرمل على شفير الوادي العميق.

٧- وعوّد الولد على الطاعات من الصغر.

فإذا قمتَ إلى الصلاة فأقمه إلى جنبك ليفعل مثلما تفعل، يقوم معك ويقعد معك، ولا تضايقه، بل رغّبْه في ذلك ترغيباً. فإذا كبر قليلاً، علمه أن يقول: «الله أكبر». فإذا حفظ الفاتحة في المدرسة فاجعله يصلي صلاة كاملة. وإذا كان صبياً، فخذه معك إلى الجامع وحبّبْه إليه ورغّبْه فيه.

وإذا انقضت الصلاة فعلمه بعض الأذكار، كالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، و«سبحان الله»، و«الحمد لله»، و«الله أكبر»، و«لا إله إلّا الله»، ولو كرر ذلك بلا فهم. ليألف ذلك ويصير لسانه رطباً به. ثم اشرح له معاني هذه الأذكار على مقدار فهمه وإدراكه.

٨- وإذا كانت بنتاً فباعدها -من الصغر- عن اللبس الفاضح والخروج بادية الأفخاذ كلها (كما يفعل أكثر الناس)، ولا أقول أن للطفلة عورة، بل أريد تعويدها على اللبس المحتشم الجميل.

فإذا صارت بنتَ عشرٍ فألبسها الكم الطويل وعوّدْها وضع الخمار (ولو لم يستر شعرها كله)، وأفهمها أن هذا للتعود عليه فقط وأن الحجاب لم يجب بعدُ عليها، فإذا بلغت صار فرضاً عليها فلا تتركه أبداً. وينبغي أن تضع البنت خمارها مؤمنة بلزومه خوفاً من عقوبة الله على تركه، لا خوفاً من الأب. ونحن نشاهد

أن كثيراً من المتحجبات يضعن الحجاب خوفاً من الأب، فإذا كان بعيداً عنهن كشفن.

ومصيبة الآباء أنهم يتصورون أن البنت لا تزال صغيرة ولو بلغت سن ثلاث عشرة أو أربع عشرة، ويظنون أن نظر الرجال إليها مثل نظرهم هم إليها. لذلك تجد آباء مصلين صائمين لا يفارقون المسجد وبناتهم الكبيرات يخرجن سافرات متكشفات.

وقد ترى في الطريق الأم العجوز مستترة، وبنتها التي هي في طولها تمشي إلى جنبها سافرة. مع أنه لو كان يجوز أن تسفر إحداهما لكان سفور الأم وستر البنت أقل ضرراً وأصغر جرماً.

٩- وجنّب الأولاد -ما أمكن- الرادّ والرائي (التليفزيون)، وإذا كان في البيت ولم يمكن اجتنابه فاختر لهم منه ما كان ضرره أقل، وكن معهم وهم يرونه. وإذا مرّ ما لا يرضى عنه الله فبيّن لهم فساده وأن من يصنع هذا يدخله الله النار.

١٠- ولا بد مع هذا كله من أن تجلس كل يوم جلسة للأولاد، تقرأ عليهم وتقرأ معهم، وتعلمهم ما يمكن أن تحمله أسنانهم وأفهامهم من الحلال والحرام، وتبين لهم قواعد الإسلام وأركانه وما أمر به وما نهى عنه، وتضع في نفوسهم -خلال ذلك- حقيقة التوحيد ووجوب الاتباع وترك المحدثات والبدع. وتجعل بعض هذه الجلسات لتعريفهم بسيرة الرسول ﷺ فتشرح لهم أخلاقه وصحابته وكيف كانوا مع الله ومع الناس، وكيف كتب الله لهم بذلك الظفر والمجد في الدنيا والسعادة والنعيم في الآخرة.

* * *

كيف ربّيتُ بناتي

لقد قلت -من قديم- إن الإسلام اليوم أمام هجوم ما عرفه أهله أيام حملات الصليبيين ولا هجمات المغول والتتر، وهو أشد من الاستعمار الذي طالما قاسينا منه وبذلنا الكثير الكثير لندفع شره عنا، فهذا الاستعمار العسكري انتهى، ولكن بُلينا باستعمار شر منه هو الاستعمار الفكري والاجتماعي. إن أعداءنا يدخلون علينا من بابين: باب يأتي منه مرض يقتل، وهو الكفر، ولكنه مرض بطيء الانتشار ضعيف العدوى، ومرض دونه خطراً وهو أقل منه ضرراً، ولكن عدواه سريعة وانتشاره عاجل.

الأول هو مرض الشبهات، والثاني هو مرض الشهوات.

---

* نُشرت هذه المقالة بعد وفاة الشيخ (رحمه الله) بسنة أو نحوها في العدد الثالث من مجلة «جودي»، وقد أخذت المجلة -باجتهاد منها- مادة المقالة من حلقتين من حلقات «ذكريات علي الطنطاوي» (وهما الحلقتان ١٧٥ و١٧٦ في الجزء السادس) كما اجتهدت في تسميتها بهذا الاسم. أما أنا فقد ترددت ملياً: أأُدرجها في هذا الكتاب أم أصرف النظر عنها باعتبار أنها مما احتوته الكتب المنشورة؟ ثم رأيتها منسجمة مع مادة هذا الكتاب الجديد، وما كل قارئ له سيقرأ الذكريات حتماً، فأدرجتها رجاءَ تمام النفع بها والاستفادة منها (مجاهد).

وأول ما يتمثل المرض الثاني في هتك حجاب المسلمات، واختلاط البنين بالبنات، وتمهيد طريق الفاحشة للشبان والشابات. وقد سُخِّرت له قوى هائلة لا طاقة لنا اليوم بدفعها مجتمعة، إلّا أن يحفظ كلُّ أبٍ منا بنتَه، وكلُّ زوج زوجتَه، وكلُّ أخ أختَه.

أنا أقيم في مكة، وصيف مكة أتون متّقد، الحرارة فيها قد تقارب الخمسين. فماذا أعمل؟ هل أستطيع أن أنصب على أبي قبيس مكيفاً ضخماً وعلى قعيقعان (جبل الهندي) مثله لأبرّد جو مكة؟ وإن جاء البرد في جبال الشام ولبنان فهل أضع في ذُراها مدافئ كبيرة تدفع البرد وتعدل الجو؟ أم آتي في الصيف بمكيف صغير أضعه في بيتي وأغلق بابه عليّ، وأضع مدفأة في داري في الجبل فأدفئ بيتي؟

علينا أن نحفظ أنفسنا وأن نحفظ من استرعانا الله أمره من أهلنا وأولادنا. فكيف أعمل على تعليم بناتي الحجاب؟ أنا لا أريد أن أجبر بنتي عليه إجباراً فتتخذه وهي كارهة له، ضائقة به، حتى إذا استطاعت نبذه نبذَتْه، بل أريد أن تتخذه مقتنعة به، مطمئنة إليه، محبة له.

لما جاوزت بنتي الأولى التاسعة ومشت في طريق العاشرة (أو قبل ذلك بقليل، لقد نسيت الآن) فكرت وطلبت العون من الله، فقلت لأمها: اذهبي فاشتري لها خماراً (إشارب) غالياً نفيساً.

وكان الخمار العادي يباع بليرتين اثنتين، وإن ارتفع ثمنه فبثلاث. قالت: إنها صغيرة، تسخر منها رفيقاتها إن غطّت شعرها ويهزأن منها. قلت: لقد قدّرتُ هذا وفكرت فيه، فاشتري لها أغلى

خمار تجدينه في السوق مهما بلغ ثمنه. فكلمتني بالهاتف من السوق وقالت: لقد وجدت خماراً نفيساً جداً من الحرير الخالص، ولكن ثمنه أربعون ليرة.

وكان هذا المبلغ يعدل -يومئذ- أكثر من ثلث راتبي في الشهر كله، فقلت لها: اشتريه. فتعجبت وحاولت أن تثنيني عن شرائه فأصررت. فلما جاءت به ولبسَتْه البنتُ وذهبت به إلى المدرسة كان إعجاب التلميذات به أكثرَ من عجبهن منها بارتدائه، وجعلن يثنين عليه وقد حسدها أكثرهن على امتلاكه، فاقترن اتخاذُها الحجابَ وهي صغيرة بهذا الإعجاب وهذا الذي رأته من الرفيقات، وذهب بعضهن في اليوم التالي فاشترين ما يقدرن عليه من أمثاله، وإن لم تشترِ واحدة منهن خماراً في مثل نفاسته وارتفاع سعره.

بدأت اتخاذَ الحجاب فخورةً به، مُحِبّة له؛ لم تُكرَه عليه ولم تلبسه جبراً. وإذا كان العامة يقولون: «الشيء الغالي ثمنه فيه»، فإن هذا الخمار بقي على بهائه وعلى جِدّته حتى لبسه بعدها بعض أخواتها وهو لا يزال جديداً، فنشأن جميعاً -بحمد الله- متمسكات بالحجاب تمسك اقتناع به وحرص عليه. حتى إن بنتي الشهيدة السعيدة إن شاء الله (التي قتلها أعداء الله غدراً، فكسروا قلبي كسراً لا أظن أنه سيُجبَر بعده في الدنيا أبداً، وإن كان الإيمان يخفف الحزن ويهوّن الألم) عاشت هي وبنتها في أوربا سنين طوالاً جداً، فما بدّلت حجابها ولا غيّرت ثيابها.

وكانت بنتها هادية في مدرسة ألمانية (بقيت -بفضل مديرة متمسكة عجوز- خالية من الاختلاط مقصورة على البنات) فدخلت

المعلمة الفصل فوجدت حفيدتي في نقاش مع رفيقاتها، وعلت أصواتهن، يتناقشن في أمر الحجاب الذي تتخذه. فسألت المعلمة ما الخبر، فقلن لها إنهن يتناقشن في الحجاب، فقالت لهادية: إنني أعطيك عشر دقائق لتقومي فتشرحي للطالبات سبب اتخاذك هذا الحجاب.

وكانت تحسن النطق بالألمانية (حتى إنها أخذت فيها الدرجة الأولى وسبقت بنات الألمان أنفسهن) فشرحت ما تعرف من أمر الحجاب وبينت حكمه في الإسلام وفوائده وما يدفع عن البنت من ضرر، حتى اقتنعن وسكتن ولم تعد واحدة منهن بعد ذلك إلى التعرض لها.

وقدمت بنتي في إحدى الإجازات إلى عمان، وكنا فيها، فاجتمعت عند طبيب أسنان في غرفة الانتظار بجماعة من النساء المتكشفات السافرات اللواتي يحسبن التقدم والرقي بتقليد الأجانب عنهن واتباعهن في سلوكهن، فلما رأينها متحجبة أحببن أن يسخرن منها فقلن لها: من أي قرية جاءت الست؟ فقالت: من قرية تدعى جنيف (وكانت تقيم فيها يومئذ مع زوجها وأولادها). وحدثتهن عن حياتها فيها، فخجلن من أنفسهن وسكَتْنَ عنها وأكبَرْنَها. وكانت لطول بقائها في تلك الديار تحسن الألمانية وتكاد تحسن الفرنسية وتعرف كثيراً من الإنكليزية، فكان ذلك درساً لهؤلاء المقلدات المتحذلقات.

* * *

والتربية -كما أفهمها- هي غرس العادات الحسنة، والعادة تثبت بمرة واحدة (كما يقول بعض الفقهاء).

فمن تجاربي أنني كنت أحاول تصحيح عادات بناتي من الصغر، فكان الأهل يعجبون مني حين أقول للطفلة التي لم تكمل الأربع: لا تفتحي فمك عند المضغ. وأحرك فكّي أمامها كأنني آكل وفمي مغلق، أو آكل أمامها فعلاً من غير أن أفتح فمي. أعلمها بالقول وبالفعل، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ، المعلم الأعظم، حين علّم المسلمين أحكام الصلاة، ثم صلى أمامهم وقال: «صلّوا كما رأيتموني أُصلّي»، وحجّ معهم أو حجوا معه، وقال لهم بعد أن لقنهم أحكام الحج: «خذوا عني مناسككم». وأعلّم البنت كيف تغسل يدها بالصابونة، فما كانت تعرف كيف تمسكها، وكلما أمسكت بها أفلتت منها. فقلت لها: أمسكيها باليمين وحركي أصابعك قليلاً، ثم انقليها إلى الشمال فحركي أصابعك، وكرري ذلك، فتعلمت كيف تغسل يدها بالصابون.

وكنت من حين تظهر أسنان الطفلة آتيها بفرشاة صغيرة وأعلمها كيف تستعملها من فوق لتحت ومن تحت لفوق. لا أشرح ذلك باللسان فأجعل منه معادلة كيميائية أو قاعدة نحوية لا نفع منها ولا داعي إليها، بل أصنعه أمامها وأقول لها: اعملي مثلي. وخيرٌ من ذلك أن أعمله من غير أن آمرها صراحة بعمله، بل أجعلها هي تقلدني فيه.

ثم لما كبرت قليلاً علّمتُها كيف تستعمل الشوكة والسكين، لا حباً بالعادات الإفرنجية بل تدريباً لها على ما سيواجهها في

حياتها، حتى إذا اضطرت يوماً إليها كانت قادرة عليها. وليس في هذا مخالفة للسنّة كما قد يتوهم بعض القارئين، فالرسول ﷺ استعمل السكين لقطع اللحم، وديننا لا يمنعنا من أن نأخذ كل ما فيه مصلحة لنا من عادات غيرنا إن لم يكن قد نهانا عنها ربنا ولم تكن مخالفة لشرعنا.

* * *

وكنت مع هذه العناية بأكل بنتي وسلوكها ونظافتها أهتم بما هو أولى من ذلك كله وأسمى، وهو غرس بذور الإيمان في قلبها. ولي تجربة مع بناتي ذكرتها في الرائي وفي الإذاعة مرات، فكنت أجيء بنتي ببعض الحلوى أو بعض اللعب فأقول لها: شوفي شو بعت لك الله، الله بعت لك هذا. فلا تنتبه إليّ، يشغلها فرحها بما جئتها به عن التفكير بما أقول لها.

حتى إذا كثر ذلك مني ومنها سألتني يوماً: الله عنده لعب كثير؟ فقلت لها: عنده كثير كثير، عنده أشياء ما لها آخر؛ عنده لعب وعنده حلوى وعنده كل شيء، فإذا طلبتِ منه فإنه يعطيك.

قالت: أين هو؟ قلت: إنك لا يمكن أن تريه بعينك، ولكنه يسمع كلامك إذا طلبت منه، فقولي: «يا الله، ابعث لي كذا» فإنه يبعث لك.

وصرت كلما سمعتها تدعو تطلب شيئاً جئتها به، ففاجأتْني يوماً فقالت: بابا، لقد طلبت من الله لعبة فما جاءتني. فقلت لها: الله يعطي الأولاد الذين يحبهم، والله يحب البنت التي تطيع أمها والتي لا تكذب والتي تكون نظيفة... (وعددت لها بعضاً من الصفات

التي تقدر على مثلها)، فإذا طلبتِ شيئاً فلم يعطِك فمعنى ذلك أنك عملت عملاً لا يحبه الله.

وانتقلت بها (وبأخواتها من بعدها) خطوة خطوة، فكنت إذا أحسنت الواحدة منهن لا أقول لها أنا سآتيك بشيء جميل أو أجلب لك لعبة ظريفة، بل أقول لها: "إن الله سيدخلك الجنة". وإذا عملتْ عملاً سيئاً لا أهددها بالضرب أو العقوبة مني، بل أقول لها: "إن الذي يعمل مثل هذا ربنا يحرقه بالنار".

وسألتني يوماً: ما هي الجنة؟ قلت لها: الجنة دار كبيرة جداً، وحولها حديقة عظيمة فيها أنواع من اللعب ومن الأكول الطيبة، ومن كل شيء تريدينه، وكله بلا ثمن تأخذين ما شئت. فالأولاد الذين يسمعون كلام أمهاتهم وآبائهم ولا يكذبون ولا يعملون الأعمال القبيحة يُدخلهم ربنا الجنة، والكفار الذين لا يعبدون الله ولا يصلّون ولا يصومون يدخلهم النار.

* * *

ومشيت مع الأولاد على هذا الطريق، فكنت ألقي عليهم النصائح أو المواعظ في كلمة عارضة، وإذا أمرت البنت بشيء أقرنه بثواب الله الذي يعطيه لمن يعمل مثل هذا الشيء الحسن، فنشأت من الصغر على خوف الله وعلى مراقبته.

وإذا رأت البنت في دار إحدى صديقات الأسرة عندما تزورها مع أمها، إذا رأت امرأة سافرة مثلاً، أقول لها: لا تعملي مثلها، هذه لا تسمع كلام الله، الله خلقها وأعطاها كل ما تريد وقال

لها: لا تكشفي جسمك أمام الرجال الأجانب، فعصَتْ.

فتقول البنت: لماذا لا يعاقبها الله؟ فأقول لها: متى ترتقين يا بنتي بالمدرسة من صف إلى صف؟

تقول: بعد الامتحان. فأقول لها: نعم، عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وهذا الامتحان في المدرسة امتحان صغير، والتي ترسب في صفها تتألم أياماً وتُفتضح أمام أهلها ورفيقاتها، ولكن أمامنا الامتحان الأكبر، امتحان يدخل فيه الناس كلهم تلاميذ، الصغار والكبار، والمعلم والمتعلم، والحاكم والمحكوم، كل من مات ودفن من عهد آدم إلى آخر البشر، فيحييهم ربهم ويجمعهم في مكان واحد، وتوزن أعمالهم: فمن عمل خيراً ومات مؤمناً ذهب إلى الجنة، ومن كان كافراً أو عمل سيئاً يعاقب بالنار، وهنالك الفضيحة تكون أمام البشر كلهم لا أمام الرفاق والأهل فقط.

كذلك كنت ألقي على البنات أصول العقائد وأغرس في قلوبهن بذور الإيمان، بكلمات عارضة تأتي خلال الكلام، وبأسلوب يفهمه الصغار، فما كل كلام يفهمه الصغار.

* * *

لقد بكرت في تعليم الأولاد حمل التبعات، فلما كانت بنتي الأولى تدرج (أي تتعلم المشي ولا تحسنه) وكنا نأكل في صحن الدار، أخذت طبقاً فيه بقية طعام وقلت لها: لقد صرتِ كبيرة فاحملي هذا إلى المطبخ.

فصاحوا جميعاً: إنها تكسره، فقلت: إنها كبيرة، ووضعته

في يدها ووضعت الثقة في نفسها، فحملته ومشت وعيني عليها، وكنت متأهباً حتى إذا رأيتها مالت إلى السقوط وثبت إليها فأمسكت بها.

وكانت هذه البنت تحب السهر ولا تستطيع أن تأوي إلى فراشها حتى يدخل كل من في الدار في فراشه، ولا تقدر أن تغمض عينيها وفي المنزل واحد مفتوحةٌ عيناه. وقد جربنا فيها الأساليب وبَلَوْنا معها الحيل، فلم ينفع معها ترغيب ولا ترهيب، حتى أخذ السهر من لون خديها ومن بريق عينيها ونال من صحتها.

وسألت إخواني فوجدت أكثرهم يلقى من الأولاد، من كرههم للنوم وحبهم للسهر، مثلَ الذي ألقى منها، ولم أجد عندهم دواء لهذا الداء. ففكرت، فخطر لي خاطر. فقلت لأم البنت: أنا أستطيع أن أحبب إلى بنتك المنام وأكرّه إليها السهر، ولكن الدواء مر، فهل تعدينني ألّا تأخذك بها رأفة إذا أنا جرّعتها هذا الدواء؟

قالت: نعم. فقلت: عنان... فقالت: نعم. قلت: سنسهر الليلة، فهل تحبين أن تسهري معنا؟ ففرحت وأشرق وجهها وجعلت تقفز من الابتهاج وتقول: إيه، إيه يا بابا، أرجوك يا بابا. قلت: ولا تتأخرين في القيام إلى المدرسة صباحاً؟ قالت: لا، لا، لا والله، جربني. قلت: أسمح لك بالسهر، ولكن بشرط واحد. فجزعت قليلاً وقالت: ما هو؟ قلت: ألّا تنامي حتى أنام أنا. فعاودها الفرح لما تتصور من مسرات السهر ومباهجه وقالت: قبلت.

وامتدت السهرة، وتعمدت أن أحشد فيها كل ما تحبه البنت من قصص حلوة وألاعيب حتى نعست وكادت تنام في مكانها،

ثم نامت. فقالت أمها: لقد نامت، أفأحملها إلى سريرها؟ قلت: هيهات، الآن بدأ العلاج، فشدي أعصابك.

وعمدت إلى البنت فهززتها حتى أيقظتها، فاستيقظتْ مكرهة. ومرت ربع ساعة فعادت إلى النوم، وعدت إلى إيقاظها. وتكرر ذلك حتى صارت تتوسل إليّ وتقبّل يدي أن أدعها تنام، وأنا أقول لها بدم بارد: لا، السهر أحلى، ألا تحبين السهر؟ حتى قالت: لا، لا أحبه، بدّي أنام.

وانطلقت تبكي، وبرئت من علة السهر من تلك الليلة.

* * *

وتجربة أخرى: كنت أطالع يوماً في غرفتي فسمعت حواراً بين ابنتي الصغرى بيان (وهي الآن محاضرة في الجامعة بجدة، وكان عمرها أربع سنوات) وبين أمها. قالت البنت: ماما، في غرفة بابا ضبع. قالت لها أمها: ضبع؟!

قالت: إي والله، تحت كومة المجلات. قالت: بَسْ[1]، يا بنت لا تكذبي.

فبكت البنت وهُرعت إليّ تستشهدني. فضحكت وقلت لأمها: اسأليها، ما حجم الضبع الذي رأته، وما لونه. قالت: هو أسود بقدر الإصبع.

فغضبت الأم وقالت لي: كيف تقول أن الأطفال لا يكذبون؟ وهذه البنت تكذب وتصر على الكذب. قلت: إنها لم تكذب،

---

(١) «بَسْ» كلمة فصيحة.

فتعالي حتى أريك هذا الضبع. وذهبنا فإذا هو صرصور.

فقلت لها: الأولاد مفطورون على الصدق، فإذا كذب الطفل فإنما يكذب لسوء التقدير (كما قدرت أن الصرصور ضبع)، ذلك أنها تسمع أن الضبع حيوان مخيف قبيح ولا تعرف ما هو، فلما رأت الصرصور فخافت منه واستقبحته ظنته هو الضبع! أو يكذب الأطفال (وذلك هو الغالب) خوفاً من عقوبة الآباء والأمهات.

فلينتبه المربون والأهلون الذين يقسون على أولادهم أنهم يدفعونهم إلى الكذب، أما الولد -بفطرته- فلا يكون إلا صادقاً.

* * *

ومن تجاربي مع بناتي إن إحداهن كانت تخشى الخروج إلى الحديقة ليلاً، وكنا نسكن في سفح قاسيون... وأين مني الآن قاسيون؟ حرم الله الجنة ونعيمها من حرمني من جواره، حتى إنني لأخشى أن أموت قبل أن تكتحل عيناي برؤية قاسيون[1].

كنا نسكن في دار لها حديقة، فإذا جنّ الظلام خافت البنت أن تخرج إليها، فأعطيتها مرة كشافاً كهربائياً وخرجت بها إلى الحديقة وهي ممسكة بيدي وبيدها الأخرى الكشاف، فلما توسطنا الحديقة قلت لها: أضيئي نور الكشاف.

فأضاءت، وقلت لها: ألا ترين؟ هذه هي الشجرة التي كنا نراها في النهار، وهذه البركة الصغيرة، ما تغير شيء، كل شيء

(١) ومضى من هذه الدنيا -رحمه الله رحمة واسعة- ولم يعد إلى الشام أبداً ولا رأى قاسيون الذي أحب (مجاهد).

في مكانه. فلماذا تخافين الخروج؟ ألا تخرجين في النهار؟

قالت: نعم. قلت: ما الذي تغير؟

والخوف إن كان له سبب معقول كان طبيعياً، فمن كان له طفل يخاف من الظلام وأمثاله فدواؤه أنه يهجم به على ما يخاف منه، فإذا اطمئن إليه زال خوفه. أما الخوف الذي هو انحراف سلوكي قد يحتاج إلى طبيب نفسي وإذا ازداد صار مرضاً نفسياً فهو الخوف بلا سبب معقول، ذلك الذي يجب أن نهتم به وأن نحرص على مداواته.

* * *

الاهتمام بالأيتام

أذيعت سنة ١٩٦٠

كنت في أواخر الصيف الماضي غادياً إلى عملي ماشياً، فمرّ بي صديق في سيارته الخاصة فدعاني، فشكرته وسألته أن يدعني أمشي، فقد علت سني وزاد وزني، والمشي دواء لي.

قال: امشِ يوماً آخر، واركب معي نتحدث.

فركبت، وكانت له حاجة في الصالحية، فاستأذنني أن يمر فيقضيها ثم يذهب بي إلى القصر[١].

قلت: يا رجل، إذا كانت لك حاجات تريد أن تدور البلد لتقضيها فلماذا تدعو الناس؟ أتريد أن تتجمل أمام الناس بأن لك سيارة وأنك تمنّ على الراجلين المساكين من أمثالي فتحملهم معك وتسيّرهم في ركابك؟

فضحك وقال: إنك لن تتأخر عن عملك وستصل إليه بأسرع مما تصل لو مشيت، فاركب واشكر.

(١) هو «قصر العدل»، وكان عمل علي الطنطاوي فيه في تلك السنة قاضياً في محكمة التمييز (محكمة النقض) (مجاهد).

ولما وصلنا إلى السوق المزدحمة هناك إذا هو يقف السيارةَ وقفة منكرة رجّتها رجّة حسبت معها أن مفاصلها قد تخلعت، فقلت: ويحك! تعلّمْ السواقة قبل أن تشتري السيارة.

قال: انظر.

فنظرت، فإذا ولد صغير لا أظن عمره يجاوز الأربع، واقف وسط الطريق ما بينه وبين السيارة إلا شبر، ولولا انتباه السائق وحذقه لكان تحت دواليبها. وكان مُصْفَرّ الوجه، نحيل الجسد، دقيق العنق، بارز البطن، وسخ الثوب، يدلّ كل شيء فيه على أنه ولد عليل مهمَل.

وكان قد اجتمع علينا جماعة من الناس، يتعجبون من إطلاق هذا الولد وحده ويشكرون للسائق جهده. فقلت: أين أهله؟

فلم يعرفه أحد منهم، ثم جاء رجل فلما رآه قال: أنا أعرفه.

قلت: أين أهله؟

قال: فوق، في الجبل، في رأس هذا الطريق.

فأركبناه معنا وشرينا له كعكة، وصعدنا بالسيارة في هذا الطريق الضيق حتى وصلنا إلى دار صغيرة كأنها كوخ، من هذه الدور القائمة بين المقابر. وكان بابها مفتوحاً وفيها امرأة تشتغل وأولاد يلعبون، فلما رأته صرخت: جيت؟ الله لا كان جاء بك!

ثم رأتنا فوقفت تنظر إلينا متعجبة، كأنها ترى نوعاً من المخلوقات غير مألوف.

قلنا: كيف تتركين هذا الولد على الطريق؟ أما تخافين أن تدعسه سيارة؟

قالت: إن شاء الله تدعسه وتريحنا منه!

قلت: حرام! ما عندك شفقة؟

قالت: ما عندي شفقة؟ لو كان ما عندي شفقة ما كنت ربيته وخدمته.

وكأنها أرادت أن تختم هذا الحوار الذي لم تر له داعياً فصاحت بالولد: ادخل. فدخل خائفاً، فلما رأت معه الكعكة (وكان يسرع في أكلها) صاحت به: أعطِ إخوتك. وَيْلي عليك شو ابن حرام!

قلت: إنه جوعان، وصغير، دعيها له.

قالت: جوعان؟! من قال أنه جوعان؟ إنه يأكل كل يوم رغيفين، فهل أتركه يتسمم بالكعكة وحده وأولادي ينظرون؟

قلت: وهو؟ أليس ولدك؟

قالت: ولدي؟ ها ها ها!

قلت للولد: من هي؟ أليست أمك؟

فسكت حائراً، وهجمت عليه لتأخذ الكعكة فخبّأْتُه ورائي، فشدّتْه من يده وأخذتها منه، فانطلق -على صغره- يسبها بلسانه الناقص أفظع السباب وأشنعه.

فعجبت وتحققت الخبر، فإذا هذا الولد يتيم الأبوين، توفي

أبوه وهو رضيع فكفلته أمه، وهي امرأة فقيرة عليلة، فجعلت تخدم في بيوت الناس؛ تغسل وتنظف وتمسح الأرض لتشتري له ما يملأ معدته ويستر جسده، وكانت تحرم نفسها وتطعمه وتكسوه، ولبِثَتْ على ذلك حتى أضناها العمل ونالت منها العلة فماتت. ولم يبقَ له أحد إلا ابن عم بعيد، هذه داره وهذه امرأته، ضمّه إليه وألزمها برعايته.

فأعطيناها ما تيسّر ووعدناها بالإكرام إن هي أكرمته، وانصرفنا. وجعل صاحبي يتفقده ويخبرني بأمره، فعلمت -من بعد- أن هذه المرأة طردته من دارها، فأخذه شيخ من الحي تجمعه بأبيه قرابة بعيدة جداً فضمه إلى أولاده.

وذهبنا نزور الشيخ فإذا هو رجل صالح فقير، فعرضت عليه شيئاً من المال يستعين به على تربية الصبي، فأبى وقال: أنا رجل أعظ الناس في المسجد وآمرهم بفعل الخير، فإذا لم أبدأ بنفسي وأتعظ أنا بقولي لم يكن فيّ خير، وإن شرّ الناس من يتخذ العلم بضاعة للتصدير؛ يعلم ولا يعمل، ويأمر الناس بالبر وينسى نفسه، فإن جمع إلى ذلك أكل الدنيا بالدين واتخاذ الصلاح والعلم سلماً لجمع المال كان من شياطين البشر. والرسول ﷺ أشار بأصبعيه وقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، فهل من ثواب أعظم من أن يكون المرء مع الرسول في الجنة؟

قلت: ولكن اسمح لي أن أقول لك أنك لست من أهل الغنى، فلِمَ لا تدعني أشاركك في هذا الثواب؟

قال: أما أني لست من أهل الغنى فصحيح، ولكن أفقر

الناس يجد من هو أفقر منه فيعطيه. وهذا ولد مع أولادي، يسعه ما يسعهم، وأما المشاركة في الثواب فلا أريدها. ولو كان معي سهم في شركة رابحة كان رأس ماله مئة فصار ألفاً، هل أقبل أن أبيعك نصفه برأس ماله ونتقاسم الربح؟ فكيف أعطيك ربحي من هذا السهم الذي تربح المئة فيه سبعين ألفاً؟ لا يا سيدي.

ومرت أيام، وخبّرني صديقي أن الشيخ الفاضل مات وأن الولد شُرّد وساءت حاله، ولم يعد يعرف له مقراً. فأسفت واسترجعت، ثم ضربتني الحياة بأمواجها وصرفتني عنه، فنسيت قصته.

ولقيت صديقي أمس بسيارته فركبت معه، فقال لي: أتذكر -يا أستاذ- ذلك الطفل اليتيم الذي كادت تدعسه[1] السيارة؟

قلت: أذكره، فما خبره؟

قال: إذا لم تكن مستعجلاً فإني أذهب بك إليه، لترى ما يسرّك ويرضيك.

قلت: هلمّ بنا.

فأخذني إلى شارع خالد بن الوليد، فوقف بي على طابق من عمارة جديدة، فدخلت معه، فلم نجد إلا الآذن. فقال له: الأستاذ يريد أن يزور الدار.

قال: "تفضلوا". لم يسأل من هو هذا الأستاذ ولم نخبره

---

(١) دعسته السيارة: وطئته؛ أما قولهم «دهسته» فهو من الغلط.

نحن، وبدا لي من هيئته أنه يألف ترداد الزوار على هذه الدار. فدخلنا غرفة إلى اليمين مفروشة فيها مكتب ومقاعد، ثم أفضينا منها إلى غرفة أخرى فيها مكتبة قد عُرض فيها بعض كتب الأطفال المصوّرة وصُفَّت فيها المقاعد الصغار على نحو ما يكون في المدرسة. ودخلنا منها إلى غرفة واسعة ملئت أسرّة، كل سرير منها بسريرين أحدهما فوق الآخر، كما يكون في القطار. ومنها إلى ساحة مكشوفة وجدنا فيها عدداً من الأولاد الصغار، فدعا واحداً منهم وقال لي: هذا هو.

فنظرت فإذا ولد صحيح الجسم مورّد الوجه بلباس نظيف، وعهدي بالولد الذي كادت تدعسه السيارة هزيلاً نحيلاً أصفر الوجه وسخ الثوب.

قلت للآذن: ما القصة؟

قال: وجدنا هذا الولد فجئنا به فغسلناه، وألبسناه ثياباً نظيفة فلم يكن يصدق أنها صارت له، وكان يسألنا: هل نتركها له؟ فنطمئنه إلى أنها صارت ثيابه، فلا يصدق ويعود فيسأل. ولما وضعناه على المائدة وقدمنا إليه الطعام فتح عينيه محملقاً، إذ رأى شيئاً ما رأى في عمره مثله، وراح يأكل بأصابعه كلها لا يشبع، يستعجل يخاف أن نرفع الطعام من أمامه. ولما وضعناه في السرير وقع على الأرض لأنه لم ينم في حياته على سرير. فتعلّم الآن كيف يأكل ويشرب وكيف ينام.

وكلمته فوجدته مهذباً ذكياً، فقلت: وهل هذه مدرسة خاصة أم هي مدرسة رسمية؟

قال: هذا هو ميتم جمعية الرعاية الاجتماعية، ولم يمرّ على افتتاحه إلا شهور معدودة، وفيه نحو ثلاثين غلاماً يتيماً.

قلت: ما أرى إلا خمسة أو ستة.

قال: إنهم الآن في المدرسة. إن الجمعية تأخذهم فتداويهم وتكسوهم وتدخلهم المدرسة، يذهبون إليها صباحاً ويعودون بعد الظهر كما يعودون إلى بيوتهم، يجدون الطعام مهيأً فيأكلون ويستريحون ويلعبون، في جو «عائلي» تقوم عليهم مربية تكون معهم دائماً.

ونظرت فإذا الأسرّة مرتبة أغطيتها نظيفة، ونزلت أرى المطبخ في قبو المنزل فوجدت قائمة الطعام أحسن مما في داري، ما يخلو يوم من لون ورز وشيء من الحلوى، وطاولة الطعام في المطبخ نظيفة. ووجدت نمليّة[1] فيها طعام، ففتحتها ونظرت فوجدت ما بقي من طعام الأمس: فاصوليا ورزاً، فشممت ريحه فوجدت ريح طعام طيب الطبخ. وكانت زيارتي -كما قلت- مفاجأة لا يدرون

(١) لن يعرف أكثر القراء ما هذه على الأغلب. لقد كانت تلك أيامٌ لم تنتشر فيها الثلاجات في البيوت، ولعل أقل القليل من الناس مَن كانت في بيته ثلاجة تحفظ طعامَه وتبرّد شرابَه، فكان الناس يضعون في مطابخ بيوتهم تلك «النمليات»، وهي على هيئة خزائن صغيرة ذات أرفف، ولا جوانب لها بل هي محاطة من أربع جهاتها بشبك خفيف يسمح بمرور الهواء (فيَحُول دون تلف الطعام بالحرارة الشديدة) ويمنع دخول الحشرات (ولعل اسمها جاء من هنا، إذ كان النمل آفة الطعام المحفوظ في أكثر البيوت وهذا الشبك يمنع دخوله) (مجاهد).

بها، ولم أرَ إلا الآذن ولم يسألني عن اسمي، فليس ما رأيت شيئاً تكلفوه من أجلي، بل هو الشيء المعتاد.

ووجدت في شق الطابق الآخر مستوصفاً كاملاً، يتردد عليه جماعة من الأطباء ويُطبب ويداوي بالمجّان. وخبروني أن الجمعية صنعت هذا كله مع أن اشتراكها ليرتان في الشهر، وليس عندها إلا مئة وستون مشتركاً. فخرجت وأنا أحس من أعماق قلبي بإكبار هذا العمل وشكر القائمين عليه.

يا أيها السامعون:

إنها إذا أُسست شركة أو طُرحت أسهم للبيع تتسابقون إلى شرائها أملاً بالربح، وهذه أسهم مطروحة ربحها أكيد، وهي مكفولة كافلها الله. فأقبلوا عليها، فإنكم لا تدرون لعل هذا اليتيم المسكين الضائع في الطرقات يكون له ذكاء وتكون له موهبة، إذا نحن تعهدناه كان منه عالم كبير أو أديب عبقري أو تاجر عظيم، وإن تركناه وقف ذكاءه على الشر وموهبته على الإجرام. وإن في أذكياء المجرمين من لو رُبّي وعُلِّم لكان من عباقرة الدهر.

* * *

عملٌ نافع

نشرت سنة ١٩٦١

ذهبت من يومين إلى المطار، فرأيت قبل أن أصل إليه بناء ضخماً توضع أسسه وتقرر دعائمه، فقلت لصديق كان معي: انظر إلى أين وصلت المساكن الشعبية.

قال: هذه ليست من المساكن الشعبية.

قلت: ما هذه؟

قال: شيء عظيم، لست أدري كيف لم تعلم به بعد، ولو عرفتَ طرفاً من خبره لجعلتَه موضوع مقالتك هذا الأسبوع. هذه أسس مشروع من خير ما رأت هذه البلاد من مشروعات، لأنه إن كان الخير في بناء المدارس فهذه مدرسة، وإن كان الخير في إقامة المشافي فهذا مشفى، وإن كان الخير في إسعاف الفقراء وإسكانهم وإطعامهم فهذا مسكن ومطعم للفقراء، وفيه -فوق ذلك- معنى ليس في ذلك كله.

قلت: ويحك، لقد شوّقتني فأوصلني.

قال: هذا مشروع أبناء الشهداء. هؤلاء الشهداء الذين قضوا في

أيام العدوان، وفي يوم فلسطين، وقبل ذلك وبعده؛ الذين ارتضوا لأنفسهم الموت لتتم لنا الحياة، فقضوا دفاعاً عنا. إنهم خلّفوا وراءهم أطفالاً ضِعافاً لا يملكون سعياً ولا حيلة، وأُسَراً فقدت بفقدهم الكاسب والمُعيل، ولعل فيهم من لا مال له ولا مورد. أفندعهم يتجرّعون غصص الفقر والحاجة فوق ما تجرعوا من الألم بفقدان الأب والزوج والولد؟ لذلك قام هذا المشروع. إنها ستُبنَى ها هنا مدينة تؤوي في أول الأمر خمسمئة ولد من أولاد الشهداء، يأكلون فيها ويشربون، وتكون لهم مدرسة يتعلمون فيها ومستشفى يدخلونه إذا مرضوا، وستبنى مساكن لأهلهم وذويهم يُعطَونها مجاناً ليكونوا قريباً من أولادهم.

قلت: أنا والله لا أثني في العادة على أحد، ولا تعوّد مَن يقرأ لي أو يستمع إليّ أن أمدح أحداً حاكماً أو غير حاكم، لأني لا أبتغي رضاء أحد إلا الله (أو هذا ما أرجوه على الأقل، ولعلي لم أصل إليه). ولكني أخالف طريقي هذه المرة وأثني على القائمين بهذا، فمن هم لأذكرهم؟

قال: إنها لجنة من العاملين تعمل بإشراف قائد الجيش الأول، وهو الموجّه لهذا المشروع المهتم به.

قلت: جزاهم الله خيراً وجزى من يعاونهم عليه، فإنها والله مكرمة وإنها سنة السلف. ولقد كان عمر أباً لأبناء الشهداء الذين فقدوا آباءهم، وكان يرعاهم فوق رعاية الأب. ولن أسرد هنا عليكم الكثير من الأخبار، فهذا كتابي «أخبار عمر» بين أيدي الناس فاقرؤوها فيه، ولكني أسرد خبراً واحداً رواه الأحنف بن قيس. الأحنف سيد تميم، الرجل العظيم في سيادته والعظيم في

إيمانه وفي خلقه، قال:

أخرجنا عمر في جيش العراق، فحاربنا وظفرنا، وأخذنا من الغنائم فلبسنا من رقيق الثياب وقدمنا على عمر، فلما رآنا أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا ولا يرد علينا. وكنا من أصدقائه وأصحابه، فاشتد ذلك علينا، فشكونا إلى ولده عبد الله، فقال: أنا أخبركم بالسبب؛ إنه رأى عليكم هذه الثياب الرقيقة التي لم يلبسها رسول الله ﷺ ولا الخليفة من بعده فكرهها.

قال الأحنف: فأتينا منازلنا، فنزعنا ما كان علينا وأتيناه بثيابنا العربية التي كان يألفها منا، فقام إلينا فسلم على رجل رجل، واعتنق رجلاً رجلاً، فقدّمنا إليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية، فعرض فيها شيء من أنواع الخبيص، فذاق منه بطرف خنصره فوجد شيئاً طيب الطعم والرائحة، شيئاً نفيساً لم تكن تعرفه العرب. وتطلعت أنظار القوم، وتحلبت الأفواه، فقال: "إني سأخص بهذا الطعام أحق الناس به وأَولاهم بأن يذوقه". فظن كل واحد من كبار القوم أنه سيخصه به لمنزلته ومكانته، فيكون ذلك تكريماً له، وإذا هو يحمله إلى أولاد مَن قُتل مِن المسلمين، إلى أبناء الشهداء، فيوزّعه عليهم. ولم يأخذ لنفسه ولا لأهله منه شيئاً.

وكذلك كان يكرَّم أولاد الشهداء. كانوا يخصّونهم بكل طيب من الطعام طريف من الثياب، وكانوا يرعونهم أكثر من رعاية آبائهم لهم لو كانوا قائمين عليهم.

وكان عمر يدور بنفسه على بيوتهم فيسأل أمهاتهم (الذين غاب أزواجهن أو ماتوا في الجهاد)، يقف على أبوابهن يسألهن:

"ألكنّ حاجة؟ أيتكنّ تريد أن تشتري شيئاً؟ فإني أكره أن تُخدَعن في البيع والشراء". فتخبره كل واحدة بما تريد ويرسلن معه جواريهن وغلمانهن، فيدخل السوق ووراءه الجواري والغلمان، فيشتري لكل واحدة ما تريد ويحمّله لجاريتها أو لغلامها، وإذا كان الشيء ثقيلاً حمله هو (وهو أمير المؤمنين) على رقبته وأرجع لهنّ بقية الدراهم. ومن ليس عندها دراهم اشترى لها ودفع هو الثمن وحمل إليها ما تريد.

فكان الجندي -أيها القراء- يذهب إلى المعركة مطمئناً على أهله في غيابه، مطمئناً على أولاده بعد موته، فيجمع إلى ثواب الله في الآخرة الأمان على أهله في الدنيا.

أما ثواب الشهيد في الآخرة فقد وصفه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وبقية الخمسة (إلا أبا داود) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحبّ أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة».

يخبر سيدنا رسول الله ﷺ أن الذي يدخل الجنة لا يرضى أن يرجع إلى الدنيا ولو أُعطيها كلها.

وما الدنيا بالنسبة إلى الجنة؟ إنها كبطن الأم الذي كان فيه الجنين قبل ولادته بالنسبة إلى هذه الدنيا؛ يخرج أحدنا من بطن أمه باكياً متألماً، فإذا رأى سعة هذه الدنيا وشمسها وقمرها وما فيها لم يرضَ أن يعود إلى البطن ولو أعطي كل ما فيه. وكذلك

مَن يدخل الجنة، إلا الشهيد، فإنه إذا رأى المكافأة العظيمة التي كافأ الله بها موته في سبيل الله، تمنى أن يعود فيُقتَل عشر مرات.

فإذا اجتمع إلى هذا الثواب العظيم في الآخرة أن يأمن على أهله وولده من بعده فقد جمع الدنيا والدين. على أن الأمان في الحقيقة أمان الله؛ هو الرزاق المتكفل بالأهل والولد، ولكن الله أمر باتخاذ الأسباب.

بذلك فتح أجدادنا ثلث المعمور من الأرض في أقل من ثلاثين سنة، وأزاحوا عن صدر الدنيا دولة كسرى التي كان مَلِكها -من غروره وعتوّه- يتسمّى بملك الملوك، وكان العرب قبل الإسلام يهابون عاملاً من عماله (هو النعمان) ويسمونه ملك العرب، مع أنه كان مدير ناحية! فلما مس قلوبَهم عزُّ الإيمان نسفوا ملك كسرى من أساسه نسفاً. ما صنعوا ذلك بسلاحهم ولكن بإيمانهم. كان عدوهم أحدَّ سلاحاً وأكثر عدة وعدداً، كانوا أقلّةً في العدد وكان سلاحهم سيوفاً ملفوفة بالخِرَق، ولكنهم انتصروا -مع ذلك كله- هذا النصر المؤزر لأنهم كانوا يعلمون أنهم يرجعون بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، والشهادة عندهم نصرٌ أكبر.

فيا أيها القائمون بهذا المشروع العظيم: لقّنوا أبناء الشهداء سِيَر الشهداء، املؤوا نفوسهم بهذا الإيمان، أفهموهم أنه ليس كل من قُتل في الحرب شهيداً. إن من الحروب حروب ظلم وعدوان، وإن من المقاتلين من يقاتل للعصبية أو للشهرة أو لمجرد الإقدام، وإن الرسول ﷺ وهو الصادق الصدوق سُئل (في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وبقية الخمسة): أي الناس أفضل؟ قال:

«مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قيل: ثم مَن؟ قال: رجل في شِعب من الشعاب (أي معتزل) يتقي الله ويدع الناس من شره».

* * *

وبعد، فيا أيها القائمون على هذا المشروع العظيم لكم الشكر. إني خالفت طريقتي وشكرتكم (وما أشكر في هذه المقالات أحداً)، وقصرت هذه المقالة على ذكر منقبتكم، لأنكم تقومون بعمل عظيم.

أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يُسخّر لكم من يعينكم على إنجازه، وأن يُخرج منه رجالاً مؤمنين مجاهدين بالنفس والمال، يعملون في السلم وفي الحرب لإعلاء كلمة الله ونصرة الخير والعدل، وأن يحيي بهم سيرة السلف، حتى نعود في أنفسنا كما كانوا ليعيد الله لنا ذلك النصر وذلك الظفر، فنكون كما كانوا سادة الأرض وقادتها، ونكون معلّميها ومرشديها، ونكون -كما أراد الله أن نكون- خير أمة أُخرجت للناس؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

* * *

بارك الله في تجار الشّام

نشرت سنة ١٩٥٩

طالما كتبت أذم التجار، لا سيما تجار الحرب منهم الذين كانوا يتربصون بنا الدوائر، فما تبرق في الجو بارقة حرب أو تلوح على الأفق ظلال أزمة دولية حتى يحتكروا علينا الأقوات والأرزاق ويُخفوا البضائع ويغلوا علينا الأسعار. وكنت أرى ذلك أداء لأمانة القلم في عنقي، وأنا أرى اليوم أن من حقوق هذه الأمانة أن أثني على تجار الشام، وأن أذكر ما رأيت منهم من خِلال الخير.

دفعني إلى كتابة هذا الفصل أني لما نشرت (من أسابيع) مقالتي التي قرأتموها في «الأيام» عن تلكم الأم التي تشكو ثقل ما تحمل في سبيل تعليم ولديها، قابلني أحد تجار دمشق فقال لي أن لديه سراً يريد أن يفضي به إليّ ولكنه يحب أن يستوثق أني أكتمه عليه، وألّا أذيع الاسم إن أنا أذعت الخبر ولا أفضي به إلى أحد. فأعطيته على ذلك موثقي، فقال لي: "لقد قرأت مقالك، وأنا أتعهد بالإنفاق على هذين الولدين حتى يحصلا على شهادة البكالوريا[1] بشرط ألّا يسقطا في امتحان من الامتحانات". وقال أنه يضع تحت يدي المال الكافي لذلك، على ألّا تعلم هذه الأم (فضلاً عن غيرها) بأن المال منه.

(١) وهي شهادة الثانوية العامة، كذا يسمّونها في الشام (مجاهد).

وأنا أؤكد القول للقراء أني لما سمعت ذلك نسيت نفسي، فلم أدرِ أأنا أسمع كلاماً من رجل قائم أمامي أم أنا أقرأ قصة من قصص الأجواد الأولين أجسّمها بخيالي. ولبثت شاخصاً لحظاتٍ والرجل يعجب من سكوتي، ثم رُددتُ إلى نفسي فوجدت أني في حقيقة لا خيال، وأن الخير لم ينقطع في أمة محمد ﷺ. وعادت إليّ ثقتي بصحة تلك الأخبار التي كنا نقرؤها فنعجب منها ونشك فيها.

وأنا أدعو هذه الأم على صفحات «الأيام» (لأني لا أعرف لها عنواناً) أن تتصل بي.

* * *

ذكّرني هذا الخير بأشباه له ونظائر من أخبار الكرم والإحسان رأيتها من تجار الشام، سأشير إلى بعضها في هذا الفصل إذاعة للفضل، ودعاية للبذل، وتقديراً للنبل، وفاء بحقهم ورجاء أن يقتدي غيرهم بهم.

شعرت مرة بأن «فلاناً» (وكان -رحمه الله- من وجوه البلد ومن أعيان التجار) في ضيق، ولكنه كان يتجمل ويتستر. فكلمت في ذلك ثلاثة لقيتهم مصادفة، ولوحت لهم ولمّحت، وما أوضحت ولا صرحت، ففهموا وربطوا للرجل راتباً كبيراً يستطيع أن يعيش به كما كان يعيش من قبل. وكنت أحتال في إيصاله إليه من غير أن أُشعره بأنه صلة أو مساعدة، وستره الله بذلك حتى مات، وما عرف هو ولا عرف أهله بمصدر المال، ولولا أن الرجل قد توفي من سنين وأنه ليس في أهله من يقرأ هذا المقال ما أشرت إلى هذا الحادث.

ولما توفي أَبَوا أن يقطعوا هذا المدد وكلفوني أن أضعه في مواضعه، وتكرّم آخرون بمبالغ شهرية دائمة، فاجتمع من ذلك مبلغ نحن نوزعه كل شهر بجدول يتولاه أحد كتّاب المحكمة (تحت إشرافي) على أكثر من عشرين بيتاً، ما فيهم إلّا امرأة مقعدة أو رجل عاجز أو أيتام لا عائل لهم.

ومن مناقب هؤلاء التجار أني سمعت في آخر رمضان الماضي بأسرة كريمة ماجدة أصابها الدهر بإحدى ضرباته فأضاقت، فطار عقلي لما سمعت الخبر، وصلّيت الجمعة في الأموي فوجدت السيد «...» مع جماعة من إخوانه يبدو أنهم ذاهبون إلى موعد أو إلى عمل، فسلمت عليه وأخذته ناحية فقلت له: إن أسرة فلان في ضيق، وقد جاءهم العيد وما عندهم شيء.

فاستأذن من رفاقه وذهب معي إلى السوق، ففتح مخزنه بنفسه ودخل، ففتح الصندوق وقدّم إليّ خمسمئة ليرة، وقال: تكفي؟

فغلبني الدمع فلم أستطع الكلام، وأحلف أن عينيّ تدمعان الآن وأنا أتذكر القصة، وقلت له: أنا لست مستجاب الدعاء، ولكني أسأل الله أن يفتح لك باب الجنة بفتحك باب المخزن في هذا اليوم.

وجاءني من قريب آذن في دائرة من دوائر الحكومة أعرفه أمين اليد، نشيطاً نبيهاً، كريم الأصل، كثير الأهل؛ جاءني يطلب أن أجد له من يقرضه ألفاً وخمسمئة ليرة يشتري بها أرضاً في جوبر يبني عليها غرفتين يأوي إليهما، وهو يوفيها كل شهر ثلاثين ليرة. وكان ذلك عنده أمل العمر وغاية المنى، فكرهت أن أجابهه

بالرفض وأدعوه إلى اليأس، ولكني كنت أعلم أن ذلك أبعد من نجم السماء. ومن يقرض ألفاً وخمسمئة ليرة ثم ينتظر في وفائها خمسين شهراً؟ وذكرت ذلك لصديق لي فدلني على «فلان»، فعرضت عليه الأمر فسهّله وهوّنه، وغاب قليلاً وجائني بخمسمئة ليرة منه، ومئتين من واحد من إخوانه ومئتين وخمسين ليرة من آخر وستمئة من ثالث، فاجتمع له ألف وأربعمئة وخمسون ليرة في يومين، هبة وعطية لا قرضاً مسترداً.

وما اضطررت إلى شيء لقاصد يقصدني أو محتاج يتعرض لي إلّا طلبته من المحسن الكبير الحاج «...»، وهو أعجوبة العجائب في البذل، وهناك محسن آخر فعل ما لم يفعله أحد حين تبرع بخمسين ألف ليرة لأسبوع التسلح واشترط ألّا يُذاع اسمه، أما الشركة الخماسية فأنا أشهد أن الذي توزّعه تضيق به موازنة وزارة من وزارات الدولة.

* * *

هذا والذي نسيته أكثر من الذي ذكرته، وما قصدتُ تاجراً في عمل خيري وردّني خائباً. وإني لا آخذ -بحمد الله- شيئاً لي، فقد أغناني الله بفضله، وما يَرِد عليّ من راتبي وأجور أحاديثي ومقالاتي يزيد عن مطالبي وحاجاتي، ولكن آخذ للناس.

وأنا أسأل الله أن يبارك في تجار دمشق، وأن يجزي محسنيهم خيراً، وأن يعوّض الله على كل واحد منهم القرش ينفقه في الخير ألفاً.

* * *

التفكير بالموت

أذيعت سنة ١٩٦٩

كنت في الحرم، فسمعت من يناديني فالتفت، وإذا أنا بشيخ بهي الطلعة أبيض اللحية، ليّن القول باسم الثغر، فقال لي: أنت فلان؟

قلت: نعم.

قال: ابن الشيخ مصطفى؟

قلت: نعم.

قال: كيف صحته؟

فنظرت إليه متعجباً وقلت: إنه توفي إلى رحمة الله من أربع وأربعين سنة.

قال: فعمك الشيخ عبد القادر؟

قلت: توفي من نحو ثلاثين سنة.

قال: فعمك فلان، فابن عمك... وطفق يسأل عن ناس مات أصغرهم من عشر سنين. فسألته من هو، ثم ذكرته قبل أن يخبرني فقلت له: أنت السيد حسن؟

قال: نعم.

وكان إمام الشريف لما دخل دمشق وأسس فيها الحكومة العربية الأولى من خمسين سنة كاملة، وكان قد استأجر برّاني بيت عمي.

وودّعته وأنا أفكّر في هذه الدنيا وغفلتنا عن حقيقتها، وذكرت يوم مات شيخنا الإمام اللغوي عبد القادر المبارك، وكنت أساير في الجنازة أستاذ الشام وشيخ الأدباء محمد كرد علي، وكان الحزن قد بلغ منه على رفيق صباه وابن شيخه، فلما رجعنا ركبنا عربة خيل، وكان ساكناً مطرقاً (رغم أنه كان لا يسكت ولا يُطرِق ولا يُرى إلا متكلماً)، ثم رفع رأسه وقال لي: اسمع يا علي، دعاني أبي يوماً وكان في يده سبحة فقال لي: "هل تذكر أبا فلان؟ إنه توفي". وسحب حبة من السبحة. "وفلان؟ والشيخ فلان؟ والحاج فلان؟"، وكلما ذكر اسماً سحب حبة حتى بلغ ثلثي السبحة (وكانت العادة أن تشتمل على مئة حبة)، ثم قال: "كل هؤلاء ماتوا، فكم تراني أبقى؟".

فخذوا سبحة أو عدّوا على أصابعكم: اذكروا من مات من أصحابكم وأقربائكم، من رفاق شبابكم وأصدقاء حياتكم. تذكّروا بيوت الصبا يوم كنتم صغاراً وكان في الدار (من الدور العربية الكبيرة) عشرة أشخاص أو خمسة عشر شخصاً. أين مَن كان في تلك البيوت؟ أين الجد والعم؟ أين الأب والأم؟ ذهبوا ولم يبقَ إلا أنت وزوجك وأولادك. نشء جديد وأمة جديدة حلت -بالتدريج- محل الأمة القديمة.

تذكّروا كم نودي في الحرم: "الصلاة على الميت الحاضر"، وكم وقفتم مع المصلين. وكم مررتم على المقابر ووقفتم عليها، وكل قبر فيها قد صار قبراً مراراً. هل فكرتم -في هذه الحالات كلها- في الموت؟ هل نتصور أننا سنموت؟

لا والله! نكون في صلاة الجنازة والميت أمامنا، ندعو له وعقولنا في الدنيا: في السوق أو المدرسة أو الربح أو اللهو، والأمل بالبقاء ملء نفوسنا.

لقد أُمرنا بالإكثار من ذكر الموت، ولكننا نفر من ذكره ونَعُدّ من يذكره سمجاً غليظاً (كما يعدّني الآن بعض منكم؛ يقولون: أما وجد موضوعاً يتكلم فيه إلا الموت؟!). وإن نحن ذكرنا الموت قلنا لمن أمامنا: "بعيداً عنك"، وإذا أردنا أن نقول لإنسان: "بماذا توصي بعد موتك؟" قلنا: "إذا قدر الله لا سمح الله" أو "بعد عمر طويل"...

لا سمح الله؟! إن الله يسمح، بل إنه يوجب الموت وقد كتبه على عباده كلهم، ولو كان ينجو منه أحد لمنزلة عند الله وكرامة على الله لنجا منه سيد الخلق، محمد ﷺ.

بعد عمر طويل؟! وما العمر الطويل؟ تعيش ثمانين؟ تعيش مئة؟ إنها تنقضي. بل لو أنت عشت مثلما عاش نوح، ألف سنة أو نحوها، ألف سنة انقضت ومات نوح.

وكل حي يموت. السلحفاة البحرية التي قالوا أنها تعيش أربعمئة سنة تموت، والسنديانة الضخمة، والزيتونة التي تعيش سبعمئة سنة تموت. لا يبقى شيء ولا يخلد، فهل نخلد نحن؟

الخلود لله وحده.

فاذكروا الموت واستعدوا له، فما من الموت بد.

المؤجر الذي يزيد الأجور كل سنة ويأخذ المئات من المستأجرين ليضمّها إلى ما عنده من الملايين، ليتذكر أنه سيموت. والذي يتكالب على الدنيا ويجمع المال من حل ومن حرام، سيموت. والذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويضيقون على أنفسهم وأهليهم سيموتون ويتركون ما جمعوه وخزّنوه. والذي يهمل حق ربه ويبتعد عن دينه وتشغله الدنيا وحدها يموت. والمرأة التي تؤثر (الموضات) وكشف العورات على الأحاديث والآيات تموت.

فلا تسخطوا عليّ إذا حدثتكم عن الموت، فإن الموت الذي تفرّون منه ملاقيكم، أفليس خيراً لنا أن يلاقينا على استعداد له من أن يأخذنا على حين غفلة؟ إنها سفرة لا بد منها فلماذا لا نتهيأ لها، فنعدّ الحقائب ونلبس ثياب السفر؟

نسأل الله أن يحسن خاتمتنا، وأن يجعلها على الإيمان.

اللهم فاطر السماوات والأرض، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

* * *

من غرائب
قصص الحياة والموت

نشرت سنة ١٩٨٧

قرأت اليوم (الخميس السابع من ربيع الأول ١٤٠٨هـ) في جريدة «البلاد» خبر الطفل الذي سقط من الطبقة الرابعة على بلاط الشارع ولم يصب بأذى. وكان معي طائفة من الإخوان، فذهبوا يعلقون على هذا الخبر وهم بين مكذب له ومتعجّب منه، فقلت: لا تكذّبوا ولا تتعجبوا، فلقد قالت العرب: «من يعِش يَرَه[١]»، وأنا قد عشت ورأيت، رأيت الكثير من أمثاله.

لما كنت مقيماً في مصر سنة ١٩٤٧ (١٣٦٦هـ) وكان الأستاذ الزيات رحمه الله مريضاً (أو متمارضاً) وشرفني فوكل إليّ الإشراف على تحرير «الرسالة» وقعت لصديقه وصديقنا، الأستاذ حبيب الزحلاوي، واقعة مثلها: سقطت بنته من الطبقة السادسة إلى الشارع، وقامت على رجليها سليمةً ما أصابها أذى. وكنت أذيع أحاديث من يافا في فلسطين (رد الله علينا فلسطين) من إذاعة الشرق الأدنى التي أنشئت فيها بعد إذاعة مصر بسنة واحدة، وكنت

(١) هذه الهاء تُسمّى عند العرب هاء السكت لئلا يوقَف على متحرك.

أكتب أحاديثي وأعدها، لا ألقيها ارتجالاً كما أصنع الآن (وليتني استمررت على ما كنت عليه، فقد بقي الذي كتبته وضاع كل ما ارتجلته) فجعلت أحد أحاديثي عن هذه الواقعة[١].

وهذا الحديث نُشر في الرسالة. ولعل في هذه الأخبار ما يُظَن بادي الرأي (أي من النظرة الأولى) مخالفاً لسنن الله وقوانينه التي وضعها لهذا العالم يوم خلق السماوات والأرض. ولا يمكن لأحد أن يبدّل سنة الله في خلقه، ولا أن يحولها، ولا أن يخرج عليها. وما نراه -أحياناً- أو نسمعه من أمور يبدو أنها تخرق هذه السنن وتخرج على هذه القوانين إنما يتبع قانوناً آخر من قوانين الله، هو قانون خرق العادات: قانون المعجزات والكرامات والاستدراجات.

الله خلق النار وقال لها: «كوني محرقة». هذا هو «القانون العام»، ولكن الله القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عمّا يفعل وضع قانوناً خاصاً لشخص من الأشخاص في وقت من الأوقات لحادث من الأحداث، فقال: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرۡدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

وقانون الهوية (أي الذي هو هو) من قوانين الله في هذا الوجود، فالعصا إن حملتها أو ألقيتها على الأرض أو علقتها على الجدار تبقى عصا، هذا هو القانون العام، ولكن عصا موسى لما ألقاها انقلبت حية تسعى، وهذا هو القانون الخاص.

والذي يموت لا يرجع في الدنيا إلى الحياة، ولكن الله قال على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾. فنحن

---

(١) وهو حديث «حكمة القدر» المنشور في كتاب «صور وخواطر» (مجاهد).

نؤمن بخوارق العادات إن ثبت وقوعها وصحّ الخبر بها، فإن كانت من نبي كانت معجزة، وإن كانت من وليّ (وهو المؤمن التقي) كانت كرامة، وربما سميناها عناية من الله خصه بها، وإن وقعت على يد غير المؤمن أو غير التقي كانت استدراجاً. فإن لم نتحقق من وقوعها كانت خبراً من الأخبار، والخبر ما يحتمل الصدق والكذب، فإن صدقته ولم يكن في الشرع ما يمنع تصديقه لم يكن عليك شيء، وإن كذّبته ورددته لم يكن عليك شيء.

ولقد كنت أقلّب -لما أخذت الجريدة- أجزاء قديمة من مجلة «المختار» (المختار من ريدرز دايجست، يوم كانت دقيقة الترجمة صحيحة الأسلوب سالمة من اللحن) فوجدت فيها خبراً أعجب من سقوط الصبي من الدور الرابع، بل ومن سقوط ابنة الزحلاوي من الدور السادس، هو خبر طيارة كانت تقل اثني عشر شخصاً، كانت تطير فوق جبال الألب من ميونيخ إلى مرسيليا، وكان من ركابها السيدة التي روت القصة، وابنها هو قائد الطيارة.

وكان الركاب مسترخين في مقاعدهم، في يد كل واحد منهم كتاب يقرؤه على عادتهم في أسفارهم، فلا يضيعون وقت السفر بغير قراءة وانتفاع، وقد مال ميزان النهار واقترب العصر، فاهتزت الطيارة هزة عنيفة مفاجئة، وقال الطيار من المكبر: "اربطوا الأحزمة؛ إننا نواجه بعض المتاعب". وما كاد يتم جملته حتى ارتفعت الطيارة إلى أعلى كأنها صاروخ منطلق، ثم حطت كما تحط الصخرة العظيمة انحدرت من ذروة الجبل.

تقول راوية القصة: شعرت كأن قلبي يهبط، ومعدتي تضطرب،

وأنفاسي تتقطع. وزاد من خوفي أنني أرى المقاعد قد انفكت عن أمكنتها وانطلقت تعدو من أول الطيارة إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها، ثم شعرت أن وجهي يصطدم بظهر المقعد الذي كان أمامي. واهتزت الطيارة هزة أخرى، فمالت على جنبها وانحصرنا كلنا في زاويتها. وأمضينا ليلة لا نهاية لها، نقاسي فيها البرد والظلام والخوف من المستقبل المجهول، والريح كلما هبت هزت الطيارة فحركتها، فتحركنا معها، حتى أصبح النهار وسكنت الريح، ففتحنا الباب وخرجنا، فوجدنا شيئاً عجباً لا يكاد يُصدَّق؛ وجدنا الطيارة ترقد على جنبها على رف الجبل وتحتها وادٍ عميق وعلى يمينها وادٍ مثله، وما هناك إلّا الساحة التي ترقد عليها فقط. فكأن يد القدرة هي التي حملتها ووضعتها في هذا المكان.

كيف يسقط اثنا عشر شخصاً من علوّ أحد عشر ألف قدم ولم يمت منهم أحد؟ كيف استقرت الطيارة على هذه البقعة الصغيرة، ولم تهوِ في وادٍ من هذه الأودية التي لا يدرك البصر قرارها؟ كيف وقفت على هذا المنحدر الثلجي المائل ولم تسقط؟ لقد أقبلوا جميعاً على قائدها يهنئونه بهذه البراعة النادرة، فدُهش حقيقة وقال: أي براعة؟ هل تسخرون مني؟ إني لما أفلت زمام الطيارة من يدي لم أعد أستطيع أن أعمل شيئاً، وعرفت ذلك وأيقنت به، فذكرت كلمة سمعتها وأنا صغير من أحد المدرسين وحفظتها. قال لنا: "إن مصائب الحياة -يا أولاد- كثيرة، وسيمر بكم بعضها فلا تستطيعون احتماله، فإذا واجهتكم واحدة منها فلا تقفوا أمامها وحدكم، بل اطلبوا من الله أن يكون فيها معكم".

* * *

كان مما تعلمناه من الدعاء: «اللهم إني لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه»، فمَن أدركه لطف الله فقد نجا:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها   نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنّ أمانُ

ولقد وقعت لي أنا واقعة مر عليها الآن أكثر من ثلث قرن ولا أزال أذكرها؛ أراها واضحة أمامي كأنما كانت بالأمس.

كنا نصطاف في قرية من قرى الجبل يقال لها «مضايا»، تبعد عن دمشق خمسين كيلاً، وكنا قد استأجرنا داراً في الجبل، وكانت بنتي تلعب على السطح، ولم يكن للسطح حواجز، فسقطت عن علو سبعة أمتار على الصخر اليابس وانقطع صوتها. وهبطت السلم وأنا لا أبصر ما أمامي حتى وصلت إليها فحملتها، ولست أدري أأحمل جثة ميتة أم أحمل معها الرجاء بحياتها وشفائها؟ وأخذتها إلى مستوصف القرية، وكان فيه طبيب أعرفه، فطمأنني أنها لا تزال على قيد الحياة ولكنها تحتاج إلى عمليات عاجلة. فركبت أول سيارة وجدتها ونزلت إلى دمشق، إلى مستشفى كلية الطب، وكان فيه جراح اسمه الدكتور اللبابيدي (ذهب إلى رحمة الله) فأجرى لها عمليات وفقه الله فيها وجعل على يديه شفاءها.

وقد أدركت في الشام عدداً من المفتين العلماء الأجلّاء، كان منهم الشيخ محمد شكري الأسطواني (وآل الأسطواني أسرة نبغ منها علماء كبار، ونسبتها إلى أسطوانة المسجد التي كان جدهم يستند إليها حين يلقي درسه على طلابه). وكان المفتي كبير السن، كثير العلم، رقيق الحاشية، يميل إلى المزاح وإلى النكتة. وكان إذا سُئل عن الولد قال: أنا من الصنف الرابع (يشير إلى قوله تعالى:

﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾). وكان حسن الزي، مرفّه العيش، واسع الغنى. ولم يكن له ولد يرثه، فمرض مرضة شديدة أشرف فيها على الموت حتى أيس منه الأطباء، وكان منهم ابن عم لي من قدامى أطباء الشام، تخرج من كلية الطب في دمشق سنة ١٩٢٠، فخبرني تلك الليلة -وقد سألته عنه بالهاتف- أن الأعمار بيد الله، ولكنه وإخوانه من الأطباء يرجّحون أنه لن يصبح حياً. وقد اجتمع في بيته ورثته من أبناء إخوته ونساؤهم، وبدرت كلمة من إحدى النساء جعلتهن ينسين مرض المريض والموت الذي يحوم حول بيته بجناحيه، واختصمن في توزيع التركة: مَن يأخذ الدار الفخمة في الشارع العظيم الذي فيه القصور وفيه مساكن الأغنياء (شارع أبي رمانة)؟ وكانت منهن واحدة هي أعلاهن صوتاً وأكثرهن حرصاً وأشدهن طمعاً بهذه الدار.

أفتدرون ماذا كانت خاتمة القصة؟ إن في خاتمتها العبرة منها والموعظة من روايتها. كانت خاتمتها أن الشيخ شُفي، وأن هذه الفتاة التي كان يعلو صوتها ماتت، ومشى الشيخ في جنازتها ووقف على قبرها بعد أن صلى هو عليها!

* * *

يا أيها القراء: قلت لكم: مَن يعِشْ يرَهْ. ولقد رأيت في حياتي عجائب لو سردتها عليكم لاستغرق سردها حلقات.

بنتان تسقطان من عمارة عالية ثم تنجوان، والشيخ إبراهيم الراوي سنة ١٩٣٦ في المسجد (مسجد سيد سلطان علي) في بغداد، الذي يبقى فيه أكثر نهاره ويلقي فيه جل دروسه، عثر

بسجادة وُضعت فوق الأخرى، لا تعلو عنها إلا عرض إصبع واحدة، فكان في سقوطه موته رحمه الله.

ورأيت بعيني مرة في دمشق مشهداً لا ينساه من رآه لما كان عندنا خط الترام الذي يصعد إلى حي المهاجرين على سفح قاسيون. كان نازلاً مرة من العفيف إلى الجسر الأبيض[١]، وبينهما منحدر مائل، وقد أفلت مقوده من يد السائق الذي يسوقه، فهبط مثل البلاء النازل. وكان أمامه بين الخطين امرأة مسنة (كأني أراها الآن بملاءتها وحجابها)، لمّا أبصرته جمّد الخوفُ دمَها وأيبس عضلاتها فلم تستطع أن تبارح مكانها. وأغمض الناس عيونهم، وأغمضت عيني معهم لأننا لا نستطيع أن نصنع لها شيئاً. ومن يرد الترام وهو مندفع بثقله وانحدار خطيه؟ فلم نفتح عيوننا حتى سمعنا رجة قوية، وإذا الترام قبل أن يصل إلى هذه المرأة -فيسحقها سحقاً ويخلط عظمها بلحمها- قد خرج عن الخط، ومال ميلة إلى جدار من الطين وراءه غرفتان من دار قديمة، فشق على أهل الدار الجدار ودخل عليهم وهم في الدار.

لا تقولوا أنها مصادفات، فليس في الكون مصادفات، ولكنها أمور مقدرات في علم الله محسوبات، مسجلات في كتاب القدر. والله لا يظلم أحداً ولا يضيع حقاً على أحد، فلم يبق لنا إلا التسليم والعجب: المرأة التي كانت بين خطي الترام ذهبت إلى بيتها ماشية على رجليها، والذين كانوا في بيتهم، قد أغلقوا عليهم أبوابهم، شق عليهم الترام الجدار وولج الدار.

---

(١) أسماء مواضع من دمشق كانت محطات يقف فيها الترام (مجاهد).

وحادثة أخرى وقعت في الشام قبل أن آتي المملكة بسنتين، كتبت أخبارها الصحف وتحقق منها الحكام، وتسامع بها الناس وتحدثوا بها في المجالس، ذلك أن حافلة من الحافلات الكبار التي تسافر على طريق حلب كان فيها أربعون راكباً، حدّث رجل صادق كان يركب جنب السائق أنه وقف بها في غير محطة يقف الناس عندها، ولا بلد يقصدونها، ولا دكان يشترون منها. فسأله: لماذا وقفت؟ فقال السائق: ألا ترى هذا الرجل ذا الشيبة الذي أشار إليّ؟ هل تريد أن أتركه منقطعاً في هذا الطريق في الليل الموحش والظلام الشامل؟ فنظر الراكب فلم يرَ أحداً، ولم تمضِ دقيقة حتى هوى رأس السائق على مقوده وفارق الحياة. وحدّث الرجل الركاب بما سمع، فنزلوا من السيارة يفتّشون عن هذا الشيخ، يمشون يميناً ويمشون شمالاً فلا يجدون أحداً، فعلموا أن السائق قد حان حينه وجاء أجله، وإذا قُبضت روحه فربما هلك الركاب أو مات بعضهم ولم تأت -بعدُ- آجالهم، فبعث الله له هذا الشيخ حتى يستوقفه، فيموت هو بأجله وينجو الركاب ينتظرون آجالهم... ولعل هذا الشيخ كان ملَكاً أمره الله فتمثل للسائق رجلاً.

وحافلة أخرى مثلها، في خبرها فكاهة في آخره فاجعة. وذلك أن بدوياً استوقفها لتحمله معها، فوقف له السائق وقال له: إن المقاعد كلها مشغولة فأين أركبك؟ قال: أصعد إلى ظهر السيارة. قال: إن في ذلك خطراً عليك، وإنه لممنوع. قال: إن سألوني قلت أنّي صعدت من غير أن تراني.

وكان على ظهرها نعش فارغ حمله أحد الركاب إلى قريته لينقل فيه قريباً له مات فيها إلى البلد ليدفن في مقبرتها. ونزل المطر

فلم يرَ البدوي مكاناً يعتصم فيه من المطر إلا النعش، فرفع غطاءه وتمدد فيه وغطّاه، ويبدو أنه قد استرخى فنام.

وجاء بدوي آخر يريد أن يركب، فوقف السائق وقال: اصعد فكن مع أخيك على ظهر السيارة. فصعد فنظر فلم يجد أخاً له ولم يرَ إلا النعش، فاستوحش منه وابتعد عنه. ومشت السيارة، فصحا النائم وأحب أن يرى هل انقطع المطر، فرفع غطاء النعش قليلاً ومد يده، فلما رآه انقطع رفع الغطاء وقام، فحسب البدوي الثاني أن الميت قد وقف، فملأ نفسَه الرعبُ وولى هارباً، فسقط من السيارة وهي تمشي على أم رأسه فما قام، وحملوه ميتاً.

* * *

كنت -في أول عهدي بالإقامة في المملكة- في عمان، وقد عاقدت المملكة عشرات من المدرسين ليعلّموا في مدارسها وأعدت لهم طيارات إضافية تنقلهم، وقالت لهم: استكملوا أوراقكم، وأعدوا حقائبكم، وكونوا متهيئين، فإذا دعوناكم جئتم إلى المطار. فمن أكمل استعداده لم يكن عليه إلا أن يركب السيارة فتوصله إلى المطار، ومن قال لهم: انتظروني حتى أستخرج جواز السفر وأودع الأهل وأعد المتاع لم ينتظروه، بل ألغوا عقده وخلوه. وكذلك الموت، ولكن الموت يأخذه على أي حال، لا يدعه أبداً، لذلك يستعيذ المؤمن من موت الفجأة ويرى أن من علائم حسن الخاتمة أن يأتيه الموت وهو مستعد للقاء ربه قد استغفر من ذنبه.

كان لأبي صديق هو أقرب أصدقائه إليه، هو الشيخ موسى

الطويل، الذي كان يوماً من كبار تجار دمشق ومن مقدمي محسنيها، وفقه الله في حل المشكلات وأعانه على عمل الخير. زرته يوماً، وكان في مرض الموت، فوجدته صاحياً واعياً، فسألته عن حاله فقال: الحمد لله. إنني أنتظر لقاء ربي، قد أديت كل حق عليّ إلّا حق الله الذي أرجو من كرمه ومن إحسانه أن يغفر لي ما قصرت منه. وذكرنا رجلاً كان من إخوانه وإخوان أبي، وكان من علماء التجار وأفاضلهم ووجوه أهل الشام وأكارمهم، هو السيد شريف النص، فلما جرى ذكره قال: كان رحمه الله... وسكت سكتة، وألقى برأسه قليلاً إلى الوراء. ولم يتبدل شيء فيه إلّا أسنانه الصناعية العليا قد هبطت قليلاً، وأسلم الروح.

رحمة الله عليه وعلى أموات المسلمين، اللهم تب علينا واغفر لنا، وألحقنا بعبادك الصالحين.

* * *

التائب

نشرت سنة ١٩٥٥

لا أحب أن أسمّيه ولا أن أدل عليه، وما أقول في وصفه إلّا أني كنت أعرفه من قديم وكان من أهل الديانة والصيانة والتعفف، والبعد من كل ما يريب، حتى إنه لا يقعد في قهوة، ولا يَلِجُ سينما، ولا يمكّن نظره من فتاة في الطريق، ولا صورة في المجلة، بل إنه كان ينكر علينا شراء هذه المجلات ويرى تأبط الصورة العاريةكعناق صاحبة الصورة. وتزوج مبكراً فكان لزوجته ولبيته، ليس لغير البيت والعمل نصيب من وقته، ولا لغير امرأته حظ من نظره أو قلبه.

ثم حالت به الحال، وتبدّل بين عشية وضحاها شخصاً آخر، فطلّق التقى، ونبذ الحياء، وخلع العذار، وغدا -فجأةً- فاسقاً من أجرأ الفسّاق، لا تفلت منه امرأة ولا تنجو من حبائله فتاة. وسخّر لذلك ماله وعقله، فانصرف عنه من كان يألفه من أصحابه الأولين (وأنا منهم).

واستمر على ذلك سنوات، ثم عاد سيرته الأولى، كأنه كان في غشية وصحا منها. ولقيته من أيام فرأيته قد أودى بشبابه ما كان عليه وهدّه هدّاً، وحمل إليه الضعفَ والهرمَ قبل سنّ الهرم، فكأن كل يوم من أيام الفسوق كان شهراً، وكأن السنة كانت عليه دهراً.

ومهّدت له حتى حدثني حديثه، فقال:

كنت في شبابي عارم الشهوة طاغي الغريزة؛ ألتهبُ التهاباً كلما قرأت قصة غرام، أو سمعت حديث واحدٍ من هؤلاء الفجّار الذين يفخرون بسرد أخبار الفسوق، ويتزيّدون فيها ويضيفون إليها من خيالهم ما يجعل مثلي -عندما يسمعها- يتصورها على الصورة التي يرسمونها (كذباً) لها، فيشعر بأن أعصابه تشتد كوتر العود حتى لتكاد تتمزق، ويحسب أن الناس كلهم يستمتعون بهذه الملاذ وهو وحده المحروم منها، المتشوق إليها، فيحسّ في قلبه لذع الحرمان.

ولو أني كنت أنفّس عن نفسي بقصة عفيفة أقرؤها، أو أصرفها عن هذه الأخْيِلَة بعمل أقبل عليه وأتفرغ له، أو أسمو بهذه الغريزة إلى قصيدة أنظمها أو لوحة أرسمها... لهان عليّ ما ألقى. ولكني كنت امرأً مكفيّ المؤونة، خالي الرأس من الفكرة واليد من العمل والوقت من الشواغل، فاجتمع عليّ الشباب والفراغ والجِدَة، والعياذ بالله من هذه الثلاثة إذا اجتمعت.

وأحسن أبي إليّ فزوجني وأنا في الثامنة عشرة، ولكنه لم يتم إحسانه، فلم يحسب لي حساباً، ولم يقدّر أن لي في الأمر رأياً، ولم يسألني عن البنت التي اختارها لي: أأرضى بها أم أرغب في سواها؟ ولم يتأدب بأدب الرسول فيجعلني أراها قبل زواجي بها. كذلك تزوجت، ومن أجل ذلك لم أفرح بهذا الزواج ولم أحب تلك المرأة. ولكني صبرت عليها، ورُضْتُ نفسي على محبتها والسكون إليها، وتعاقب عليّ الأولاد منها، حتى صرت أبا ستة: بنين وبنات.

وكنت أحسّ أن الغريزة قد انكسرت في نفسي شِرّتُها[1] وخمدت جمرتها، وأجدني أقنع بهذه المرأة التي اتصلت حبالي بحبالها وألّفَ العقد والزمان والألفة والأولاد بيني وبينها، لولا ما كان يلقيه إخوان السوء في أذني (فيستقر في ذهني) من أن ذلك من العجز والحرمان، وأن لكل امرأة طعماً، ولكل جديد لذة.

وتوالى ذلك عليّ، حتى قوِيَ ما كان ضعُفَ من غريزتي، واتّقدَ ما كان خمد، وغدوت أحسُّ الجوع الجنسي، ويخيّل إليَّ منطقُ الغريزة أن الذين ينطلقون وراء شهواتهم ويعرفون ألوان النساء يعيشون -من اللذة- في جنة الأحلام، وأني أعيش في جحيم الحرمان، فأقول لنفسي: "ويحك يا نفس، ما ضعفك وما عجزك؟ كيف أعجز عن واحدة من هذه الآلاف المؤلفة اللاتي تزخر بهن الطرقات والمتنزهات وأبواب السينمات؟

ولكني كنت -برغم ذلك كله- آوي إلى بيتي فأجمع عليّ أهلي وأولادي، فأنسى هذه الخواطر أو أتناساها، وأحسُّ الراحة أو أحاول أن أقنع نفسي بأني أحسُّها. ومهما رأى المرء من المناظر المغرية، أو قرأ من القصص، أو رأى من الأفلام، لا يؤدي به ذلك كله إلى المعصية ما لم يجد الرفيق الذي يدلّه على طريق المعصية.

... ووجدت يوماً هذا الرفيق.

وجدته وكان صديقاً لي قديماً، رفيقاً من رفقاء المدرسة، ولكني انقطعت عنه وانقطع عني، ولم أعد أعرف من أمره إلّا أنه صار صاحب مصنع صغير تعمل فيه طائفة من البنات. وما أدري

(١) الشِّرّة: الحدة، يقال: أعوذ بالله من شِرّة الغضب (مجاهد).

ما الذي جعلني أزيح له ستري وأكشف له أمري، وما فعلت إلّا لألقي عن صدري ثقل هذا السرّ، لم أبتغِ من إذاعته أكثر من ذلك.

وإذا به يقول لي: هذه مسألة سهلة، وأنا أخدمك إكراماً لرفقة الصغر، فقل لي أي النساء تؤثر: الشقراء أم السمراء، والسمينة أم الهزيلة؟

ومضى يعدد ألوانهن وأشكالهن كأنه يعدد أصناف بضاعة يعرضها على مشتريها. وأنا أحلف بالله لا أصف لك إلّا بعض الواقع، فتصور ماذا يفعل هذا الكلام في نفس من تحزّ في نفسه حسرة الحرمان، ومن يشتهي رغيفاً واحداً فيُعرض عليه مطعم كامل؟

لقد صرخت الشهوة في كل عصب من أعصابي، وانبعث في نفسي صوت العقل ولكنه كان صوتاً خافتاً لا يكاد يُسمع في هذا الصراخ، ووددت لو زجرت هذا الرجل وثرت عليه ونفضت يدي من مودته الدنسة، ولكني لم أستطع. وأحببت أن أتخلص من تهمة الجمود وأن أذوق -مرة واحدة- هذه اللذة التي أسمع الكلام عنها كل يوم، وحاولت أن أبدو له خبيراً بهذه الأمور وأن الذي عرضه عليّ لم يدهشني ولم يتعاظمني. وفتّشت عن صوتي برهة حتى استطعت أن أجده، ووصفت له ما أريد، فقال: شرِّفْ بعد ساعتين، حين ينصرف العمال ويخلو المكان، تجد ما تريد.

وذهبت وأنا لا أستطيع المسير، وصرت كلما نظرت إلى امرأة أقول: "لعلها هي التي أُعِدّت لي"، وأتخيل لها في ذهني مئات من الصور، وأتصور المشهد الذي سأراه بعد ساعتين. وقد ارتفع صوت العقل، فصرت أسمعه ولكني أُعرِض عنه وأصغي

إلى صراخ الأعصاب، ووجدتني بينهما كمن هو بين حجرَي الرحى، فتكسّر جسمي واشتد خفقان قلبي، واضطربت الدماء في عروقي، وفقدت قوتي حتى صرت أحسُّ أن ضغط دمي قد هبط إلى الثمانية ولم تعد لي طاقة على الوقوف! وأخذت كتاباً أحاول أن أقرأ فيه فما استطعت أن أثبت منه كلمة أو أفهم معنى. وعزفت نفسي عن الطعام فما عدت أشتهي في الدنيا طعاماً، وصرت أعد الدقائق وأحسّ -من طولها- كأن الفلك يدور وهو على عاتقي!

وحلَّ الموعد، وذهبتُ إليه، فلم أجد في المصنع إلّا بنتاً صبية جبلية، مورّدة الخدين تتفجر شباباً وأنوثة، قد لبست ثوباً قصيراً يكشف عن ساقيها، فضحك لما دخلتُ وقال لها: "خذي هذا الزبون"!

فأبدت هيئة المستحيية وهي تضحك وتكركر وتقول: "يُهْ، عيب!"، وأنا أحسّ بالتوتر في كل عضلة في جسمي.

لا، لا أحب أن أحدثك بالذي كان، فأنا لا أريد أن أكون شيطاناً ينبّه الشهوات في نفوس القراء باسم الأدب والقصة والفن، إنما أريد أن أضرب من نفسي مثلاً على الغواية: ماذا تصنع بأهلها، لعلّ الله يعصم بها مسلماً من أن يضل ويغوى.

... ولم يكتفِ بصبايا المعمل، بل صار يعرّفني في كل يوم بواحدة جديدة، من بنات الأسر ومن شريفات القوم، ممن أعمت أهلهنّ «موضة» السفور والاختلاط والتقدمية والأخذ بمساوئ الحضارة الغربية (ويا ليت أنّا إذ أخذنا شرها أخذنا معه الخير، وإذ نقلنا إلى أجسادنا الداء أخذنا معه اللقاح). فوجدت نساءً كنت

أظنهن أمنع من النجم، فإذا هنّ أسهل من الهواء، ونساءً كنت أحسبهن أسمى من السحاب فإذا هنّ أدنى من التراب، ونساءً لو جاء الخاطب الديّن المستقيم لأعرض عنه آباؤهن ولووا شفاههم كبراً عنه وزهادة فيه، يرتمين في حضن كل فاسق فاجر! ووجدت بنات يضعهن أهلوهن صباحاً في طريق المدرسة، فيمشين إلى خلوات الغرام، لا يطلبن مالاً ولا يبغين الفجور حباً بالفجور، ولكنها المغريات من الأفلام والمجلات قد أثارت في نفوسهن من ضرم الشهوة مثل الذي أثارت في نفوس الشباب.

وكان منهن مَن أنالها من أول يوم ثم ألقيها كما تلقى برتقالة مصصت ماءها، فلا ألبث أن أنسى صورة وجهها ورنّة صوتها وأغدو إن لقيتُها لا أعرفها، وأنا قد سلبتها أعز ما تملك: عفافها! ومنهن من تطاولني فأطاولها وأرخي لها المدى؛ أبدؤها بالتحية العابرة والكلمة العارضة، فيجرّ السلام كلاماً، ويتبع الكلامَ لقاء، وبعد اللقاء الهدية اللطيفة أو الخدمة الخفيفة، أو الدعوة إلى نزهة في السيارة أو عشاء في الملهى. ومنهن من أعجز عن الوصول إليها، ولكني أكون قد مهدت الطريق لغيري، فيأتي فيسلكه من أول يوم.

ولقد علمت الآن أن الذين يحذّرون من الاختلاط يقولون حقاً، ولو كنت أجوّز لنفسي أن أسرد عليك ما وجدت في عيادات الأطباء، وفي مكاتب المحامين، وفي مخازن التجار، وفي المستشفيات حيث تكون الممرضات، وفي المصانع حيث تكون العاملات، وما يُتوسل به من الوسائل إلى بلوغ تلك الغاية، من الخلوة للدرس الخصوصي، أو لبحث الدعوى، أو للفحص

الطبي، أو الاختلاط باسم الفن والرياضة والدراسة الجامعية، إلى هذه اللوحات الفاجرة التي تلقاها في كل مكان في دمشق «يلزمنا آنسات للخياطة» تبقى معلقةً على المخازن السنة والسنين... لو كنت أجوّز لنفسي أن أسرد عليك ما رأيته رأي العين لدارت بك الأرض من هول ما وصلت إليه الحال في هذا البلد!

* * *

عرفت عشرات (أؤكد لك) وعشرات، ولكني كلما ازددت معرفة بهن ازددت شوقاً إليهن، كمن يشرب من ماء البحر ليدفع عطشه فلا يزداد إلّا عطشاً! والجائعُ الذي يريد أن يملأ معدته ويدفع جوعته يكفيه ما وجد من طعام، يأكله فيشبع ويحمد الله، أما من يقف في واجهات المطاعم ويتشهّى تشهّياً فلا يُشبِعه شيء.

اطلعت على كل صورة، وذقت كل طعم ، وسلكت كل سبيل، ولا أزال -بعد ذلك- أرى الواحدة تطلع عليّ من الطريق، أو تبدو لي من الشباك، أو تنظر إليّ في الترام، فأشتهيها وأتحرق شوقاً إليها كأني ما عرفت واحدة قط! ووجدت جوعي يزداد كلما ازددت إقبالاً على هذه اللقمة المحرمة.

أغريت عشرات وعشرات ووعدتهن بالزواج ثم نسيت وجوههن ولم أعد أفكر فيهن أو أعرف ماذا يجري عليهن، حتى إذا عجز الجسد عن مطالب النفس، وضاع شبابي في غمرة هذا الإثم، صحوت.

صحوت، فقلت لنفسي: إلى متى ويحك؟ وهبيني وجدت المال والنساء، فمن أين أجد الجسم الذي يعطي كل يوم من قوّته

وحياته ولا تنفد قوّته ولا حياته؟ ثم إني أبو بنات، فمَن ينجّي بناتي من العدوان وأنا أعدو على بنات الناس؟

وهذه الحياة التي كنت أشكو الحرمان من نعيمها... لقد جربتها، فأين منها النعيم؟ وما فرق هؤلاء النساء عن الزوجة؟ إلّا أن هذه سرقة فيها متعة الجِدّة والقدرة وتلك مال حلال!

* * *

ورجعت إلى بيتي، فوجدت فيه من السعادة ما لم أجده في تلك البيوت كلها. وجعلتُ من أمارات[١] التوبة أن أهجر كل صديق أو رفيق يحدّث حديث الفسوق أو يدلّ على طريقه. ولو رأى الشاب ألف منظر مثير، ولو شاهد مئة فِلم مكشوف أو قرأ مئة قصة خليعة، لما نالت منه كلها (على شرها وضررها) ما تنال منه كلمة من رفيق داعر لا يتحرج أن يعمل من نفسه -باسم الصداقة والتقدمية- قَوّاداً!

هذه قصتي يا أستاذ. آثرت المصلحة وغلّبت الحياء فما قصصت عليك إلّا مواطن العبرة منها، ولو أني أردت الفنّ والأدب ووصفت كل ما كان لضاق بنشرها رسل إبليس. فهل تتسع لذلك صفحات مقالتك؟

* * *

(١) الأمارات جمع «أمارة» بالفتح، وهي العلامة (ومن معانيها: الموعد والوقت)، أما «الإمارة» بالكسر فهي منصب الأمير أو الأرض التي يحكمها الأمير (مجاهد).

موعظة

نشرت سنة ١٩٦١

تعوّدَ الناسُ أن يأخذوا الجريدة ليقرؤوا فيها ما يسليهم ويمتعهم، ويضيع عليهم ساعة من وقتهم ينسون فيه مشكلاتهم ويبتعدون فيه عما حولهم؛ ما تعودوا أن يأخذوها ليقرؤوا فيها المواعظ.

وحديث المواعظ ثقيل على النفس، وصاحبه بغيض إلى الناس، ولكني -مع ذلك كله- أغامر فأجعل موضوع مقالي اليوم موعظة، من هذه المواعظ التي سمعها الناس مني في رمضان.

وقد صرت أحاول أن أكتب لله ولما ينفع الناس، لم أعد أبالي بالأدب وأهله، ولم يعد يهمني رضاهم ولا سخطهم. على أنه لا الرضا منهم ينفعني ولا السخط يضرني، ما ينفعني إلّا رضا ربي وما يضرني إلّا سخطه. اللهم إني أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك ومن عقابك.

وبعد، فيا أيها الإخوان:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ وصار مثل من يريد الحفاظ على دينه وعلى خلقه وعلى سلائقه العربية

وعلى آدابه الإسلامية، مثل الرجل الصحيح بين المجذومين، من حيث مشى ومن حيث وضع يده وجد جراثيم المرض وأسباب العدوى، فماذا يصنع ليتّقي المرض ويستبقي الصحة؟

إنه يبتعد عن أسباب العدوى ويسد على الجراثيم طرق الدخول إلى دمه ويأخذ الأدوية الواقية والمقوية، فلنصنع مثله: نبتعد عن أهل الفسوق والعصيان، لا نصاحبهم ولا نعاشرهم إلّا للضرورة وبمقدار الضرورة، فإن الصاحب ساحب، والمريض الواحد يُمرِض آلافاً من الأصحاء إن هو داخلهم وقاربهم والألف من الأصحاء لا يشفون -إن لامسوه- مريضاً واحداً، وبرتقالة واحدة فاسدة تفسد صندوقاً سليماً والصندوق من البرتقال السليم لا يُصلِح واحدة فاسدة.

فلينظر الأب أولاً في أصحابه: فإن وجد فيهم من لا يصلي أو مَن يجهر بالمعصية أو مَن يتبع غير سبيل الإسلام فليهجره، وإن اضطر إلى الاقتراب منه (كأن يكون زميله في العمل) فلتكن صلته به بمقدار الضرورة ولا يجاوز بها الحد الذي توجبه زمالة العمل.

ثم لينظر في صاحبات زوجته: فإن كان فيهن سافرة متكشفة، أو تاركة صلاة، أو مسرفة مبذرة، أو سيئة خلق، أو مَن هي مغتابة نمّامة كذّابة، فليعمل على إقناع زوجته بالابتعاد عنها وتركها.

ثم لينظر في المدرسة التي وضع فيها ولده: فإن كان في برامجها ما يخالف الإسلام، أو كان في كتبها التي تدرّس ما يخالف الإسلام، أو كان في مدرّسيها مَن لا يتبع في سيره وفي سلوكه طريق الإسلام، فليُخرجه منها وليختر له غيرها، فإن الأب

راعٍ ورعيّته ولده، وقد خبّر رسول الله ﷺ أن كل راعٍ مسؤول عن رعيّته. أفلا يُسأَل الراعي في الجبل إن أورد غنمه المهالك؟ ثم لينظر فيمن يصاحب ولده من الرفاق، فإن كان فيهم من هو سيء السيرة، مرتاد السينمات، مجانب للصلاح، فليأمره بهجره.

وعلى الأب -بعد ذلك- أن يكون مع أهله دائماً؛ لا يتركهم إلى القهوات والسهرات، ولا للتجارة ولا للعلم، فإنه إن تركهم فقد عرّضهم للفساد، فلا يلُمْهم بعد ذلك ولكن ليلُمْ نفسه. وعليه أن يتعهد ولده بالنصائح والدروس، وأن يقرأ لهم من كتب الدين ما يعلمهم أحكام دينهم، ويلقنهم خوف الله. فإن المدرسة الأولى هي الدار، فإذا كانت الدار سيئة وأنشأت الولد على السوء لم تصلحه المدرسة.

وليكن الأب واعظاً بعمله لا بقوله، فلا يقول لأولاده صلّوا وهو نفسه لا يصلي، ولا يقول لهم صوموا وهو لا يصوم، ولا ينهاهم عن الغيبة وهو يغتاب، ولا عن الكذب وهو يكذب، ولا يقول لهم صاحبوا الأخيار وهو يصاحب الأشرار. ولا يأمرهم بحسن الخلق وهم يرونه دائماً سيء الخلق، يظلم زوجته ويقسو عليها ويعاملها معاملة الخادم، مع أن الله أمره برعايتها، والرسول ﷺ قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي». لا، لا يكون جباراً عليها يكلمها كأنه إمبراطور ألمانيا، ولا يكون كذلك رخواً معها أو قطاً بين يديها، يلقي حبلها على غاربها ويتركها تفعل ما تشاء لا يملك معها أمراً ولا نهياً، لا هذا ولا ذاك، لا شدةَ فيها عنف يظلم بها المرأة ويتجاوز بها على حقها، ولا لينَ فيه ضعف يُذهب به سلطانه ويُضيع معه رجولته.

وعلى الأم إذا نصحت بنتها أن تصدق قولها بفعلها، فالبنت تقتدي بأمها، ومن أراد أن يخطب بنتاً فليسأل عن حال أمها في سيرتها وحالها مع أبيها.

وكلما قللت المرأة من الزيارات والاستقبالات كان ذلك أدعى إلى سعادتها في بيتها وإلى نجاتها في آخرتها، فإن صحبة الناس لا تأتي بخير، فيها النفقات الكثيرة لأن المرأة تضطر أن تلبس من الثياب ما تلبسه صاحباتها وقد يكون زوجها عاجزاً عن شراء مثلها، وترى مَن هي أغنى منها فتحاول أن تعمل مثلها وتفرش بيتها مثل فرشها فتكلف بذلك زوجها ما لا يطيق أو يجر الخلاف بينه وبينها. وقد يكون في رفيقاتها من تؤثر الموضة على الدين ورضا الشيطان على رضا الرحمان فتقلدها، وقد يهدين إليها الهدية لا تحتاج إليها (في يوم ولادتها أو زواج ابنتها) فتضطر أن ترهق زوجها بإهداء مثلها، فلا يأتي من هذه الزيارات والاستقبالات إلّا الشر والضرر.

فإذا أرادت الأم أن تصلح بنتها فلتصلح أولاً نفسها، ولتطع الله في لباسها، فلا تلبس ما لا يرتضيه الشرع ولو جاءت الموضة واتفق عليه الناس، ولا تقل: "نحن مع الناس"، فإن الرسول ﷺ ذم من يكون إمّعة، أي تابعاً للناس لا رأي له، يقول: "إن أحسن الناس أحسنت وإن أساء الناس أسأت". والله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. فالكثرة ليست على خير دائماً، بل الأخيار هم الأقلة دائماً. وهذه قاعدة عامة في الدين وفي الدنيا.

يكون في البلد مليون شخص، ولا يكون فيهم إلّا مئة عالم، ومئة أديب، ومئة عبقري، فالممتازون أقلة دائماً، والعاقل لا يمشي مع التيار حيث مشى به فقد يحمله التيار إلى الشلال المنحدر الذي يكون به هلاكه، بل العاقل مَن يبغي الشاطئ الأمين.

والعاقل لا يقول أنا مع الناس، لأن الناس ليسوا دائماً على حق، ولو أن الناس خرجوا تباعاً إلى آخر خط المهاجرين فمشوا قدماً حتى وصلوا إلى «المنشار»[1] فرموا بأنفسهم من فوق الصخرة إلى الوادي، فهل تفعل مثل ما فعلوا وأنت ترى الموت أمامك؟

تقولون: "هذا كلام فارغ، فإن الناس لا يرمون بأنفسهم إلى الوادي، ولو جنّوا فرموا بأنفسهم فإني لا أتبعهم"، فكيف ترى الناس -إذن- يُلقون بأنفسهم في نار جهنم وتتبعهم؟ إن الذي يخالف الشرع ويرتكب المحرمات ويهمل الفرائض ويسمح لبنته بالاختلاط بالرجال ويسلك غير سبيل المؤمنين... إنما يلقي بنفسه في جهنم قطعاً.

فكيف تلقي بنفسك معه؟ هل الوقوع من فوق صخرة المنشار إلى الوادي أصعب من السقوط في جهنم؟

* * *

(١) «المهاجرين» حي في طرف دمشق، انظر قصته في كتاب «دمشق» لعلي الطنطاوي، و«المنشار» صخرة عظيمة في طرفه الأقصى تنحدر انحداراً شديداً نحو الوادي الذي يجري فيه النهر، فمن وقع عنها وقع إلى الهلاك (مجاهد).

وبعد، فهذه موعظة أنا أعلم أنه لا يعمل بها أحد من القراء، ولكن الشرع أوجب علينا أن نقول ولم يوجب علينا أن نحمل الناس على العمل.

* * *

مشكلة الشباب

نشرت سنة ١٩٦١

لا تلوموا الطبيب الذي يصوّر فظاعة المرض، ولكن اعملوا على درء المرض.

أمامي سبعة كتب وردت عليّ، اختلف أسلوبها واتحدت غايتها، تثير مشكلة من أعقد المشكلات الاجتماعية، وتشير إلى خطر كامن في حياتنا، إلى قنبلة مدمرة إذا نحن لم ننتبه إليها فنفككها أو نبعدها تفجرت فلم تبقِ ولم تذر، ودخل كلَّ بيت من بيوتنا شظيةٌ منها، فدمرت أو أحرقت أو قتلت أو جرحت، فلم ينجُ من شرها أحد.

كتب من شباب لا تزال في نفوسهم بقايا من الخلق ومن الدين. شباب مراهقون أو بالغون، في أشد سنوات العمر وَقْدَةَ شهوةٍ واشتعالَ عاطفةٍ، يرون في الطريق البنات الجميلات، الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، وهن يلبسن هذه الثياب التي تضيق حتى لتصوّر من ضيقها ما وراءها، ولا يدري الناظر إليها كيف استطاع لابساتُها الدخولَ فيها، أو تتسع حتى

ترتفع عن الركبة وتدور من حولها كأنها شمسية لا ثوب، إذا حركتها الرياح أو هزها المشي أو صعدت صاحبتُها السيارةَ أو الدرجَ أو قعدت ومدت رجلها لم يكد يخفى من نصفها الأسفل شيء!

وهذه الثياب كلها، ضيقها وواسعها، تكشف النحر والصدر والكتف والظهر، فليس فيها من الثياب إلّا اسمها. وإذا كان الله قد خلق الثياب للستر فهذه ثياب تظهر ولا تستر، وإن كان جعلها للدفء فهذه ثياب تبرد ولا تدفئ، وإذا كان الإنسان يمتاز عن الحيوان بأنه كاسٍ وذاك عار فإن عريَ الهرة أو الدجاجة أسترُ من ثياب اليوم، لأنه يكشف كل شيء منها فيراه الديك أو القط على حقيقته، وهذه الثياب تكشف شيئاً وتترك الباقي، خديعةً للرجل ليتخيله أجمل وأحلى مما هو عليه!

ولم يبقَ فرقٌ بين الذي رآه الزوج من امرأته وبين الذي يراه منها الناس كلهم، فهي تمشي في الطريق على الحال التي خصها الشرع والطبع والنقل والعقل بالزوج وحده. بل إن الزوج لا يرى امرأته إلّا على شر حال: بالوجه الكالح والشعر المنفوش، ولا يشم منها إلّا ريح البصل والباذنجان، وتكون أمامه بثوب البيت العريض الساتر، فإذا خرجت إلى الشارع عرضت على أنظار الغرباء وجهاً مجملاً، وشعراً مرجّلاً، وملأت أنوفهم بأريج العطر، ولبست لهم بدل ذلك الثوب الساتر العريض هذه الثياب الفظيعة.

انقلبت الأوضاع، وتبدلت الأحوال، وبدا كل شيء معكوساً!

* * *

ويصف هؤلاء الشباب ما يكون لهذا المنظر من الأثر في نفوسهم. ولو كان يجوز أن أعرض لذلك في جريدة عامة[١] يقرؤها الكبير والصغير، لسردت لكم طرفاً منها، ولكني لا أجوّز نشرها، فتصوروا النارَ المشتعلة يُصَبّ عليها البنزين، والجمرةَ المتوقدة يُلقى عليها البارود. وهم يسألون سؤال الغريق الذي يمد يده إلى من يتوهم أنه منقذه القوي، سؤال المريض للطبيب الحاذق. يسألونني: ماذا يعملون؟

ماذا يعملون ليحتفظوا بدينهم وبعفافهم وبأخلاقهم، وبصحة أجسادهم، وهم يرون هذا الذي يهيج الشيخ الفاني ويحرك العاجز المدنف[٢]؟ كيف يتفرغون معه إلى مراجعة دروسهم وكتابة وظائفهم؟ كيف وهم إذا غضوا الأبصار عنه في الطريق سمعوا وصفه في الأغاني وحديثه من الأفواه، ورأوا صوره في إعلانات السينما؟

يسألونني: ماذا يعملون؟

* * *

---

(١) نُشرت هذه المقالة في جريدة «الأيام» التي كانت تصدر في الشام. فإذا كانت صرخةَ غضب واستغاثة مما كان في تلك الأيام (قبل أربعين سنة كوامل) فكيف لو رأى الشيخ ما صار الحال إليه اليوم؟! لقد بتنا نشفق على أبنائنا مما هو آت، وما عدنا نستغرب أن يأتي يوم قريب نرى فيه (كما أنبأنا النبي ﷺ في جملة علامات اقتراب الساعة) الناسَ يتهارجون في الطرقات تهارج الحمير! (مجاهد).

(٢) يقال: دَنِفَ المريض وأدنَفَ: إذا اشتد مرضه واقترب أن يموت، فهو «دَنِفٌ» و«مُدنِف» (مجاهد).

وأنا لا أعرف والله -يا أولادي- بماذا أجيبكم، فسلوا الآباء الذين سمحوا لبناتهم أن يخرجن بهذه الثياب.

سلوا أرباب الأقلام الخبيثة الذين يزينون للناس هذا الإثم ليستمتعوا بالنظر إلى بنات الناس، وما لهم هم بنات ولا زوجات يخشون عليهن الأذى لأن أكثرهم عزاب.

سلوا المفكرين والمصلحين، من أين جاءنا هذا البلاء؟

من أين، والعروبة التي ننتسب إليها ولا نمل من ترديد ذكرها تأباه أشد الإباء وتنكره أبلغ الإنكار؟ وإن من سلائق العروبة وصفاتها الملازمة لها التي لا تنفك عنها، والتي حافظت عليها في جاهليتها وإسلامها، أنها تدور مع الشرف حيثما دار. والعربي لو عُرضت عليه الدنيا كلها، بلذاتها ومنافعها، على أن يبذل في مقابلها ذرة واحدة من عرضه لأباها ونبذها وآثر الذرة الواحدة من عرضه على الدنيا وما فيها، والمرأة العربية تجوع ولا تأكل بثدييها.

والأديان كلها تحرّم هذا التكشف وتحاربه أعنف حرب. هذه أحكام الإسلام، وهذه قواعد النصرانية، فسلوا الشيخ واسألوا المطران واسألوا الحاخام، سلوهم: هل يجوز هذا التكشف في دين من الأديان الثلاثة؟ هل يجوز هذا الاختلاط؟ هل يجوز باسم الفن؟ هل يجوز باسم الرياضة؟ هل يجوز في حال من الأحوال؟

وإذا لم تريدوا أن تسألوا رجال الدين فاسألوا أهل الفكر من الفلاسفة والعلماء، بل سلوا العقلاء من الملحدين والزنادقة! لا تجدوا عاقلاً واحداً من الإنس ولا من الجن يستطيع أن يقول أن هذا شيء حسن أو أنه نافع.

هل يستطيع عاقل أن يثبت بالحجة والبرهان أن البنت التي تخرج على هذه الحال تكون آمنة على عرضها وشرفها؟

لقد تعود الناس أن يطلبوا كل شيء من الحكومة، وأنا أعلم أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ولكن سلطان الحكومة لا يصل إلى القلوب. إن الذي يستطيع أن يصل إلى قلوب الناس فيبدلها، فيصلحها أو يفسدها، هم المعلمون والموجهون، والوعّاظ والخطباء والمدرسون، وأرباب الأقلام والألسنة والشعراء... هؤلاء وأمثالهم هم الذين يملكون السلطان على القلوب.

فأين هؤلاء؟ وما لهم لا يقومون بأداء هذه الأمانة التي وضعها الله في أعناقهم؟ أين المصلحون منهم الذين يملؤون هذه القلوب بالإيمان وبالخير ويصرفونها عن الشر وعن الفساد؟

رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته». والأب راعٍ في بيته ومسؤول عن رعيّته، أفلا يُلام الراعي الذي يسوق قطيعه إلى الجبل فيسيّب الحمل الصغير بين الذئاب وينام عنه؟

فإذا لمنا من يضيّع حملاً وهو حيوان، أفلا نلوم من يترك بنته لذئاب البشر؟ فأين الآباء؟ أين هم؟ ماذا أصابهم؟ أين الأزواج والإخوة؟ ألم يبقَ لرجل سلطان على بيته؟ كيف السبيل ليستعيد الرجال سلطانهم على بيوتهم؟

وإذا كان الرجال قد خُلعوا عن عروشهم وعُزلوا عن مناصبهم، فهل ندع النساء يتهافتن في هذه الهاوية كما يتهافت الفَراش في ليالي الصيف على مصباح الكاز ليحترق بلهيبه؟

الخطر عليكن يا أخواتي السيدات، عليكن يا بناتي الآنسات.

ألا تشفقن على هذه الصدور وعلى هذه السواعد أن تحترق بالنار؟ ألا تأسين على هذا اللحم الطري أن يكون غداً طعمة للنار؟ إنها لو كانت كنار الدنيا، يحترق فيه الجسد مرة واحدة فيصير فحماً أسود لهان الأمر، ولكنها نار الآخرة؛ النار الدائمة، النار البطيئة الفظيعة التي تُنضج الجلد، وكلما نَضِجت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

قفي يا بنت أمام المرآة وانظري إلى هذا الجسد الجميل وفكري: كيف تلقين بهذا الجسد الجميل في نار جهنم؟ ماذا تستفيدين من ربحٍ مقابل هذه الخسارة؟

هل تنفعكن -يومئذٍ- كلمات الثناء التي تسمعنَها من الناس؟ هل تفيدكن نظرات الإعجاب؟ هل تجدن -يومئذٍ- في اتباع «الموضة» ما يعوض عن فقد الدين؟ ما لكنّ؟

فكرن يا أخواتي ويا بناتي: أما في الدنيا موت؟ هل من الموت مهرب؟ أما بعد الموت حساب؟ أما في الوجود رب؟ لماذا تحاربن رب الوجود وتجاهرن بالعصيان؟ هل تقدرن على محاربة الله؟ ألكن رب غيره تدعونه إذا أصابكنّ الضر؟ من تدعون إن نزل بكنّ المرض الذي يُؤْيِسُ الأطباء، أو مسّكُنّ الخطب الذي لا ينفع معه عون الناس؟ لن تلجأن إلا إلى الله! فبأي وجه تدعون الله وأنتن تعصين الله وتكشفن ما أمر الله بستره؟

* * *

ويا أيها القراء، خبّروني بماذا أجيب هؤلاء الشباب الذين كتبوا إليّ. ماذا يعملون والنار بين جوانبهم، و«البنزين» والبارود من حولهم: المغريات والمغويات من كل جانب؟ وإذا ابتغوا إطفاء هذه النار بالحلال وجدوا دون الزواج عشر عقبات لا يقدرون أن يجتازوا واحدة منها، ووجدوا الطريق إلى الحرام ممهداً معبَّداً ما فيه عقبة، فماذا يفعلون؟

ويا أيها القراء فكروا، إلى أين يصل بنا هذا الطريق الذي نمشي فيه مسرعين؟ فكروا يا ناس، فكروا في هول المصير!

أنا لا أخاف من الأفكار الإلحادية، ولا أخاف الشيوعية، ولا أخاف الزندقة، بمقدار ما أخاف من التحلل الخلقي. ذلك لأن دعاة التحلل يخاطبون الغريزة، يوقظون في النفس الميل الطبيعي، وليس كل شاب مستعداً لقبول الزندقة والإلحاد، ولكن كل شاب مستعد أن يميل إذا استُميل بالجمال المعروض واللذة المتوقعة.

ونحن قد أخلينا بلادنا من الاستعمار، فما بالنا لا نجلي هذا الاستعمار المدني عنا، وهو أشد علينا وأبلغ نكالاً فينا؟ إن التكشف، والغناء الخليع، والرقص المثير، والفن الداعر، والاختلاط الممنوع... إن هذا كله أثر من آثار الاستعمار، ما جاءنا إلّا من طريقه ولا وصل إلينا إلّا معه. إنها بضاعة أجنبية عنا، ليست من عندنا لا من قوميتنا ولا من ديننا ولا من أعرافنا.

إنها أشد من قلاع العدو التي كانت في جبال المزة وجبل قاسيون، لأن المدافع التي كانت فيها تدمر البيوت وهذه فيها المدافع التي تدمّر النفوس والأخلاق والرجولات.

فيا أيها العرب: عودوا إلى أخلاق العرب، إلى شهامة العرب، إلى إباء العرب، إلى غيرة العرب على محارمها وحفاظها على أعراضها.

ويا أيها المسلمون، يا أيها النصارى: إن دين محمد وإن دين عيسى يحرّمان التكشف، ويمنعان الفساد، ويحاربان التحلل الخلقي. فاتبعوا في الفضيلة أحكام الدين، وتعاونوا جميعاً على حرب الرذيلة وأهلها.

يا أيها الناس: إن الأمر جد، والخطر جاثم، فاستيقظوا واعملوا قبل أن يأتي يوم لا تنفع معه يقظة ولا يفيد عمل!

* * *

آراء رجعية... لكاتب رجعي!

نشرت سنة ١٩٦١

أنا وضعت هذا العنوان واخترته
بنفسي لمقالتي!

أمامي الآن درج مملوء برسائل القراء، منها ما فيه مشكلة اجتماعية يطلب مني حلها، ومنها ما فيه أسئلة علمية يطلب مني الجواب عليها، ومنها ما فيه قصص ووقائع يطلب مني تلخيصها وعرضها والتعليق عليها، ومنها ما فيه أسئلة شخصية.

وكنت كلما جاءني كتاب ألقيته في هذا الدرج ونويت الرد عليه يوماً. وأحسب أنه قد جاء ذلك اليوم ولم يعد في الوسع تأجيل الجواب، لأن أصحاب هذه الكتب يكتبون إليّ يستعجلون الجواب، ولأن كتباً جديدة تتوارد عليّ. لذلك فقد عزمت على أن أخصص هذا الفصل وفصولاً أخرى بعده للرد عليها، وبدأت بأسئلة ثلاثة تدور كلها حول الزواج فجعلتها موضوع هذا المقال.

هذا كتاب من جماعة من الطلاب يقولون فيه أنهم تناظروا في أمر زواج الطلاب فقال به ناس منهم، وأنكره الآخرون وأبوه.

ثم اتفقوا على تحكيمي وأعلنوا الرضا بحكمي.

هل يتزوج الطلاب؟ الجواب: نعم، نعم، أقولها وأجهر بها وأكتبها بقلم الثلث، وأنا أقول بهذا وأدعو إليه من سنين طوال، وأقيم الأدلة عليه وأردّ الاعتراضات عنه.

نعم يتزوجون، ولماذا لا يتزوجون؟ وماذا يصنعون إذا لم يتزوجوا؟ أيحاربون سنن الله وقوانين الطبيعة التي طبعها عليها؟

إن الله وضع في نفس الرجل هذا الميل إلى المرأة وفي نفس المرأة هذا الميل إلى الرجل، ليتمّ النسل ويُكتَب البقاء لهذا النوع البشري المدة التي قدّرها الله لبقائه. وقدّر لهذا الميل أن يظهر عند ابن ست عشرة أو سبع عشرة سنة، وجعل قوته وشدته في العشرين إلى الثلاثين. فالنتيجة الطبيعية أن يتزوج الشاب وهو في هذه السن ليوجّه هذا الميل وِجهتَه المشروعة، لئلا يتوجه به الوجهة الممنوعة.

ولكن أسلوب الدراسة في المدارس يعارض هذه الفطرة البشرية ويخالف هذا القانون الإلهي، لأن هذا الأسلوب يقضي بأن يدخل الولد المدرسة في السادسة، فلا يأخذ الشهادة الثانوية إلّا في الثامنة عشرة، ويبقى في الجامعة من أربع سنين إلى سبع سنين، فيصير عمره خمساً وعشرين، وقد يذهب للتخصص في أوربا أو أميركا ثلاثاً أخرى أو أربعاً فيصير عمره تسعاً وعشرين. هذا إذا لم يرسب في الامتحان سنتين أو ثلاثاً فيصير عمره اثنتين وثلاثين، ويبقى بعد ذلك سنتين أو ثلاثاً ليبدأ عمله ويجمع شيئاً من المال لزواجه، فيصير عمره خمساً وثلاثين، ويصير كهلاً!

فماذا يصنع إذا أمضى هذه الفترة (وهي أشد سني العمر شهوةً وضِراماً) وهو بلا زواج؟ لا سيما إذا كان يقوي هذه الشهوة بمشاهدة أفلام السينما وقراءة روايات الفحش، وتأمل العورات البادية في الطريق، ومشاهدة الرقص وسماع الغناء، ولا سيما إذا عاش في بلد فيه الاختلاط والفساد أو ذهب إلى بلاد الغرب؟

فيا أيها الذين يمنعون زواج الطلاب ويقيمون في وجهه السدود، تفضّلوا فهاتوا الحل لهذه المشكلة، وقولوا لي: ماذا يصنع الشاب في هذه السنين؟

وإذا كان المفروض أن أكثر الشباب يدرسون ويمتنعون عن الزواج، فماذا تصنع البنات في هذه السن وقد بقين بلا زواج؟ وإذا كان هو يتزوج بعد الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، فهل يمكن أن تتزوج البنت وهي في هذه السن؟

قلت لكم أن هذا رأيي من القديم، ولا أحتاج إلى أن أستجدي له الأدلة من الغربيين، ولكني -مع ذلك- أدلكم على دليل جديد عليه الدمغة الغربية وهو من واردات أميركا، أقدمه إليكم لأني أعلم أن للدمغة الأفرنجية أثراً في نفوسكم.

أمامي عدد من مجلة «المختار» فيه حديث للدكتورة مارغريت ميد، الأستاذة في جامعة كولومبيا في أميركا والخبيرة المعروفة في شؤون الزواج وحياة الأسرة، سألوها فيه عن زواج الطلاب فقالت بأنه آخذ بالازدياد في أكثر الكليات في الجامعات الأميركية، كما شاع في مدارس القانون والطب التي لم يكن فيها من خمسة وعشرين عاماً طالب متزوج.

وسألوها عن السبب في ذلك فقالت بأن المجتمع الذي يمنع الشاب عن الزواج إلى آخر العقد الثالث هو مجتمع يسير ضد الطبيعة (وهو ما كنت أقوله أنا من زمان بعيد).

وسألوها هل هذا الإقبال من الشباب أو البنات أو الآباء؟ فأجابت إنه من الجميع، والآباء أكثر رضا به وتأييداً له، وهم يحملون الغرم المالي في سبيل إسعاد أولادهم لأنهم يعلمون أن الشاب إذا تزوج تعوّدَ حمل التبعات وسلك سبيل الفضيلة، وأنه لم يعد يهيم كالذئب الذي يسطو على الغنم. وأن البنت متى وجدت لها زوجاً شعرت بالاطمئنان وأحست السعادة.

وسألوها: ماذا يكون إذا أنجب هؤلاء المتزوجون أطفالاً؟ فأجابت بأن هذا ما يقع غالباً، ولكن الطلاب المتزوجين هم مع ذلك من الطلاب الناجحين في امتحاناتهم، وهم يعملون عملاً إضافياً مع الدراسة ليستطيعوا إعالة أطفالهم.

وسألوها: هل يدوم هذا الزواج؟ فأجابت بأنه يدوم، لا سيما إذا أُنجب فيه الأطفال. وسألوها عن أثره في الأمة، فأجابت بأن الشباب والشابات إذا شعروا بالاستقرار ونجوا من الإقدام على الفساد، كان منهم أمة مستقرة عاملة محبة للأمن والسلام، تساعد على نشر الحضارة وإقرار التمدن البشري.

* * *

وجاءني كتاب من فتاة تشكو خاطبها الذي أطال الخطبة وأدام الصحبة، حتى صارت تخرج معه ويدخل معها بعيون أهلها

وأسماعهم، لا يرون في ذلك بأساً ما دامت خطيبته. حتى إذا كان بينهما ما يكون بين كل رجل وامرأة هجرها وخلاها، وأخلف وعده لها وأعرض عن الزواج بها. وتسألني: ماذا تعمل؟

وهذه، يا أيها القراء، إحدى الثمرات المرة لهذه الغرسة الملعونة، غرسة تقليدنا الغربيين في القبيح من عاداتهم وتركنا الحسن من عاداتنا.

هان أمر العرض عليهم، فلا يبالون أن تتكشف نساؤهم للغريب، ويخرجن أمامه عاريات الشعور والنحور، ويخالطنه ويسايرنه. ثم زاد هوانه عليهم حتى تركوهن يكشفن للغرباء عن الأذرع والسيقان، وربما أبدت المرأة عندهم فخذيها للرياضة أو للرقص أو للسباحة. لم يبق عند نسائهم شيء اسمه العيب لأنه لم يبق عند رجالهم شيء اسمه النخوة، ومن ذلك سماحهم للرجل الأجنبي أن يتسلم البنت من بابها إلى محرابها، وأن يقرأها من ألفها إلى يائها، بحجة أن الخطبة تجمع بينهما.

أما نحن، نحن العرب: فإن النخوة طبع فينا، والغيرة على المحارم من مفاخرنا، والخطبة عندنا، في ديننا وفي أعرافنا، لا تُحِلّ حراماً ولا تبيح للخاطب محظوراً ما دام العقد لم يُعقد والزواج لم يتم، فإن خاطب البنت وأبعد الرجال عنها نسباً وبلداً سواء.

فلا يجوز أن يرى الخاطب من البنت إلّا وجهها وكفيها، بحضور وليها، لا يخلو بها ولا يخرج معها، ولا تتصل به بالهاتف ولا بالبريد ولا يتصل بها، فإن كتب الله لهما الزواج وعُقد العقد

صارت زوجته وحلّتْ له، وإن عدل عن خطبتها أو رغب أهلها عنه بها فلم يرضوه لها مشى كلٌّ في طريقه، فكأنها ما رأته وكأنه ما رآها. ولا يجوز له أن يصف ما رأى أو سمع منها.

تلك عاداتهم وهذه عاداتنا؛ عندهم القبيح وعندنا الحسن، وعندهم الضار وعندنا النافع، ولكن ضعف نفوس ناس منا يدفعهم إلى أخذ ما عندهم وترك ما عندنا، لا يبالون نصحاً ولا يسمعون موعظة، حتى إذا وقع المحذور بكوا وشكوا، ونادوا وصرخوا: أنقذونا، خلّصونا، قولوا لنا: ماذا نعمل؟

ماذا تعملون الآن، بعدما كان الذي كان؟

* * *

وهذا سؤال من شاب مقدم على الزواج، يقول أنه متردد بين قريبة له اختارها له أهله، وتعرفه ويعرفها، وهو واثق من إخلاصها، ولكنه يشكو منها جهلها وأنها لم تدرس إلّا في المدرسة الابتدائية، وأنها بنت بلدية لا تعرف أساليب الحياة ولا تتبع سبيل الموضات... وبين فتاة عرفها بنفسه وعرفته بنفسها، تحمل أعلى الشهادات، وتأخذ بأحدث الموضات، وتتقن تسع رقصات. ثم إنها تعرف الإنكليزية والفرنسية وهي موظفة حكومية، وقد حار بينهما، وهو يريد مني الرأي الذي يُذهب حيرته ويعين له وجهته.

ورأيي -يا أخي- أن تختار قريبتك، لأنك تعرفها وتعرفك، وتلك تتراءى لك بأحسن هيئاتها ولا تدري كيف تكون لك إذا غدوت قرينها. هذه تبدو لك بصورتها التي صوّرها الله بها فتراها

على حقيقتها، وتلك تظهر لك بـ«المكياج» تحت أضواء المسرح، فلا تعرف كيف تكون إذا نزعت عنها مكياجها وفارقت أضواء مسرحها.

ثم إني -لاشتغالي بأقضية الزواج أكثر من عشرين سنة- قد وقفت على آلاف مؤلفة من قصص الزواج، فكانت نسبة الدوام في الزواج بالمتعلمات (من صاحبات الشهادات) ونسبة السعادة فيه أقلَّ منها في زواج غير المتعلمات. الزواجُ ببعض صاحبات الشهادات الغالبُ فيه الانقطاع أو الشقاء، والزواجُ بالأخريات الغالبُ فيه الدوام والصلاح.

ولا أذم العلم ولا أفضّل عليه الجهل، لا. وإنما أذكر حقيقة مشاهَدة في بلادنا. ولست أعني بغير المتعلمات الجاهلات، فالجاهلة لا خير فيها، ولكن الذي أعنيه أن خير البنات من درست شيئاً قوّم تفكيرها ولم يفسد خلقها ولم يدخل الغرور عليها، وأن تكون -قبل كل شيء- من طبقة الخاطب، ومن أسرة تماثل أسرته في السلوك الديني والدنيوي وفي الوضع الاجتماعي، وألّا تكون قد خالطت رجلاً قبله ولا عرفته.

ولذلك نصحت هذا السائل بأن يختار قريبته.

وأنا لا أعترض على تعليم البنات، ولكن أريد أن تتعلم ما ينفعها ويعينها على القيام بعملها. يجب أن نعرف أولاً ما هو عمل البنت في الحياة لنعلمها ما يعينها عليه.

لماذا لا نعلم طالب الطب المفاضلة بين أبي تمام والبحتري، ولا نعلم طالب الآداب حساب التمام والتفاضل، ولا نعلم طالب

الحقوق طريقة مداواة التيفوئيد؟

الجواب واضح، هو أن طالب الطب يستطيع أن يكون طبيباً ماهراً وأن يجري أصعب عملية جراحية بغير أن يتلو شعر أبي تمام أو يشرح شعر البحتري، وطالب الآداب يستطيع أن يكون كاتباً أو شاعراً أو ناقداً أو مدرّساً للأدب من غير أن يعرف ما حساب التمام والتفاضل، وطالب الحقوق يستطيع أن يكون قاضياً عادلاً أو محامياً ناجحاً من غير أن يدرس طريق مداواة التيفوئيد.

أي أننا عرفنا عمل كل منهم في الحياة وعلّمناه ما يعينه عليه، فما هو عمل المرأة في الحياة؟ هل عملها الذي خلقها الله له أن تكون سياسية أو تكون موظفة أو تحمل السيف والرمح وتبرز للقتال؟ أم أن عملها هو أن تحمل وتلد فتكون أماً؟

ومهما صنعنا منها، ومهما أعطيناها من المناصب، فهل نقدر أن نخرجها عن أن تكون أماً؟ هذه ملكة إنكلترا؛ هل في الدنيا عمل للمرأة أكبر، أو منصب أسمى، من أن تكون ملكة إنكلترا؟ أما تحمل ملكة إنكلترا الولد وتضعه كما تحمل وتضع كل أنثى؟ إننا نتجادل في كل شيء، فهل يمكن أن نتجادل في هذه الحقيقة الظاهرة؟

أول عمل للمرأة هو أن تكون أماً وأن تكون ربة البيت، فلماذا نعلمها ما لا يفيدها في عملها؟

وإذا خرجت المرأة كل يوم إلى وظيفتها كما يخرج الرجل إلى وظيفته، فمن يقوم بأمر البيت؟ الخادمة؟ وإذا عاد الرجل وكانت المرأة غائبة فهل يجوز له أن ينفرد بالخادمة في الدار؟

ولعل الخادمة تكون شابة، ولعلها تكون أجمل من المرأة، وهما وحدَهما والمراقبون غائبون عنهما والشيطان حاضر معهما. وإذا جاء الأولاد فمن يربي الأولاد؟ الخادمة؟ أهذه حياة عائلية؟ أهذا بيت زوجي؟ أعَلى هذه البيوت تُبنى الأمة ومن هذه البيوت وعلى أيدي الخادمات يتخرج النشء الجديد؟

هذا مع العلم بأن عماد تعليم المرأة وأساسه وشرطه صونُ حجابها، والحفاظُ على عفافها، ومنعُ دخول الرجال عليها ونظرهم إليها.

أنا رجعي وعقلي قديم، فهل عند أحد من القراء حجة معقولة يرد بها عليّ حتى يجعلني تقدمياً صاحب عقل حديث؟

وله الشكر سلفاً.

* * *

تيسير الزواج

أذيعت سنة ١٩٦٤

وجدت في الرياض أمراً حسناً في الزواج، وأمراً سيئاً. أما الأمر الحسن فهو التبكير في تزويج الشاب، وأما الأمر السيء فهو كثرة تكاليف الزواج.

ولقد قلت في حديثي عن الحضارة الغربية -من أيام- أن هذه الحضارة قد دخلت إلينا، ولا يمكن أن نجرد منها حياتنا بعد أن صارت جزءاً منها، فلم يبق علينا إلّا أن نفتح عيوننا ونستعمل عقولنا، ونجعل الميزانَ في قبول ما فيها أو ردّه شرعَ ربنا.

وقلت أن شر ما جاءتنا به هذه الحضارة هو إطلاق الغرائز من عقالها، وإثارة الشهوات من مكامنها. وأقول الليلة أنه لا دواء لهذا الداء إلّا بالزواج، فإذا لم نسهّل الزواج ونهوّنه على الشاب لم تنفعه مواعظنا ولا أحاديثنا.

هذا الجوع الجنسي كالجوع الشخصي، هذا لبقاء النوع وذلك لبقاء الفرد. فإذا جئت بجوعان لم يأكل من يومين ووقفتَه أمام المائدة الملوكية ومنعته أن يأكل، وألقيت عليه خطبة من أبلغ الخطب هل يشبع؟ إذا طال عليه الجوع والطعام أمامه فسيأكل

ولا يبالي بمنعك. أما إذا جئته بمائدة أخرى، وقلت: أمنعك من تلك وأسمح لك أن تأكل من هذه، فإنه قد يسمع منك ويطيعك.

ودين الإسلام -يا سادة- دين الفطرة، دين الواقع، ليس فيه رهبانية وليس فيه حرمان، وما حرّم علينا شيئاً إلّا أحل لنا شيئاً مثله يقوم مكانه، حرّم الربا وأحل البيع، وحرم الزنا وأحلّ الزواج.

إنه يمنعك من وصال المرأة بالحرام، ويبيح لك أن تستمتع بهذا الوصال كاملاً بالحلال، فهل سهّلنا للشاب طريق الزواج؟ تعالوا ننظر نظرة في حال المجتمع، نعرف منها الجواب.

وضع الله هذه الشهوة في نفس الشاب وفتح له طريقين: طريقاً سهلاً معبداً هو طريق الزواج، وطريقاً منحدراً خطيراً فيه مزالق توصل إلى جهنم، وهو طريق الزنا، وأقام له دون طريق الزنا عوائق وسدوداً لئلا ينحدر فيه.

فجئنا نحن فسددنا طريق الزواج، ومن لم يسده منا ألقى فيه الأشواك والحجارة وأنواع الصعاب، وجئنا إلى طريق الزنا فرفعنا من دونه السدود والحواجز، وزرعنا على جانبيه الفل والورد، ومهّدناه وعبّدناه.

لا تعجبوا من هذا الكلام واسمعوا البيان.

صادمنا أولاً فطرة الله، وفطرة الله لا تُصادَم. يحس الشاب بهذه الشهوة وهو ابن ست عشرة سنة، وتكون أشدَّ ما تكون في هذه السنين العشر أو الخمس عشرة، من سن ست عشرة إلى سن ست وعشرين أو ثلاثين، وفطرة الله تقضي بأن يتزوج في هذه السنين، وكلما بكّرَ كان أحسن.

فجئنا نحن -في أكثر بلاد المسلمين- فحكمنا على الشاب بأن يبقى في هذه السنين بلا زواج. قلنا له إن الطالب لا يتزوج وهو طالب، فانتظرْ حتى تتم دراستك. مع أني بيّنتُ في حديث لي كنت أذعته قديماً من إذاعة دمشق[1] أن الأفضل للطالب أن يتزوج، وسردت استقراءات أُجريت في أميركا ثبت فيها أن الطالب المتزوج أقدر على الدرس من العازب.

ومتى يتم دراسته؟ إنه يدخل المدرسة الابتدائية وهو ابن ست سنين فيبقى فيها إلى الثانية عشرة، ثم يقعد في الثانوية إلى الثامنة عشرة، ويمضي في الجامعة أربعاً أو خمساً بعدها، فيصير عمره ثلاثاً وعشرين. وقد يذهب للتخصص في الغرب فيصل إلى قريب الثلاثين وهو بلا زواج. فماذا يصنع في هذه المرحلة التي هي أشد مراحل العمر ثورةً في الغريزة واضطراماً في الرغبة وتسعّراً في الأعصاب؟

ويا ليت أنّا -إذ منعناه من الزواج الحلال- تركنا رغبته الجنسية على طبيعتها ولم نزدها وقوداً واشتعالاً. إنه كلما أراد الشاب أن ينسى هذه الرغبة بالصيام والإقلال من الطعام، أو بالتسامي أو التسلية عنها بالرياضة، رحنا نذكّره بها. فحيثما مشى يرى الصور الكبيرة على أبواب السينمات، وربما كان فيها المرأة المتعرية وإلى جنبها الرجل على حال تثير مكامن الرغبات في النفوس، وفي صدور المجلات على أبواب المكتبات. وفي كل

(١) وهو حديث «هذا نذيرٌ للناس» الذي أُذيع من إذاعة دمشق سنة ١٩٥٦، وتجدونه في كتاب «مع الناس»، ص١٨٥ من طبعة دار المنارة الجديدة.

الأفلام وفي أكثر الروايات التي تباع علناً أصرح الوصف لأدق الصلات الجنسية، وفي أغاني الإذاعات وفي برامج التلفزيونات، وفي كل ما يرى أو يسمع ما يذكره بما يحاول أن ينساه.

وشرٌّ من هذا الاختلاطُ بين الجنسين في كل مكان، لا سيما في الجامعات، حيث نجد الطالبة وكأنها ذاهبة إلى عرس لا إلى مدرسة، من فرط الزينة وكثرة التكشف. وإن بعثناه إلى أوربا أو أميركا ليدرس فهناك بليّة البلايا وطامة الطامات! جائع يرى أمامه ألوان الطعام معروضةً للآكلين ورائحتها تشهّي الشبعان، ونقول له: "إياك أن تأكل"، وعطشان يمر بالعين وهي تتدفق ماء عذباً بارداً يلمع في شعاع الشمس كالألماس ونقول له: "إياك أن تشرب"، وكيف لا يأكل وكيف لا يشرب؟

وإذا أراد الشاب أن يتزوج -برغم هذا كله- وجد دون الزواج أهوالاً، أولها المهر. وقد سمعت أن المهور غالية في أكثر أنحاء المملكة غلاء يجعل الشاب الذي لا وليّ غنيّ له يعجز عن الزواج. ثم التكاليف الكثيرة التي أوجبتها عاداتٌ ما أنزل الله بها من سلطان، وأقلها أن على الزوج أن يعمل وليمتين ربما بلغ عدد المدعوين إليهما خمسمئة، وليمتين كل وليمة منهما تكفي لخراب بيت الشاب.

وفي كل بلد من هذه العادات ألوان وأنواع، تختلف في جوهرها وتتفق في نتيجتها، ونتيجتُها كلها تقليل الزواج وتنفير الشاب منه، ونتيجتها كساد البنات وبقاؤهن عوانس في بيوت آبائهن، ونتيجتها نشر الفساد، لأن الذي يريد أن يدخل وتمنعه من أن يدخل من الباب دخل من الشبّاك!

ولقد كتبت في «الرسالة» من زمن بعيد مقالة عنوانها: «بطون جائعة وأموال ضائعة»[1] ذكرتُ فيها حوادث واقعة رأيتها، منها أن صديقاً لنا من أوساط القوم ليس من الأغنياء المبذرين ولا من الفقراء المحتاجين تزوج، فأُهدي إليه في يوم عرسه طاقات من الزهر يتراوح ثمن الواحدة منها بين عشرٍ وخمسٍ وعشرين ليرة سورية، بلغ ثمنها جميعاً قريباً من ألف ليرة، صفّوها حول العروسين، وانقضت أيام العرس وفسدت هذه الأزهار وطلعت رائحتها، فجاؤوا بحمّال فأعطوه أجرته ليحملها فيلقيها على المزابل.

وقلت: يا أيها الناس، ألا تخافون الله؟ ألف ليرة (أي ألف ومئة ريال)[2] تُلقى على المزبلة وفي البلد فقراء ومحتاجون؟ وتأمنون أن يرمينا الله بالحجارة أو ينزل علينا كسفاً من السماء؟! إن الأموال التي تذهب هدراً في كل عقد وكل عرس تكفي عشرين أسرة تعيش بها أسبوعاً، أفيجوز في دين الله وفي شرعة العقل أن نُذهِب المالَ فيما لا ينفع أحداً من الناس، ثم يأتي بعد ذلك بعقاب الله؟

تألّفت جمعية في هولاندة عملها أن تأخذ من الناس ثمن ما اعتادوا أن يهدوه من أزهار في أمثال هذه الحفلات، فاجتمع لها من ذلك ما استطاعت أن تبني به ست مستشفيات في عشر سنين.

---

(١) وهي منشورة في كتاب «في سبيل الإصلاح» (مجاهد).

(٢) بحساب تلك الأيام، وهو مبلغ كان من شأنه أن يعيل أسرتين أو ثلاثاً شهراً كاملاً (مجاهد).

ونحن المسلمين أولى بهذا منهم، نحن أولى به لأن ديننا يحرّم التبذير ويجعل المبذّرين إخوانَ الشياطين.

* * *

إن كل كلام يُقال في محاربة الفساد وكل سعي لنصرة الفضيلة لا ينفع إن لم يكن معه الزواج.

ولقد قلت وكتبت في الزواج شيئاً كثيراً جداً، في المهر والجهاز، وفي بناء الزواج على الحب، وفي مشكلات الزواج... ولست أعيد على السامعين ما كتبته ولكن أشير إليه، لأن من المعاني ما لا يبلى على الترداد.

وسأتكلم في أحاديث آتيات -إن شاء الله- عن الزواج كلاماً طويلاً أرجو الله أن يجعله نافعاً مثمراً. وإذا كان في السامعين مَن أعجبه شيء من هذه الأحاديث وأراد أن يكافئني عليها، فأنا أستحلفه بالله أن يجعل مكافأتي دعوة صالحة يدعوها لي بظهر الغيب، ولا يخبرني بها لتكون خالصة لوجه الله، فإن دعاء المؤمن للمؤمن بظهر الغيب لا يُرَد، وأنا رجل قليل الحسنات فأنا آمل الخير لي من هذه الدعوات.

أول عائق عن الحرام هو خوف الله.

لو أن رجلاً أراد الزنا واستعد له، ثم نظر فرأى أباه أو أستاذه الذي يُجِلّه يشرف عليه من النافذة، هل يستطيع أن يزني؟ فكيف بمن يراقب الله ويذكر أنه مطّلع عليه؟ ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

فرفعنا هذا العائق وهدمنا هذا السد حين تركنا تربية أولادنا على خوف الله وأهملنا دروس الدين في المدارس، أو جعلناها جسداً بلا روح ومعلومات تُحفظ لا توجيهاً وتسليكاً.

والعائق الثاني هو خوف المرض، فجئنا (أو جاء بعض الأطباء منا) فأعلنوا للناس: "أنْ لا تخافوا الأمراض؛ عندنا لكل مرض دواء، فأقدموا ولا تبالوا".

فهدمنا بذلك السد الثاني.

والعائق الثالث هو خوف الفضيحة؛ كان الزاني يتوارى حياء ويوصَم وصمة لا تُمحى عن جبينه حتى يموت، فصار من الشبان من يفتخر بهذا العمل ويسرد قصته علناً، بل ربما ألف الكتاب يفصل فيه أمره، بل لقد بلغت الحال أن صار عندنا في الشام نساء يؤلّفنَ الكتب يذكرن فيها ما كان بين إحداهن وبين الرجل بالحرام!

فهدمنا بذلك السد الثالث.

فلم يعد يمنع الشابَّ مانعٌ من خوف الله، ولا من خوف المرض، ولا من خوف الفضيحة[١].

* * *

---

(١) الحديث مقطوع هنا، ويبدو أنه كانت له تتمة لم أعثر عليها، وفي كتاب «مع الناس» مقالة عنوانها «هذا نذير للناس» أذيعت من دمشق قبل هذا الحديث بثماني سنين، وبين الحديثين تشابه وبينهما اختلاف، فمن أجل ذلك لم أجد حرجاً في نشر هذه المقالة في هذا الكتاب (مجاهد).

في الحب والزواج

نشرت سنة ١٩٦٠

جاءني في بريد هذا الأسبوع كتاب عجيب، لولا أنه طويل عريض لنشرته بنصه، يقص فيه مرسله (وهو شاب متعلم كما يقول) كيف رأى بنت الجيران فاستحلاها، ثم اتصل بها فاستخلاها، فبثّها مِن وَجْده وغرامه وأعلنته بحبها وهيامها، وتواعدا على الزواج وتعاهدا عليه، ولكن أباها زوّجها لآخر رآه أصلح لها. وهو ينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور (كما تقول الحكاية) ويتهم هذا الأب بأنه مجرم قاس، وأنه قاتل سفاك، لم يبالِ بأن يجرح قلبين ويقتل نفسين ويفرّق بين متحابين... إلى آخر هذا الهذيان الذي يهذي به الشبان العاشقون!

* * *

فأخذت الكتاب بيدي، وجعلت أفكر متعجباً كيف تنقلب الأمور وتتبدل الحقائق، حتى يثور عليك الحرامي[1] ويتهمك بأنك قاس وأنك مجرم، لأنك خيبت أمله وكسرت قلبه فلم تسمح له أن يسرق متاعك الذي يميل إليه ويحبه ويرغب فيه!

(١) اللفظ عربي فصيح؛ وهو المنسوب إلى الحرام.

إي والله العظيم، هذا هو المقال بالتمام.

وأنا لست جاهلاً بالحب ولا عدوّاً له، ولقد كتبت عنه في أحد كتبي المطبوعة فصلاً لم يُنشَأ في لغة العرب فصل في الحب أجمع منه[١] (والعفو من هذا الفخر والادعاء)، ولكني أعرف أن الحب -في حقيقته- ليس إلا رغبة خفية في الاتصال الجسدي. هذه حقيقة الحب وإن زوّق الشعراء وزعموا أن من الحب حباً عذرياً أفلاطونياً شريفاً. إن كل ما يقوله جماعة الحب العذري كذب، وكل حب غايته الجسد، ولكن الطريق إلى هذه الغاية قد يقصر وقد يطول.

إن الذي يرى بنت الجيران فيحبها ويطلبها من غير طريق الحلال كالجائع الذي يبصر الحلوى في دكان البياع فيشتهيها وليس معه ثمنها، فهو يقف أمامها متلهفاً عليها، متشوقاً إليها، متغزلاً بها، فإذا طلبها مجاناً فلم يُلبِّ البيّاع طلبه وجاء من يدفع ثمنها فيشتريها، قلّد امرأ القيس فوقف واستوقف المارة، وبكى واستبكى الناس، وزعم أن البائع القاسي حطم قلبه لأنه لم يعطه الحلاوة التي اشتهاها ولأنه آثر بها من دفع ثمنها فاشتراها.

إن المشتري أخذها بحق الثمن، فما حقك أنت فيها؟ ما حقك على هذا الأب حتى تطالبه بابنته لمجرد أنه أعجبك جمالها؟

إنك حين تتصل بالبنت من وراء ظهر أبويها مثل الحرامي، ولو كنت رجلاً شريفاً تطلب الحلال لا الحرام لجئت في ضياء النهار، لا في ظلام الليل، ولطرقت الباب علناً؛ لم تأتِ من تحت

---

(١) وهو كتاب «صور وخواطر».

النافذة ولا من فوق الشجرة، ولَخطبتَها من أبيها لم تخطبها من نفسها.

وليس الأب مجبراً أن يعطيك، والأب الذي يعطي بنته لأول شاب يأتي فيقول له: "أنا أحب ابنتك" من غير أن يسأل عنه ويعرف أحواله يكون مجنوناً.

أنا أبو خمس بنات، زوجت اثنتين على أهون سبيل[١]، ولكني لم أعطِ بنتي لمن أحبّها وأحبته، أعوذ بالله! بل لمن رضيت دينه وخلقه ووضعه المالي، لذلك استراحت البنت وأراحت، وسعدت -بحمد الله- وأسعدت.

ولو كنتَ تاجراً فجاءك من يقول لك: "أنا والله أشتهي هذه البضاعة، وقلبي متعلق بها، وأنا أسهر الليل مفكراً فيها"، فهل تدفعها إليه بلا ثمن؟

تقول أن البنت ليست بضاعة وليس الزواج بيعاً، تلك بضاعة جامدة وهذه إنسانة لها قلبها وشعورها، وهي تحبه مثلما يحبها... وتنسى أن البنت في هذه السن ينفتح قلبها للحب فيفيض هذا الشعور على أول شاب يعترض طريقها، فتحسب أنه هو الحبيب المنشود.

وربما كان هذا الشاب من طينة غير طينتها، ولم تكن من

---

(١) أي يوم كتب هذه المقالة. وأول البنات زواجاً هي أمي؛ رضي جدي دِينَ أبي لمّا خطبها فزوجها له بمهر مقدَّمه ليرة سورية واحدة، وقريب من هذا ما صنعه مع سائر بناته رحمه الله (مجاهد).

شكله ولم يكن من شكلها، وربما كان لصاً من لصوص الأعراض، كل همه أن يختطف خطفة من لذة فيطير بها. فإذا هي تزوجت به انقلب حبها إياه بغضاً وغدت حياتها معه جحيماً. كمن يكون شديد الجوع فيرى «المجدّرة» فتقع شهوته عليها، فإذا انكسرت حدة الجوع في بطنه، ورأى «القوزي» و«النمّورة»[1] وما في المطاعم من الطيبات المعروضة لم يعد يستطيع النظر إلى «المجدّرة» التي كان يشتهيها.

سألتني «الأيام»[2] مرة عن الزواج، أيُبنَى على الحب أم على المصلحة؟ فأجبت أن الزواج إذا بُني على الحب وحده كان كبيتٍ يُبنى على أساس من الملح في مجرى السيل.

الحب كالخمر والمحب في سكرة، يرى القبيح من المحبوب جميلاً، والنقص فيه كمالاً، فإذا ذهبت سكرة الرغبة وجاءت صحوة العقل انتبه لعيوبه، ورآه على حقيقته فكرهه. وأنا أعرف في هذا الباب حوادث لا تُعَد، وقرأت فيه لأدباء الغرب قصصاً لا تحصى، كلها يصوّر كيف يزيل «اللقاء» الغشاوة عن عين العاشق، فلا يكاد ينقضي شهر «العسل» حتى تبدأ سنة «الدبس»، ثم تكون

---

(١) «المجدَّرة» أكلة شامية يصنعونها من البرغل والعدس، تشبه أكلة المصريين المشهورة «الكشري» إلا أنها بغير معكرونة. و«القوزي» أرز بالبازلاء مع قطع من اللحم ملفوفٌ في صرر من العجين المطبوخ بالفرن، ويعدونها من الأكلات الطيبة الفاخرة. أما «النمورة» فإنها صنف مشهور من الحلويات (مجاهد).

(٢) هي جريدة «الأيام» التي كانت تصدر في الشام، وفيها نُشر هذا المقال يوم ١٩٦٠/١٢/٣٠ (مجاهد).

بعدها سنون ما فيها إلا «الخل»، ثم يصير العمر كله قطراناً وسماً زعافاً!

ولقد قلت في محاضرة ألقيتها من أكثر من ربع قرن بأن مجنون ليلى (هل تعرفون عاشقاً مثله؟)... لو تزوج المجنون ليلى لبدأ الخلاف بينهما بعد سنة واحدة، ولاستحكمت النفرة بعد سنتين، ولأقيمت دعوى التفريق في آخر السنة الثالثة!

كلا، لا يكون الحب وحده أساساً للزواج إلا عند الشباب المجانين، وفي القصص وفي الأفلام. كلا يا حبيبي، لا أستطيع بعدما قرأت رسالتك -على طولها وعرضها- أن أكون معك على والد البنت.

إنك سميته مجرماً، ولكن اسمح لي أن أقول لك أن المجرم هو الذي يختلي ببنات الناس ويعاهدهنّ على الزواج من غير أن يستأذن آباءهن أو يخبر أمهاتهن، ولو كُنتَ شريفاً لجئت أباها فخطبتها منه، أو لأرسلت أمك تخطبها من أمها. هكذا يفعل الناس الأشراف يا ولدي.

ولكن لست وحدك المجرم، الأب أيضاً مجرم.

هو مجرم لا لأنه لم يعطِك بنته التي اتصلت بها وأحببتها، بل لأنه أهمل تربيتها وقصّر في رعايتها، وعمي عنها حتى تركك تتصل بها وتحبها. إنه مثل بائع الحلوى الذي يتركها على الرصيف ويذهب، فإذا جاء الصبيان فأخذوها، أو اختطفتها الكلاب فأكلتها، ثار وفار وذم الناس والأقدار.

لو كان هذا الأب عاقلاً لعلم أن لقاءك ابنته على غفلة منه ومن أبيك وعلى انفراد منه ومنها كالتقاء البارود بالنار، فمَن ظن أنهما يلتقيان ولا يكون الانفجار كان أولى به سكنى العصفورية[١].

* * *

من هنا جاء البلاء يا أيها الآباء، من إهمالكم تربيةَ أبنائكم وبناتكم على الدين والأخلاق. ولو كنتم تسهرون كل ليلة مع أهلكم بدلاً من السهر في المقاهي والنوادي، ولو كنتم تقرؤون لهم كل ليلة شيئاً من كتب السيرة أو الحديث أو التفسير، ولو وضعتم في نفوسهم خوف الله، ولو اخترتم لهم المدارس الصالحة المصلحة وألبستوهم -بنين وبنات- لباس الحشمة والستر ورعيتموهم في البيت وخارج البيت، لما وصل الشاب إلى البنت ولا انخدعت البنت بالشاب، ولما كان شيء من هذا الفساد.

وانتبهوا -بعد ذلك- لهذه القصص وهذه الأفلام، ففي كثير من الكتب سم، وفي كثير من الأفلام سم، وفي صحبة بعض الرفاق والرفيقات سم. فإذا كنتم تخشون على أبنائكم وبناتكم من السم الذي يهلك الجسد، فلماذا تتركونهم يتجرعون السم الذي يهلك الدين والخلق؟ فانتبهوا يا أيها الآباء، بل لتنتبه الأمهات أولاً، فإن صلاح البنت من أمها، وفسادها من أمها. الأم هي القدوة للبنت

---

(١) كانوا إذا أرادوا الإشارة إلى الجنون والمجانين ذكروا «العصفورية»، وكان فيها مستشفى للأمراض النفسية والعقلية، وهي في الحازمية التي كانت قرية صغيرة ثم صارت ضاحية من ضواحي بيروت (مجاهد).

في لباسها وفي سيرتها، وهي المشرفة عليها، الملازمة لها، فيا أيتها الأم: أنت المسؤولة أمام الله وأمام الناس، فلا تتبعي موضة باريس وروما بل موضة الدين والخلق.

إن سبب كساد البنات هو هذا الفساد؛ إنها لا تتزوج إلا البنت المحتشمة المستقيمة، أما الفاسقة فلا يقبل بها أحد. حتى الشاب الفاسق إذا أراد الزواج لم يرضَ أن يتزوج إلا بنتاً صالحة صينة شريفة. هذا مشاهد، فلا تضيعن -يا أمهات- مستقبل بناتكن، ولا تحسبن أنه يمكن أن نصير مثل الإفرنج فإن العربي يستحيل أن يتهاون بعرضه. وفي أوربا مثل يقول: «حك جلد الروسي يظهر التتري»، وأنا أقول: «حك جلد الشاب المتفرنج منا يمّحِ الطلاء ويبدُ العربي الأول».

كان لنا في الصغر رفيق يحب التظاهر بالآراء الجديدة الغريبة، ويردد ما يقوله بعض ساقطي المروءة من الأوربيين بأن المرأة حرة بجسدها تصنع به ما تشاء وأن العفاف لا قيمة له، وأمثال هذا الكلام الفارغ. فاتفقنا على اختباره، وكانت له أخت شابة، فأمَلنا الحديث إليها وعرّضنا بها وأوهمناه أن لبعضنا صلة بها، فلما سمع الحديث عن أخته انقلبت عيناه في أم رأسه، واحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، ونسي ذلك الهذر كله، ووثب على المتكلم فأطبق على عنقه، ولولا أننا أنقذناه منه لقتله.

هذه هي أخلاقنا أيها الشاب الذي كتبت إليّ. إننا نلهو بذكر الحب ونقرأ قصصه وقصائده ونراه شيئاً جميلاً ما دام بعيداً عنا، فإذا دخل بيوتنا ووصل إلى بناتنا أو أخواتنا لم تعد مسألة فن نستمتع به، وشعر نطرب لترديده، بل صارت مسألة شرف

وعرض. وشرف العربي إذا تدنس لم يغسله إلا الدم، والعربي يزهق روحه ويبذل حياته في سبيل عرضه، فهل تنتظر من الأب العربي أن تحتال على ابنته وأن تختلي بها فيقبّلك من بين عينيك، ويلف ابنته بورق النايلون كما تُلَف الشكلاطة ويقدمها إليك؟

أرجو أن تصير يوماً أباً... لترى ما يصنع الأب العربي بمن يتصل بابنته ويجتمع بها من وراء ظهره، ويومئذ تحمد ربك على أنك خرجت من هذه الورطة ورأسك بين كتفيك، وحياتك باقية عليك! ويومئذ تعرف أنه لا يبقى من الحب إذا قابل الشرف إلا كما يبقى من التمثال الجميل المصنوع من الثلج إذا واجهته عين الشمس!

* * *

حقوق الزوجين

أذيعت سنة ١٩٧٢

(١)

أنا أتلقى كل أسبوع أربعين كتاباً من المستمعين، ولكن أغرب كتاب هو الذي تلقيته من أيام. كتاب من زوج وزوجته قد وقعه كلاهما، خلاصته أنهما في خلاف على تحديد حقوق كل منهما، وهما يقبلان بما يقول الشيخ الطنطاوي.

والجواب أن كلام الشيخ الطنطاوي لا يُلزِم أحداً ولا يستوجب اتباعاً، وما أقوله من عندي رأيٌ من الآراء يحتمل الخطأ والصواب. ولكن الذي يلزم المسلم والمسلمة ويجب عليهما اتباعه هو حكم الشرع.

والشرع الإسلامي جاء للحياة كلها بجميع مظاهرها ومشكلاتها، ففيه ما يكفل صلاح الحاكم والرعية، والفرد والجماعة، والبيت والسوق. هذه حقائق وليست من أقوال الدعاية، وافتحوا أي كتاب من كتب الفقه تروا صحة ما أقول. وقد حدد الإسلام حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها، وسأسرد في هذا الحديث والأحاديث التي تليه هذه الحقوق.

وأحب أن أذكركم بشيء قبل أن أدخل في الموضوع، هو أن الأصل في الزوجية أن تقوم على المحبة والتسامح، وليست شركة تجارية يؤدي كل من الشركاء ما يجب عليه ويأخذ ما يحق له ويمضي في سبيله.

إن الله جعل بين الزوجين مودة ورحمة وأقام الحياة الزوجية على المحبة، فإذا وُجدت المحبة صارت بها السيئات حسنات، والعاشق يرى العذاب من محبوبه عذباً والشقاء نعيماً. وإذا فُقدت المحبة صارت الحسنات سيئات.

وعينُ الرضـا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ
ولكنّ عينَ السّخط تُبدي المساويا

* * *

وأول حق للمرأة على الرجل هو المهر.

عند الإفرنج تدفع المرأة المهر للرجل، فإذا لم يكن لها مهر لم يتزوجها أحد، أما الإسلام فقد أوجب على الرجل أن يدفع المهر للمرأة.

والمهر (الصداق) حق للمرأة وحدها، لا لأبيها ولا لأمها ولا لأخيها ولا لعمها، ليس لأحد حق فيه، ولا تُجبَر على أن تشتري به الجهاز والفرش لبيت زوجها، ولا الكسوة لها، بل تأخذه وتتصرف به كما تريد. والأحسن أن يُشترى لها به عقار أو أسهم في شركة قوية، أو حليّ تدّخرها لحين الحاجة إليها، على أن تكون من الذهب الذي تقل فيه الصناعة، فإن الحلي كلما زادت الصنعة

فيها خسّت ونقص ثمنها عند بيعها.

الحق الثاني: النفقة.

لو كانت المرأة تملك مليوناً إرثاً من أبيها أو من أمها وكان الرجل لا يملك إلّا راتبه الذي لا يجاوز ثلاثمئة ريال كانت نفقتها واجبة عليه، ولم تكلَّف هي بأن تنفق ريالاً من المليون.

ولكن النفقة بحسب طاقة الرجل، لا تكلَّف نفسٌ إلّا وسعها.

الحق الثالث للمرأة: أنه إذا كان للرجل امرأتان أو أكثر وجب عليه أن يقسم وقته بين الجميع بالتساوي، ووجب عليه (عند جمهور الفقهاء) التسوية بينهن في المعيشة، في المسكن والطعام والشراب. أما الحب وميل القلب فهو أمر لا يملكه الإنسان، فإذا كان يحب إحدى نسائه أكثر فإن الله لا يؤاخذه على ذلك، بشرط ألّا ينشأ عن ذلك تفضيل لها في القسمة وظلم لغيرها.

ومن حق المرأة التصرف الكامل بأموالها، فليس لزوجها شركة فيها معها ولا إشراف ولا وصاية عليها. مع أن أكثر القوانين المدنية الأجنبية تجعل للزوج حق الإشراف والوصاية على مال الزوجة (ونجد من نسائنا -مع ذلك- من تتمنى أن تكون مثل نساء الغرب!).

* * *

وعلى الرجل أن يحتفل بالزواج.

إن حفلات العرس مشروعة ما لم يكن فيها إسراف ظاهر

وإضاعة للأموال أو ارتكاب للمحرمات. وقد ورد في الحديث أن فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت[1]، فضرب الدف والغناء في الأعراس مشروع، بشرط أن تغني المرأة للنساء لا للرجال، ولا تغني بالمكبر فيُسمع صوت المغنية في الحيّ كله.

هل انتبهتم إلى قوله «فصل ما بين الحلال والحرام» في الحديث؟ الأمر واحد، ولكن الذي يطلبه بالحرام يهرب ويستتر، ويكون خائفاً مذعوراً، والذي يطلبه بالحلال تُقرَع له الدفوف وتُنشَد له الأناشيد ويُجمع له الناس. مثل اللص الذي يخطف صحن الطعام من المطعم فيهرب به إلى الحارة أو الجبل أو يأكله حاراً يحرق جوفه، وبين من يشتريه بماله فيدخل علناً ويقعد على الكرسي، فيحضرونه له حتى يضعوه بين يديه فيأكله آمناً.

فإظهار الزواج ووليمة العرس من السنة. ولما تزوج عبد الرحمن ابن عوف قال له الرسول ﷺ: «أَوْلِمْ ولو بشاة». ولما تزوج الرسول صفيةَ أَوْلَمَ بتمر وسُويق، إذ لم يكن عنده غيرهما. فلا يستدين الزوج أو يبيع داره ليعمل هذه الوليمة، بل ينفق بمقدار استطاعته ويمدّ رجليه على مقدار لحافه.

ومن حق المرأة على الرجل أن يحسن عشرتها، وأن يمازحها ويداعبها، لا أن يقعد في بيته كأنه كسرى على إيوانه، ولا يأمر كأنه الحجاج في ديوانه، ولا يكون عابساً باسراً لا يُكلَّم إلّا بعريضة

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «فصل ما بين الحلال والحرام الدُّف والصوت في النكاح». رواه النسائي وابن ماجه وأحمد والترمذي وقال: حديث حسن (مجاهد).

عليها الطوابع، فليست هذه سيرة رسول الله ﷺ في بيته. أفلا تحب أن يكون لك أسوة برسول الله ﷺ وأن يكون هو قدوتك؟

أنا أسأل من كان على هذه الشاكلة من الأزواج: ماذا يصنع لو وقفت في الشارع أمام داره فرقة رياضية أو كشفية، تقوم بعرضة من العرضات أو لعبة من اللعب، وأحبت زوجته أن تراها؟ أنا لا أشك أنه سيغضب ويصرخ بها. أما رسول الله ﷺ فإنه لما جاء الحبشة يلعبون بالحراب في المسجد، وأحبت عائشة أن ترى، وقف لها حتى تستند إليه وتستتر به فترى، وطال الأمر فقال لها، «حسبك؟» (أي: هل اكتفيت) فقالت: لا، فوقف ثم قال لها: «حسبك؟»، قالت: لا، فما زال واقفاً حتى شبعت من النظر. ولقد سابقها فسبقته، فلما سمنت وثقلت سابقها فسبقها وقال: «هذه بتلك».

فمن يعامل منكم امرأته هذه المعاملة؟

ولقد سمعتم مني في الإذاعة خبره مع زوجاته لمّا كنّ يختصمن، حتى إن إحداهن لتلطخ وجه الأخرى بالطبيخ. ولا تظنوا أن بيت رسول الله ﷺ خلا من الخلافات الزوجية؛ كان فيه شيء من ذلك، ولكنه ﷺ كان يحتمل، وكانت الواحدة تراجعه وترد عليه، وربما قاطعته فلم تكلمه ساعات.

وأنا أعرف من الأزواج من إذا قالت له زوجته: "ناولني السكين" أو "اقطع معي اللحم"، يغضب ويرى ذلك تعدياً على مقامه ومساساً برجولته، ولكن رسول الله ﷺ كان يساعد أهله في أعمال البيت إذا كان في البيت، وقطع مع زوجته اللحم، وكان يرقع ثوبه.

وقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وفي رواية: «خيركم خيركم لنسائه». فكلما كانت معاملة الزوج لزوجته أحسن كان أقرب إلى الخير وأشبه بفعل رسول الله ﷺ.

والرسول في حجة الوداع، في الخطبة التي ألقاها في ذلك اليوم العظيم فجمع فيها أطراف الخير ودلَّ المسلمين على طريق الهدى، لم ينسَ أن يوصي بالنساء ويؤكد الوصية.

فالزوج المسلم يحتمل الأذى من زوجته، الرسول احتمل، والصحابة احتملوا، وعمر العظيم (الذي كان صناديد الرجال يرتجفون من هيبته) جاءه -مرةً- رجلٌ يشكو إليه سوء خلق امرأته، فسمع امرأة عمر ترفع صوتها عليه فرجع، فلما ابتعد انتبه له عمر فدعاه، فسأله: "ماذا تريد؟"، فقال الرجل: "يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك أمراً، فوجدت عندك مثله". قال: "أحتملها لحقوق لها عليّ".

ولكن اسمعوا ولتسمع النساء: إنه يحتمل ما لم يكن في الأمر معصية، ويساير المرأة ما لم يكن في مسايرتها مخالفة للشرع، فإذا كانت تطلب ما يحرّمه الشرع فلا يجوز له أن يسايرها.

* * *

ومن حقها عليه ألّا يبالغ في الغيرة.

الغيرة منها ما هو حسن ومنها ما هو سيء، فالغيرة بمعنى أنه لا يتركها تخرج كاشفة عن عورة، ولا يدعها تخرج إلى الشرفة تنشر الغسيل وهي بثياب البيت فيراها الجيران، ولا يسمح لها بالذهاب

إلى السوق المزدحم والدخول بين الرجال... هذه وأمثالها غيرةٌ مستحسَنة مطلوبة. أما التدقيق والمبالغة ومنعها مما لم يمنعها منه الشرع، فلا، لأن الشارع أعرف بمصالحنا منا.

وقد نهى الشرع عن تتبع غلطات المرأة وإساءة الظن بها، حتى إن المسافر يُكرَه أن يأتي من السفر ليلاً فيفاجئ زوجته ليرى ماذا تصنع، بل يأتي نهاراً.

والشرع جاء بمكارم الأخلاق، فلا إفراط في الغيرة (حتى يجعل حياة المرأة عذاباً متصلاً فتضيع الثقة ويحل محلها سوء الظن والمحاسبة على النظرة والكلمة)، ولا تفريط فيها حتى يمشي مع زوجته في الشارع وهي مكشوفة الرأس والصدر والساعد، يده بيدها لا يخجل ولا يغار، أو يدخل بها الحفل المختلط فيقدمها لتراقص الرجل الأجنبي، فيضمها إليه ويضم هو زوجة الأجنبي يراقصها، أو يأخذها إلى السيف[١] (البلاج) فتكشف جسدها كله للناس جميعاً.

إن من وصل إلى هذه الدرجة نزل عن رتبة الحيوان، لأن الحيوان الذكر يغار على أنثاه ويحميها، والديكان لا يجتمعان في مكان بل يقتتلان حتى يطرد أحدهما الآخر، يقاتل دفاعاً عن دجاجاته، والقط ينازل القط حماية لقطته، وليس في الحيوان ما لا يغار إلّا الخنزير.

---

(١) السِّيف هو ساحل البحر. وهي كلمة يخطئ في لفظها كثيرون فيجعلونها كالسَّيْف الذي يُقتتَل به، والصواب أنها بكسر السين وسكون الياء (فنلفظها كما نلفظ كلمة ريف) (مجاهد).

أفيرضى هؤلاء أن يكونوا خنازير البشر؟!

ومن حق المرأة على الرجل أن يعلمها ما تحتاج إليه من أحكام دينها، فإن كان لا يعرفها فليأخذها إلى المسجد لتحضر الدرس فتتعلمها.

وأن يوسع عليها بالنفقة، بشرط ألّا يصل ذلك إلى حد التبذير. وقد خبّرَ الرسول ﷺ إن الإنفاق على الأهل في الحدود المشروعة المعروفة، من غير تقتير ولا تبذير، أفضل من الصدقة.

ومن حقها عليه ألّا يطلقها بغير سبب، فإن طلاق الزوج زوجتَه بلا سبب -إذا نشأ عنه أذى لها- كان حراماً وكان المطلق آثماً.

(٢)

الحديث السابق كان عن حقوق الزوجة على الرجل، أما حقوق الزوج على المرأة، فلا بد لبيانها من مقدمة قصيرة.

الزواج شركة، ولكل شركة ولكل جمعية رئيس، فمَن هو رئيس الشركة الزوجية؟

قلنا بأن الزوج هو الذي يدفع المهر، وهو المكلف بالإنفاق ولو كان متوسط الحال أو كان معدوداً من الفقراء وكانت امرأته تملك مليوناً. فالإنفاق واجب عليه وحده، وكل واجب يقابله حق، ففي مقابلة هذا الواجب له حق الرياسة. وهو أحق بها من المرأة لأنه أقوى جسداً، ولأنه هو الذي يكسب، ولأنه أقوى عقلاً

وفكراً. وأنا أعرف أنه قد يكون من النساء من هنّ أقدر من الرجال وأعلم (كعائشة مثلاً)، ولكن هذا نادر والنادر لا يبنى عليه حكم.

وقد بيَّنَ الله ذلك بقوله: ﴿وَلَهُنَّ (أي النساء) مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾.

ولكن هذه الرياسة محدودة، فليس له إيذاؤها، ولا التدخل في أموالها، وإنما له أن يطالبها بطاعته فيما ليس فيه معصية. فإذا كانت قد استوفت معجَّل مهرها وقبضته كاملاً، لم يَجُزْ لها الخروج من البيت إلّا بإذنه. وليس معنى هذا أنه يسجنها ويغلق الباب عليها بالمفتاح ولا يدعها تخرج أصلاً، فإن لها الخروج لزيارة أبويها، الزيارة المعروفة (مرة في الأسبوع مثلاً)، ولهما زيارتها والدخول عليها، ولها زيارة أقربائها، ولها الخروج إلى الصلاة مع الجماعة إذا كان المسجد قريباً ولا يترتب على الخروج مفسدة، وإلّا كانت صلاتها في بيتها أفضل. وقد ورد في الحديث النهي عن منع النساء من المساجد، ولكن ورد أيضاً أن عائشة قالت: «لو علم رسول الله ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد». فإذا كان هذا أيام عائشة فكيف بأيامنا نحن؟

فليكن الرجل حكيماً ناظراً للمصلحة، وربما كان من المصلحة أن يأخذها يوم الجمعة أو بعض أيام الجمع إلى النزهات أو يسافر معها في الصيف إلى بلد قريب (إن كان يقدر على ذلك). وأدنى الدرجات أن يأخذها معه إلى زيارة أقربائه وأقربائها أو نساء أصدقائه.

أما خروجها وحدَها إلى الأسواق -على ما هو مشاهد من

أحوالها- أو ركوبها وحدها في سيارات الأجرة، أو ذهابها وحدها لزيارة صديقاتها وقريباتها، إن كان بغير إذنه كان الإثم فيه عليها وحدها، وإن كان بإذنه وكان يخشى عليها الفتنة بهذا الخروج كان في الإثم شريكها. والناس يظنون الفتنة هي التعدي على عفافها فقط، مع أنه لو كان في الطريق شبان فسّاق يصفرون لها، أو يلقون إليها بالكلام، أو يمشون وراءها خطوات، أو يشيرون إليها، لكان ذلك من الفتنة التي تمنع من خروجها وحدها.

هذا إذا خرجت بالحجاب الشرعي، أما إن خرجت بالثوب القصير الذي يكشف الساق أو العباءة المفتوحة التي تظهر الصدر، فلا يجوز ولو كان زوجها معها، ولو كان معها عشرة من إخوتها.

والحق للزوج في رسم الخطة لتربية الولد، واختيار مدرسته، وانتخاب رفاقه. وله الحق بأن يمنعها من مصاحبة الأسر التي لا يرتضي سيرتها ولا يعجبه مسلكها. وإذا اختلفا في شيء من هذا قدم رأيه.

أما تنظيف الدار وطبخ الطعام وأمور البيت، فعليه أن يتركها لها ولا يتدخل فيها إلّا أن يرى خللاً ظاهراً وانحرافاً بيّناً، كأن تكون المرأة مهمِلة لأمر النظافة أو مبالِغة فيها، فله تنبيهها وإرشادها.

ومن حق الزوج على زوجته ألّا تكلفه من النفقة ما لا يطيق، فلا تطلب لكسوتها أكثر مما يقدر عليه. تقول المرأة: وماذا أعمل إذا كانت صاحباتي كلهن يلبسن الثياب الغالية. هل أظهر أنا بينهن بثياب دون ثيابهن؟

أنا أقول لها ماذا تعمل: لا تصاحب إلّا من هي من طبقتها

وحالها مثل حالها. لماذا تصاحب الغنيات فتضطر لمسايرتهن ومجاراتهن، فتؤذي زوجها وتنغص عيشته وعيشتها؟

ومن حق كل منهما على الآخر أن يحفظ سرّ صاحبه. إنه ليس أقبح ولا أشنع من الرجل الذي يقعد في مجلس فيحدّث أهل المجلس عما يكون بينه وبين زوجته، ومن المرأة التي تحدث النساء من الزائرات أو المزورات عما يكون بينها وبين زوجها. هذه أسرار يحرم إفشاؤها.

* * *

وطاعة المرأة زوجَها من طاعة الله ورضاه عنها قريب من رضا الوالدين. والمرأة أمانة عنده، فيجب عليه إذا أراد رضا الله أن يحسن إليها وأن يعاشرها بالمعروف، وأن يجعل قدوته وأسوته رسول الله ﷺ في معاملته نساءه. وعليها أن توقره وتحترمه، ولا تتدخل في شؤونه الخاصة به، ولا تعصيه في معروف.

فإذا وقف كل من الزوجين عند حد الشرع ونظر إلى الآخر نظرة حب صلحت الحال واستقام الأمر. وليس معنى هذا أنهما لا يختلفان، فليس في الدنيا زوجان لا يختلفان، ولكن المهم ألّا يدعا الخلاف يبيت، وأن يصطلحا قبل المنام، وخيرهما الذي يسبق إلى الاعتذار والسلام والكلام.

والأزواج العقلاء يكون بينهما من الخلاف والشقاق ما لا مزيد عليه، فإذا جاءهما ضيف أو زارا أحداً أظهرا المودة والمحبة. يجب أن تبقى الخلافات الزوجية بين الزوجين فقط. ربما يغضب الرجل

فيقول لزوجته ما لا يسرّها، ولكن ذلك يبقى بينه وبينها، فإذا جاء ذكرها أمام الناس أثنى عليها. والمرأة تصنع مثل ذلك، قد تقول له ما يكره، ولكن إذا ذُكر أمام الناس تمدحه وتثني عليه.

ولماذا نطلع الناس على خلافاتنا؟ الناس منهم صديق واحد في المئة يتألم لنا (ولا يجوز أن نؤلم أصدقاءنا)، وتسعة وتسعون ليسوا أصدقاء فهم يشمتون بنا، أو يسمعون ولا يبالون. فلماذا نعرّض أنفسنا للشماتة أو الإهمال؟

فيا أيها الأزواج من رجال ونساء: اكتموا خلافاتكم عن الناس، ولا سيّما عن الأهل، فلا يجوز أن يتدخل الأهل إلّا في الخلافات الخطيرة. أنا اختصاصي في أمور الزواج والخلافات الزوجية، مارست النظر فيها سبعاً وعشرين سنة، وأنا أؤكد أن تدخل الأهل يعقّد الأمور ويفسدها. الله جعل بين الزوجين مودّة ورحمة، فهما يختلفان ويصطلحان ولهما طرائق خاصة للمصالحة، فإذا تدخّل الأهل انسد طريق الصلح. أما في الحالات الخطيرة التي يترجح معها فصم عرى الزوجية وتعذّر استمرارها، فلا بد من تدخل الأهل.

قلت لكم مراراً أن الخلافات الزوجية أمر طبيعي، وكلما مرت المدة زاد عدد الخلافات، فقد تكون في السنة الثانية بمعدل مرة في كل عشرة أيام، ثم كلما مرت سنة أو زاد الأولاد ولداً تضاعف العدد، فإذا مرّ على الزواج ربع قرن صار الخلاف البسيط بمعدل مرة في اليوم والخلاف الشديد مرة في الأسبوع!

ومتى صار الزوجان عجوزين صار الخلاف تسلية لهما. والله

صحيح! أعرف رجلاً كبيراً وامرأته أكبر منه، كان خلافهما مستمراً وكانا يستمدّان منه نشاطاً. هي تقص قصصه وهو يسرد أخبارها، يعملان من الحبة قبة، ومن القطرة بركة. ثم توفيت المرأة وبقي وحده، ولم يبقَ له ما يتسلّى به، فهرم في ستة أشهر وظهرت عليه الشيخوخة وفقد ذلك النشاط.

فالخلافات الزوجية الصغيرة لا يُخشى منها، لكن يجب أن تُزال قبل الليل؛ لا تجعلوها تبيت. إن الرجل بعد الخناقة يندم وينتظر أن تأتي هي فتصالحه، وهي تندم وترقب أن يجيء فيصالحها، كل واحد ينتظر الآخر، فتطول المدة وتشتد العقدة. فليسرع أحدهما إلى الصلح.

وإذا جاء يصالحها فلتبتسم بسرعة، وإذا أقبلت تصالحه فليعجل بالصفح، ولا يقابلْ أحدُهما الصلحَ بالإعراض. ثم إن الذي يجيء للصلح يلقي الكلمة مخلصاً بها من قلبه، لا يعتذر بصوت جاف ووجه مقلوب، فإن اللهجة أصدق تعبيراً من المدلول اللغوي. قد تقول لرفيقك: «صباح الخير»، فيعتبرها شتيمة فيغضب، وتقول له: «قبّحك الله»، فيعتبرها ممازحة فيضحك. العبرة باللهجة.

* * *

والخلاصة أن الزوج بمثابة رئيس الدولة، وهي وزيرة الداخلية، ولكل منهما حقوق وعليه واجبات. فالمرأة عليها أن تطيع الرجل بالمعروف وتبايعه على الرياسة العائلية، وعليه أن يحسن معاملتها وأن يقبلها على علّاتها. وإذا وجد فيها ما لا يعجبه

فلا يحاول تغييرها، فإنها لا تتغير. وليس هذا كلامي أنا ولكنه كلام سيد الرسل محمد ﷺ، قال: «إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقوّمه كسرته، فاستمتع به على عوجه».

وسبب الشقاق وسبب الوفاق من الرجل أولاً. نعم، منك أيها السامع الكريم، إن عاملتها بالعصبية والغضب صارت عصبية مثلك، وإن عاملتها بالاحترام والأدب احترمتك وتأدبت معك، وإن طوّلتَ بالك ووسّعتَ صدرك وسّعتْ صدرَها.

وهذا على الغالب، وإلّا فإن من الناس مَن يقابل الإحسان بالإساءة والخير بالشر، فهذا إما مريض النفس أو ناقص التفكير، وعلاجه ممكن، لأن أمراض النفوس كأمراض الأجسام، ما أنزل الله داء إلّا وأنزل له دواء، فادرس المرض وفتّش عن الدواء.

* * *

المرأة الشرقية

أذيعت سنة ١٩٧١

موضوع اليوم حادثة واقعية. وأنا إذا ذكرت حادثة فإنما أذكر شيئاً مضى عليه زمن ومات أهله، ولا أشير إلى حادث جديد لئلا يستاء أصحابه ويجدوا فيه تعريضاً بهم وفضحاً لهم.

عرفت رجلاً كان متزوجاً، وكانت له زوجة وأولاد، ولم تكن زوجته ملكة جمال (كما يقولون في هذه الأيام)، ولكنها لم تكن قبيحة، وكانت تخلص له وتصدق في خدمته، لا تعرف من دنياها إلا بيتها وزوجها وأولادها، تعمل لهم من الصباح من حين تفتح عينيها إلى الليل إلى أن تأوي إلى فراشها، تتولى بنفسها تنظيف الدار، وغسل الثياب، وإعداد الطعام، والعناية بالأطفال الذين ترضع الرضيع منهم من ثديها وتحمل الصغير منهم بيدها، وتزيل الأوساخ عنهم بنفسها، وتهتم -فوق ذلك كله- بزوجها، فإذا اقترب موعد رجوعه إلى البيت بدّلت ثيابها، وسرّحت شعرها، وزينت وجهها، ولبست خير ثيابها، ونسيت تعبها وكدحها طول يومها فاستقبلته بالوجه المشرق والفم الباسم.

فما كان منه -مقابل هذا كله- إلا أن ذهب إلى فرنسا في

مهمة رسمية (أيام كان الفرنسيون عندنا في الشام) فعاد من هناك بزوجة أخرى فرنسية!

وانتظرنا أن تكون فاتنة الجمال بارعة الحسن، حتى أنساه جمالُها حقَّ زوجته وأنساه حسنُها الواجبَ عليه من الرعاية لولده، فإذا هي امرأة عادية، هزيلة كأنها مسلولة تُعَدّ عظامها من وراء جلدها، ما فيها إلا شعر أشقر كأنه شعر عرنوس الذرة (وإن كان شعر الذرة يجفف ويُغلى فينفع في إذابة الرمال والأملاح وشعر المدام لا ينفع بشيء!).

ورأتها الزوجة فهاجت، ثم راضت نفسها على السكون والرضا وكتمت ألمها في قلبها، ووضعت على وجهها بسمة السرور وفي صدرها مثل النار. وكانت تخدم زوجها وولدها فراحت تخدم معهم هذه المرأة الأجنبية، ولم تبدل شيئاً، إلا أنها كانت تتزين كل عشية كما كانت تفعل فتجده لا يلتفت إليها فكفّت عن الزينة، ثم لم يكفه هذا كله حتى أصبحت يوماً فإذا محضر المحكمة يقرع بابها، فيبلغها ورقة طلاقها.

وخلا الجو لهذه الدخيلة، فبقيت في الدار وحدها وبقي الأولاد معها، ولم تكن تعرف لغتهم ولا يعرفون لغتها، فكانوا يلقون منها ما لا يُطاق، فلحقوا بأمهم. وبقي العروسان وحدهما في شهر العسل في جنة الغرام. ولكن شهر العسل لا يدوم وأيام الغرام لا بد أن تنقضي. ومضى شهر العسل وضعف الغرام وولّت أيامه، وابتدأ عهد الشقاء.

كانت الزوجة الأولى تقوم من الفجر، فتؤدي بالصلاة حق

ربها ثم تقبل على بيتها، فلا تطلع الشمس حتى يكون الفطور قد أُعِدّ والأولاد قد تهيؤوا للذهاب إلى مدارسهم، والرجل قد استعد للغدوّ على عمله. فصارت المدام لا تنهض من الفراش إلا في الضحوة الكبرى، لا تعرف عبادة لربها ولا رعاية لزوجها، فيذهب إلى عمله بلا طعام أو يعد هو الطعام لنفسه. وكان يرجع الظهر فيجد الطعام معَدّاً والبيت نظيفاً، فصار يرجع فيجد المدام لم تفرغ بعد من تزيين وجهها ومن ترجيل شعرها، ويجد الدار مهمَلة وسخة والمطبخ خالياً من الطعام، فيأتي بالطعام من المطعم. فإذا كان المساء وأراد أن يخلو بأهله يفاجَأ بالباب يُقرع وأصدقاء المدام قد وفدوا رجالاً ونساء مختلطين مثل اختلاط الدوابّ في الإسطبل!

وذهبت السكرة وجاءت الفكرة، فصحا الرجل وإذا هو لم يربح إلا أن هدم بيته، وظلم زوجته، وشرّد أولاده، وأشقى نفسه! فتدارك ما بقي، فطلق هذه المرأة الأجنبية وأعادها إلى أهلها، وأرجع زوجته واعتذر إليها.

* * *

فيا أيها السامعون من الرجال:

لا تخدعْكم الظواهر، ولا تفتنْكم النساء الأجنبيات، فإنه ليس في الدنيا نساء أشد إخلاصاً وأعظم وفاء من نسائنا.

نساؤنا -والله- خير نساء الأرض، فمن تركهن وتزوج بالأجنبيات كان كمن رمى قطعة من الألماس ليأخذ بدلاً عنها

قطعة من الزجاج.

فهل رأيتم عاقلاً يستبدل بالألماس الزجاج؟!

❊ ❊ ❊

من حديث الرجال والنسوان

نشرت سنة ١٩٦٦

حمل إليّ البريد كتاباً ليس في ذيله إمضاء كاتبه ولا على ظرفه اسم مرسله، يقول فيه أنه من المستمعين إلى أحاديثي في «صوت الإسلام» هذه الأيام، وكان من قبل يستمع إليّ من إذاعة الشام، ثم قرأ لي في الصحف مقالات وفي المجلات، وهو يرجو أن أحدّث أو أكتب عن «النسوان اللواتي طلقن الحياء، وتركن الأدب، ولم يعدن يوقرن الزوج ولا يحترمنه...» إلى آخر كلامه الذي يدلّ أوله على آخره، والمكتوب -كما قالوا- يُقرَأ من عنوانه.

والعفو -أولاً- يا أيتها السيدات من قسوة هذه العبارات، فإنها عباراته هو كما جاءت في الكتاب. ويظهر أن صاحبنا (الذي لم «يشرّفنا» بمعرفة اسمه الكريم) عاجز عن إدارة بيته، فهو يريد أن يسخّرني ويسخّر الإذاعة أو الصحافة لنعينه على امرأته!

والموضوع -على كل حال- يستحق أن يُكتب فيه.

وإذا كان في النساء مثل من وصف أخونا الكاتب، يتمردن على الزوج ويعصين العشير، فإن في الرجال من يظلم المرأة

ولا يرعى لها حقها ولا يقوم بأمرها. فإذا كتبت عن هؤلاء النساء وجب أن أكتب عن أولئك الرجال.

وحديث الرجال والنسوان طويل، وقلَّ أن تخلو دارٌ من ظالم ومظلوم، كالمؤجر والمستأجر في بلاد الشام، إذا لم يكن المؤجّر الظالمَ كان هو المظلوم، وإذا لم يكن المستأجر المظلوم كان هو الظالم! ولقد اشتغلت قاضياً شرعياً أمداً طويلاً أطّلع على دخائل الأسر، فرأيت في ملفات القضاء أنماطاً من هؤلاء ومن هؤلاء.

من ذلك أنه قد رُفعت إليّ دعوى على معلم متقاعد، أمضى في التعليم عمره حتى صار يرى الدنيا كلها مدرسة ويرى كل من فيها تلاميذ، فهو يتوقع من كل من يكلمه أن يطيعه وإلّا وَقَفَه «وقفة الجزاء»، وجهه إلى الجدار ويداه مرفوعتان فوق رأسه وهو قائم على رِجل واحدة... أو كلفه أن يكتب خمسمئة سطر!

وكان بينه وبين زوجته خلاف، فأحببت أن أسمع منه ومنها لأقرّب ما بينه وبينها. فتكلم هو أولاً وأفاض ما شاء، وأنا صابر عليه، وأستمع إليه، فلما جاءت هي تتكلم تجهّم لها وقلب وجهه في وجهها، وبرطم وبربر(١)، فخافت منه وجمدت الكلمات على شفتيها.

قلت: دعها تتكلم. قال: فلتتكلم. ولكنه قال ذلك بلسانه، وقال بنظرات عينيه وعبوسة وجهه غيرَه، فلم تستطع الكلام خوفاً منه.

---

(١) برطَمَ وبَرْبَرَ من العامي الفصيح.

فقلت له: إذا كان هذا وأنت أمام المحكمة، فكيف تكون وهي معك وحدها في الدار؟

وآخر من «الزكرتية»[1]. ذهبنا نكشف على مسكنه فإذا هو يقفل الباب على زوجته بالمفتاح، فلا تخرج من الدار ولا يدخل الدار عليها أحد، وهي مسجونة سجناً مؤبداً بحكم هذا القراقوش[2]. فلما دخلنا وجدناها لا تستطيع الكلام أمامه ولا تجرؤ على رفع نظرها إليه، ووجدنا الأولاد قد أمرضهم الخوفُ منه، فهم صفر الوجوه ضُمر الأبدان، إن سمعوا همسةً منه اضطربوا لها وارتجفوا منها.

وأمثال هذا كثير.

ورأيت مرة دعوى، وقفت أمامي فيها امرأة هزيلة ضئيلة كأنها الفأرة، وكانت هي المدعية، وكان المُدّعَى عليه رجلاً طويلاً عريضاً، له شوارب قائمة كسارية المركب وطربوش طويل مائل، وكل مظاهر العنترية. فأشرت إلى الشرطي أن يقف إلى جنبه لئلا يكون منه شغب في المحكمة، وسألته عن ورقة «الهوية» فقال: إنها معها.

قلت: كيف تكون معها؟

قال: يا سيدي، ضربتني هي وأمها وأخذتاها مني.

---

(١) وهي طبقة في الشام كطبقة «الفتوّات» في مصر و«أبو جاسر» في العراق، ولا أدري ماذا يُسمَّون هنا في المملكة إذا كان هنا من أمثالهم.

(٢) قراقوش الذي يُضرب المثل بأحكامه مهندس عسكري، وهذه الحكايات مدسوسة عليه.

فصرخت المرأة بصوت كأنه صوت الدجاجة وهي تبيض: "كذب يا سيدي". وانطلق من فمها -والعياذ بالله- سيل من الشتائم الوسخة التي لم أسمع مثلها في حياتي، رغم أني قرأت كل أشعار الهجاء في الأدب العربي! فأشرت للشرطي أن يدع الرجل ويذهب إليها فيسكتها، وإذا بفأرة ثانية عجوز (هي أمها) تبرز من بين صفوف المشاهدين فتعاونها وتشرع بـ«مونولوج» جديد جعلني أترحم على النبّاش الأول، وأتمنى -من فظاعته- أن نعود إلى شتائم المرأة لأنها أهون! ولم يستطع الشرطي إسكاتها حتى استعان بمُحضر المحكمة وبالفراشين!

وانتهت المحاكمة، وبدأ الناس ينصرفون والرجل العنتري (أبو الشوارب القائمة) لا يزال واقفاً. قلت: ما لك؟ لماذا لا تنصرف؟ قال: إن المرأة وأمها تنتظران في الطريق، ولا أستطيع الخروج. فبعثت مَن هدّدهما بالابتعاد أو بالسجن، فمشتا وخرج.

ولا تظنوا أني أتخيل أو أبالغ، فإن هذه الحادثة وقعت أمامي.

وامرأة أخرى كانت هي تستلم راتب زوجها ولا تعطيه إلّا «خَرْجيّة» يومية كالتي يأخذها الأولاد، وإذا تأخر عن الرجوع إلى البيت لم تفتح له الباب.

* * *

هذان مثالان، للمرأة المظلومة والمرأة الظالمة، والرجل الجبار والرجل العاجز، وكلا الطرفين شر، وليس من العقل ولا من الشرع أن يكون الرجل طاغية متجبراً، لا يُكلَّم إلّا بإذن ولا يُخاطَب

إلّا بعريضة، وأن يكون بطّاشاً مرعباً، يسب ويضرب ويصيح الليل والنهار، ويسلط قوته ورجولته على امرأة ضعيفة وأولاد صغار.

لا، وليس من الشرع ولا من العقل أن يكون مستضعَفاً ذليلاً لا أمر له في بيته ولا نهي، وليس إلّا عبداً عمله تحصيل المال وتسليمه إلى السيدة المصونة والجوهرة المكنونة، لتنفق منه بلا حساب وهو ينتظر الأوامر واقفاً عند الباب!

لا هذا ولا ذاك، ولكن كما كان الرسول ﷺ في بيته ومع أهله: «لين في غير ضعف، وشدة من غير عنف». هو رب الدار وهو القوّام عليها، وله الإشراف على سيرة الزوجة ولباسها في خروجها، وله الموافقة على اختيار من تعاشر، وله وضع الموازنة وتوجيه الأولاد، وإذا اختلفا في أمر كان رأيه أَولى بالاتّباع.

ولكن ليس معنى هذا أن يكون في الدار كالقائد في المعركة، لا يناقَش ولا يجادَل ويُطاع على كل حال، وليس معناه أن يتدخل في الصغيرة والكبيرة من أمور البيت، فإن أمور البيت من شأن المرأة وله هو الإشراف العام.

والذي أنصح به من يقرأ مقالتي هذه من الأزواج أن يتفقا -من الآن- على المسائل التي هي من حق الزوجة، كترتيب دارها واختيار ثيابها، والعناية بولدها وتنظيم مواعيد استقبالها، مع مراعاة رأيه في ذلك كله. وهذا الرأي يبديه لها مرة واحدة وعليها ألّا تخرج عليه، وعليه هو ألّا يتدخل بعد ذلك في شأنها.

* * *

وأحب أن أنبه هنا إلى أمور كنت أشرت إليها في أحد أحاديثي في الإذاعة، هي:

أولاً: أن يعلم كل زوجين يختلفان أن الخلاف لا بد منه، ولو سلم بيت زوجي من الخلاف لخلا منه أشرف بيت أقيم على ظهر الأرض، وهو بيت رسول الله ﷺ. فلا يحزنا على نفسيهما ولا يحسبا أن هذا الأمر مقصور عليهما وحدهما، فليس في بني آدم زوجان لا يختلفان لأن الله لم يخلق اثنين برأي واحد ولا بعقل واحد.

ثانياً: ودواء هذا الداء أن يغضي كل منهما حيناً ويتساهل حيناً. وإذا وقع الاختلاف فلا يتمسك كل منهما بموقفه، بل يقترب هو خطوة وتقترب هي خطوة حتى يتلاقيا. والخطوة الأولى يجب أن تخطوها الزوجة.

ثالثاً: إن الأمر التافه إذا لم يعقبه اعتذار من الزوجة أو من الزوج وعفوٌ وتسامحٌ من الزوج أو من الزوجة، وإذا أصرت هي على الحرد[1] والتقطيب، واستمر هو على الغضب والإعراض، تحول هذا الأمر التافه إلى خلاف خطير. وأكثر حوادث الطلاق التي مرت عليّ كان سببها هَنات هَيّنات لم يعقبها اعتذار ولا تسامح، فجرّتْ إلى نتائج وبيلات.

رابعاً: ألّا يحفظ كلٌّ منهما أخطاءَ الآخر ويكررها ليثبتها في ذهنه كما يكرر التلميذ دروسه، فكلما كان خلافٌ أخرج الخمير والفطير ونبش الماضي والحاضر، فسد الطريق على الصلح وقضى

(١) كلمة الحَرَد من العامي الفصيح.

على الإمكان في عودة السلام. وشر من هذا أن يروي هذا للناس، فيخرق في الصلة الزوجية خرقاً لا يُرقَع ويترك في القلب جرحاً لا يلتئم.

خامساً: ألّا يُطلع الزوجان على خلافهما أحداً، لا أهله ولا أهلها، ولا أمه ولا أمها، لأن ذلك يعقّد الأمور ويزيد الشقاق. ثم إنه لا فائدة منه لهما، ومَن يطلعانه عليه إما أن يكون عدواً لهما فيشمت بهما، وإما أن يكون صديقاً لهما فيتألم ولا يستطيع أن يتكلم.

والله قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة، فهما يستطيعان حل الخلاف بينهما بنظرة فيها حب، أو كلمة فيها لين، أو لمسة فيها عاطفة، أو غير ذلك مما يكون بينهما ولا يشركهما فيه غيرهما. وقد وجدت -بعد اشتغالي هذه المدة الطويلة في القضاء- أن أكثر ما يزيد الخلاف ويزيل الائتلاف، وينغّص عيش الزوجين ويجرّ عليهما أسوأ العواقب، هو تدخل الأهل بينهما.

هذا والحديث عن الرجال والنساء طويل، ولعل لي إليه رجعة إن شاء الله. وليس المهم أن يعجب القراء بقولي بل المهم أن يعملوا بنصحي.

* * *

قصة طلاق

أذيعت سنة ١٩٦٧

من عاداتي التي أتمنى الخلاص منها أني أطيل سهر الليل وأني أقيل ساعة من النهار.

وإني لفي قيلولتي أمس، وأنا وحدي في الدار، وإذا بالباب يقرع قرعاً حسبت معه أن قد زُلزلت الدار. فهببت فَزِعاً وقد ضرب الصداع ما بين عيني، وذهبت مسرعاً أفتح الباب، فإذا أنا أجد رجلاً لا أعرفه ولم أرَه في عمري، فغضبت وقلت: من أنت؟ وماذا تريد؟

قال: أنا سائل.

فهممت أن أعطيه شيئاً، فقال لي: لا، أنا لا أسأل صدقة ولكن أسأل مسألة.

قلت: أفي هذه الساعة وعلى هذه الحال؟

وحدثتني النفس بأن أغلق الباب دونه لأعلّمه آداب الزيارة وأعراف المجتمع، ثم رأيت من سذاجته وأُلهمت من رغبة الثواب فيه ما جعلني أقول له: تفضل.

وتفضل فدخل، وشرع يتكلم، فكان كذلك المحامي الفرنسي

الذي بدأ مرافعته بقوله: "لمّا خلق الله آدم..." فقال له القاضي: "ابدأ من بعد الطوفان"!

وبدأ صاحبي قصته من يوم عرف آدم (الذي هو السائل) حواء، وكيف خطبها وكيف تزوج بها. وذهب يميناً يذكر تفاصيل فرعية وذهب شمالاً، وأَبدأَ وأعاد، وشرح وحَشّى، حتى طلَعتْ روحي فصحت به: اختصر وادخل في الموضوع.

قال: نعم، الموضوع. الموضوع أني كنت أشرب الدخان فتركت الدخان...

قلت: وأنا ما لي وما لشربك الدخان وتركك الدخان؟

قال: لقد ساء خلقي لأني تركته، وجئت الدار تعبان وقميصي مبتل من العرق، فوجدت زوجتي قد أدارت مروحة السقف، فقلت لها: يا فلانة، أغلقي المروحة.

قالت: يا شيخ، الدنيا حر.

قلت: أنا أخاف أن تؤذيني.

قالت: وأنا يؤذيني وقوفها.

قلت: وقّفيها.

قالت: ما أوقفها.

قلت: أنت قليلة الذوق.

قالت: لا، بل أنت قليل الذوق.

فطار الغضب بعقلي، فوثبت عليها لأضربها. قالت: لا بالله، ما تضربني، ليش تضربني؟ سرّحني إلى أهلي.

قلت: قومي إلى أهلك، «كذا» عليك وعلى أهلك.

قالت: ليش تسب أهلي؟ أهلي أحسن من أهلك.

وامتد الحوار على هذا الأسلوب العاطفي الناعم المهذب الحواشي حتى صرخ بها: قومي الآن، اذهبي إلى أهلك.

قالت: لا، ما أذهب إلّا بالطلاق.

قال: والله أطلقك.

قالت: طلقني.

قال: أطلقك؟

قالت: أنا أريد الطلاق، طلقني.

قال: أنتِ طالق.

قالت: لا، ما أقبل الطلاق إلّا في المحكمة.

قال: في المحكمة.

ونهض فلبس ثيابه وذهب إلى القاضي. فقال القاضي: تمهل، وفكر، فإن الطلاق من الحلال الذي يبغضه الله.

قال: أريد الطلاق.

قال: اذهب الآن وارجع غداً، لعلك تهدأ.

قال: لا، الآن!

قال: إذن، فطلقها طلقة واحدة.

قال: لا، إلّا ثلاثاً.

فطلقها ثلاثاً، وسجل ذلك القاضي، وأعطاه صكاً شرعياً أطلعني عليه وقال: أنا بالله ثم بك!

قلت: وماذا أعمل لك أنا؟

قال: تكتب لي فتوى!

قلت: فتوى؟ وهل أنا مُفْتٍ؟ أنا يا أخي لست مفتياً ولا قاضياً. لقد كنت قاضياً في الشام، أما هنا (في المملكة) فلا سلطان لي.

قال: والله ما أنصرف حتى تكتب لي فتوى. لقد دلّوني عليك وخبّروني أنك تقول أن طلاق الغضبان لا يقع.

قلت: ومن أنا حتى أقول؟ هذا قول الفقهاء. ولكنك لست غضبان. الغضبان الذي لا يقع طلاقه هو الذي يبلغ به الغضب ألّا يرى ما أمامه ولا يدري ما يقول، فكأنه في تلك اللحظة مجنون. هذا الذي لا يقع طلاقه، وأنت لبست ثيابك وذهبت إلى القاضي وكلمته وطلقت أمامه، وصَكَّ لك صكاً بالطلاق. فكيف أفتيك بأنك الغضبان الذي لا يقع طلاقه؟

قال: ويش أصنع؟

قلت: تتزوج المرأة غيرك، فإن طلقها حلَّت لك.

قال: ومن أين نأتي برجل يتزوجها مساءً ويطلقها صباحاً؟

قلت: إذا اشترطتم على الزوج أن يطلقها صباحاً، أو بعد أسبوع، أو بعد سنة، كان الزواج فاسداً. كل زواج مؤقَّت بوقت لا يسمى زواجاً ولا يختلف عن الزنا، وهو حرام كالمتعة. وهذا هو المحلل الذي لعنه رسول الله ﷺ وسماه «التيس المستعار». إن الحكم الشرعي -يا رجل- أن المرأة إذا طُلِّقت ثلاثاً لا ترجع إلى زوجها حتى يتزوجها رجل آخر زواجاً حقيقياً، ويدخل بها دخولاً حقيقياً، فإن اشتُرط في العقد أنه للتحليل أو حُدّد له وقت لم يصح الزواج أبداً، وكان دخوله بها زنا. وإن لم يشترطوا ذلك في العقد صراحة ولكن نوَوْهُ وكان مرادهم أثموا وإن صح العقد ظاهراً.

فلما سمع ذلك كاد يبكي وقال: زوجتي، أم ولدي، وهي حامل مني، وهي امرأة طيبة، ولكن الشيطان...

قلت: ومن قال لك أن تسمع كلام الشيطان؟ لقد خبّرنا الله أن الشيطان عدو لنا وأن علينا أن نحذره، فلِمَ تركتَه يتحكم بك؟ أمِن أجل مروحة دارت أو وقفت، تطلق امرأتك وتخرب بيدك بيتك؟

قال: لا بالله، ما من أجل المروحة، ولكن هي طوّلتْ لسانها.

قلت: صحيح، تكون المرأة صالحة مصلحة، موفرة مدبرة، سامعة مطيعة، تتعب النهار من أجل زوجها وولدها وتسهر الليل من أجل زوجها وولدها، ثم تقول كلمة حمقاء أو تجيب جواباً طائشاً فتفسد الأمر وتسبب المشكلات.

ولو أن الرجل «طوّلَ بالَه» عند الغضب، أو أخذ بأدب الرسول ﷺ فذهب فتوضأ، ولو أن المرأة -حين ترى زوجها غضبان- تسكت عنه وتكفّ عن جوابه، لا تلقي على نار غضبه

دلواً من البنزين بدلاً من أن تلقي عليه دلواً من الماء... لو فعلا ذلك لذهبت ثلاثةُ أرباع أسباب الطلاق. ولقد لبثت قاضياً ومستشاراً في محكمة النقض (التمييز) سبعاً وعشرين سنة، فوجدت أن أكثر حوادث الطلاق سببها غضب الرجل الأعمى وجواب المرأة الأحمق، والأمر على الغالب تافه لا يستحق الاهتمام.

قال الرجل يائساً: والآن، «خلاص»... ما بقي لي أمل؟

قلت: بلى، بقي لك أمل؛ إن الدين سهل والفقه واسع، وإن طلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر في بعض المذاهب الصحيحة طلاقاً واحداً (وإن اعتبرته المذاهب الأربعة وجمهور الفقهاء ثلاثاً). فهل سبق لك أن طلقت زوجتك قبل هذا؟

قال: لا بالله.

قلت: اذهب إذن فردّها، واحتسبه طلاقاً واحداً، ولا تَعُدْ لمثلها، فما كل مرة تسلم الجرة.

* * *

دفاع عن المرأة

نشرت سنة ١٩٦١

وردت عليّ رسالة من رجل يعرض عليّ فيها مشكلة، نصفها من مشكلات القلوب التي لا تملك حلَّها الألسنةُ ولا الأقلام، ونصفها من المشكلات الاجتماعية، يجري فيها القلم، وينطلق اللسان.

يقول أنه متزوج بامرأة تحبه حباً لا يعرف له شبيهاً في قوته وشدته إلّا كرهه هو لها، فهو يبغضها بمقدار ما تحبه. وقد كان يحبها، ثم نشأ في نفسه هذا البغض لها لأنه ملّ منها ومال إلى غيرها، وهو يتمنى أن يجد منها ذنباً أو تقصيراً فيجاهرها ببغضه، وينفث في وجهها سم غضبه، فلا يجد منها إلّا الطاعة والإخلاص والتفاني في الخدمة.

ثم يحاول أن يجد لنفسه عذراً في كرهها بأنها عامية ليست من المتعلمات، وتلك التي عرفها وتعلّقَ بها تحمل أعلى الشهادات، وأن هذه قعيدة البيت وتلك ذات «وظيفة» تغدو إليها وتروح منها، وأنها جميلة، وهو لم يعد يرى في زوجته -منذ عرف الأخرى-

جمالاً، وأن الزوجة كانت قبله امرأة لغيره فمات عنها، وهو يخشى أن تكون مشؤومة تموّته هو أيضاً.

ويسألني: هل يطلقها ويتزوج الأخرى؟ وإذا لم يطلقها فكيف يقيم معها، على ما يرى من قبحها وما يحس من كرهه إياها وتعلقه بتلك المثقفة الجميلة ورغبته بالزواج بها؟ وإذا طلقها فماذا يصنع بأولاده منها؟

وكنت أقرأ رسالته وأحاول أن أتذكر: أين قرأت مثل هذا الكلام؟ لقد أدركت أنه ليس جديداً عليّ وأني سمعته من قريب، ولكن أين؟ وتذكرت أني قرأته في كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي (الذي نشرتُه وأخي ناجي من شهور)، إذ يذكر في فصل من فصول الكتاب أن رجلاً سأل مثل هذا السؤال، فأجابه ابن الجوزي بأنها لا تعرض للإنسان شدة ولا يصيبه بلاء إلّا بذنب أذنبه، فإذا رأى ما يكره فليشتغل بالاستغفار يخفف عنه البلاء.

وإن من نعم الله على المؤمن أنه إذا رأى خيراً فحمد الله عليه كان ذلك له حسنة، وإن مسّه ضر فصبر عليه كان ذلك له حسنة، ولعل الله ما ابتلاه بهذه المرأة إلّا ليقلع عن ذنبه ويرجع إلى ربه.

* * *

وأنا أقول لهذا الأخ الذي كتب إليّ:

أخبرني أولاً: هل أنت جاد في اعتقادك شؤم المرأة وأنها قد موتت رجلاً قبلك، فأنت تخشى أن تموّتك؟ هل هي التي موتت الزوج الأول؟ إذن فاعبدها واتخذها إلهاً. كلا يا أخي، بل الموت

والحياة بيد الله وحده، والمرأة لا تميت ولا تحيي ولا تخلق ذكراً ولا أنثى. وإن من أجهل الجهالة أن يموت الزوج فيُنسَب إلى شؤم المرأة، وأن تلد المرأة البنات فتقول أن ذلك من المرأة. لا، بل كل ذلك من الله، فدع عنك هذه الأوهام.

* * *

وتقول أنك لم تعد تحبها. وقد قال رجل مثلك مرة هذا الكلام لعمر بن الخطاب، وشكا إليه أنه لم يعد يحب امرأته، فقال له عمر: ويحك! وهل البيوت كلها تبنى على الحب؟ فأين الرعاية والوفاء وحفظ الحقوق؟

ولو كانت امرأتك أجمل الخلق، وكنت تحبها أشد الحب، أتظن أن الحب يبقى أبداً كما هو؟

لقد كتبت في «الحب» شيئاً كثيراً وفي بناء الزواج على الحب وحده، وهو في كتبي المطبوعة فلست أعيده الآن، ولكن أؤكد القول بأن الحب الفائر الثائر تخمد على الأيام فورته، وتهدأ ثورته، وينقلب حيناً إلى صداقة هادئة، وغالباً إلى نفرة قاطعة.

فلا تأسَ على الحب فإنه ذاهب على كل حال. ولأنْ يكون الزوج -لمّا اختار الزوجة- نظر مع الحب إلى المصلحة والتوافق بين الأهل، وحكّمَ عقله مع عاطفته، فتحول الحب إلى صداقة باقية هي خير من الحب... خيرٌ له من أن يكون الزواج للحب وحده، أي للشهوة العارضة، لم يسمع فيه مع صوت القلب صوت العقل، فمات الحب وجاءت النفرة.

أما الجمال، فخبّرني أولاً: ما هو الجمال؟ هل تستطيع له تعريفاً؟ لقد قرأت أنا كتباً في علم الجمال ورأيت له تعاريف كثيرة، فلم أجد فيه مقالة أصدق مما قاله طاغور: «الجمال هو الإخلاص». نعم، وأنت تعرف هذا -لو فكرت- من نفسك؛ إذا ذهبت إلى السينما فرأيت في الفِلم امرأتين: ممثلة شقراء طاغية الجمال، صارخة الفتنة، يانعة الجسم، متفجرة الشباب، وأخرى ليست بالجميلة التي تسبي القلوب، فرأيت هذه الجميلة «تمثّل» المكر والخيانة والغدر والقسوة، والأخرى «تمثّل» الوفاء والفضيلة والرقة والإخلاص، ألا تحس أن جمال الجميلة ينقص في عينك كلما أوغلَتْ في إجرامها، وأن الأخرى يزيد جمالها، حتى تبصر هذه الشقراء حية بغيضة تتمنى أن تتمكن منها فتشد بأصابعك على عنقها أو تصفع بكفك وجهها، وترى الأخرى آية في الجمال؟

فلِمَ كان هذا التحول؟ كان لأن الجمال كما يقول طاغور: ليس بالأعضاء الظاهرة وحدها، ولكن بما يفيض عليها من نور الإخلاص. والمرء يرى أمه جميلة في عينيه لأنها مخلصة له، وقد تكون عجوزاً مجعّدة الوجه غائرة العينين، خدّاها حفرتان وفمها مغارة بلا أسنان وجسدها حطبة تلبس الثياب.

وهب أن زوجتك ليست جميلة، فهل تطلقها؟

إن الطلاق ما شُرع ليكون لهواً ولا تسلية، ولا أُعطي الحق فيه للرجل ليستعمله بلا سبب، وإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق. فإن لم يكن طلاق المرأة لفساد فيها (يتعذر معه استمرار الزواج بها) كان الطلاق ظلماً للمرأة وعدواناً عليها.

فهل يكون قبح المرأة ذنباً لها تستحق من أجله الطلاق؟ إنها ليست هي التي قبّحت نفسها، ولكن الذي خلقها خلقها هكذا، فإذا طلقتها من أجله تكون قد اعترضت على الله الذي خلقها.

أوَ لم ترَها قبل الزواج؟ إذا كنت قد رأيتها فالذنب ذنبك لأنك رضيت بها فأخذتها على غير جمال، وإذا كنت لم ترها فالذنب ذنبك أيضاً لأنك «أسقطت» حقك في رؤيتها، مع أن الرسول ﷺ أمر من يريد الزواج بامرأة أن ينظر إليها لأنه أحرى أن يؤدم بينهما (أي أن يتفاهما ويكون بينهما ود ووئام). يراها بعد أن يعزم على زواجها، وتكون رؤيتها بحضور وليها وهي مستترة لا يبدو منها إلّا وجهها وكفاها فقط، لا أنه يفتح عينيه كلما رأى امرأة ويرى منها بحجة أنه يريد الزواج.

وخبرني يا أيها الأخ: هل أنت آية في الجمال؟ أليس في الرجال من هو أجمل منك جمالاً؟ فماذا يكون رأيك إذا قالت زوجتك: أنا لم أعد أحب هذا الرجل وإني أكرهه وأريد الزواج بمن هو أجمل منه؟

أتعذرها؟ أتقبل منها؟

لا، لا تقل: "أنا رجل وهي امرأة، وإنه يحق لي ما لا يحق لها"، فإن الرجل والمرأة في هذا سواء في نظر الإسلام، وقانون الإسلام هو أعظم قانون يقرر التسوية في الحقوق بين المرأة والرجل حين يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

* * *

أما جهل هذه وعلم الأخرى: فليس يضرك الأول ولا ينفعك الثاني، بل ربما انقلب علم المرأة وحملها الشهادات -في بلادنا- وبالاً على زوجها.

أما كون التي تحبها موظفة: فما أدري أأنت في عقلك حين ترى في هذا مزية وفضلاً؟ هل تراها مزية لزوجتك وأم ولدك أن تسيب الدار وتهمل الأولاد، وتذهب إلى ما لم تُخلَق له، وتزاحم الشباب وتسد عليهم طريقهم في الحياة لمجرد التقليد للإفرنج؟!

إن الإفرنج يشكون من هذا ويتمنون أن يكون عندهم مثل الذي كان عندنا. أما بلغكم خبر المرأة التي قالت للشيخ محمد بهجة البيطار في أميركا لما سمعت منه وصف حال المرأة المسلمة فصاحت: "أسكنوني في تلك البلاد ستة أشهر ثم اقتلوني".

نساؤنا في نعمة لا يعرفن مقدارها. في أوربا وأميركا إذا بلغت البنت عشرين قال لها أبوها: "أنا لم أعد مكلفاً بك، فاذهبي واكسبي عيشك". فتذهب المسكينة تغامر وحدها، تقوم مرة وتنكب على وجهها مرات، وتشبع مرة وتجوع أياماً، وربما أكلت بثدييها أو بذلت عرضها في سبيل رغيفها. والمرأة عندنا يكلَّف زوجها بالإنفاق عليها، فإن لم يكن لها زوج فأبوها أو أخوها أو عمها، أو أي واحد من الموسرين من أهلها، وهي معزَّزة مكرَّمة لا تكلَّف عملاً.

لا يا أيها الأخ؛ ليست المرأة المطلوبة هي التي تشتغل خارج البيت، بل التي تعيش في البيت وللبيت ولأهل البيت. فلا تكن من الذين يقلدون تقليد القردة، بل ارجع إلى قواعد الشرع وأحكام

العقل ودواعي المصلحة، تجد أن الشرع والعقل والمصلحة، كل ذلك يشهد لما أقول أنا.

واعلم أن نساءنا أفضل نساء الأرض وأشرفهن وأخلصهن للزوج وللولد، وأنه لا يضيرهن ألّا يَكُنّ حاملات شهادات ما دمن يحملن هذه القلوب المخلصة الوفية التي ليس لها نظير.

فانزع من فكرك أمر الطلاق، فما وضعه فيه إلّا إبليس. واذكر أن الأولاد يربطون بينكما إلى الأبد، وأنك قد تطلّقها فتصير غريبة عنك ولكنها لا تكون أبداً غريبة عن ولدها، وستبقى هي أمه كما تبقى أنت أباه، فالأولاد يمسكون بك بيد ويمسكون بها باليد الأخرى فلا تفترقان.

فعد إلى زوجتك وإلى بيتك وإلى ولدك، وارحمها واسأل الله الصبر عليها والقناعة بها.

والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

الطلاق ليس لهواً

أذيعت سنة ١٩٧٣

قابلت صديقاً من أصدقائي القدامى فوجدته مهموماً شارد النظرات، أكلمه الكلمة فلا يفهمها حتى أنبهه أو أهزّه بيدي، فينتبه كأنه كان نائماً وأفاق ويقول لي: نعم؟ فأقول له: كنت أكلمك، فيقول: عفواً، ماذا قلت؟

فقلت له: ما شأنك؟ ما لك اليوم؟

قال: لا شيء.

قلت: بل هناك أشياء لا شيء واحد، وإذا أنكرتَ بلسانك اعترفتَ بملامح وجهك وشرود نظرتك.

قال: أقول لك الحقيقة، فأنت صديقي. إني أريد طلاق زوجتي.

قلت: أعوذ بالله، ليش؟

قال: والله، نصيب.

قلت: هل وقعت منها خيانة، هل...؟

فقاطعني قائلاً: أبداً، أبداً، هي -والله- مثال الأمانة والشرف.

قلت: فما لك إذن؟

قال: والله مللت منها. صار لي في عشرتها نحو ثلاثين سنة.

وكنت أمزح معه فقلت له: قبحك الله! أتجزيها على عشرة ثلاثين سنة بالطلاق وتحتجّ بأنك مللت منها؟ أنا لي في صحبتك أكثر من هذه المدة، فماذا تقول إذا أنا جئت إليك فقلت لك: "لقد مللت من رؤية طلعتك البشعة وأحاديثك الفارغة، وأريد أن أقاطعك مقاطعة أبدية". فماذا تقول عني، وماذا يقول من يسمع هذه القصة؟ ألا يقول أني -إذن- مجنون أو قليل الوفاء أو غدار، أو ما يشبه هذا؟ إن هذا وأكثر منه سيقال عنك إذا طلقت امرأتك لهذا السبب السخيف، لأن حقها عليك أكبر من حقي أنا عليك.

قال: إني لم أعد أراها جميلة.

قلت: لقد استمتعتَ بجمالها لمّا كانت صبية جميلة، فلمّا كبرت أردت أن تتخلص منها. وهل الجمال وحده هو عماد الحياة الزوجية؟ وأنت، ما شاء الله، هل أنت جميل؟ أليس عندك مرآة ترى فيها وجهك الذي صار فيه من التجاعيد والأخاديد مثل الذي تراه في وجهي أنا، وترى فيها صلعتك وشيبتك؟ استحِ على نفسك يا رجل! ماذا تقول لو جاءتك هي تقول: "أنا لم أعد أراك جميلاً، وأحب أن تطلقني لأتزوج غيرك"؟ دعني أقل لك كلمة يأمر بها الدين والخلق والشرف وكل مبدأ إلهي وبشري؛ هي أن تضع نفسك موضع الشخص الآخر وأن تحب له ما تحبه لنفسك. فتصور لو كنت أنت المرأة وهي الرجل، كيف كنت تحب أن تعاملك؟

قال: إذا لم أطلقها أتزوج عليها.

قلت: لماذا ويحك؟ ألا يكفي أن تظلم واحدة حتى تظلم

الأخرى؟ أنت على أبواب الستين، فماذا تصنع بالزواج؟ ثم هل تتزوج كبيرة أم صغيرة؟ إن كنت تريدها كبيرة...

فقاطعني وقال: لا والله، بل بنت عشرين!

قلت: ولماذا اخترتها بنت عشرين؟

قال: لأفرح بها شيبتي.

قلت: وهي تكدر بك شبابها! ماذا تصنع بك بنت العشرين وأنت عجوز؟ أم تظن أنك تشتريها بمالك الكثير؟ وهل المرأة ماشية تُشترى بالمال؟! إنها طرف في العقد يحق لها أن تنال من المتعة مثلما تنال أنت، وإلا فاذهب فتزوج أنت بنت ستين.

قال: أعوذ بالله!

قلت: وبنت العشرين تقول عنك: "أعوذ بالله". إن الله أحل تعدد الزوجات وأباح الطلاق، ولكنه لم يحل التعدد إلا بشروط، منها أن تقوم بحق الزوجة الجديدة؛ حقها المالي والجسدي، وأن تعدل بينها وبين القديمة، وألا تظلم هذه ولا هذه. وأنت بزواجك بالصغيرة تظلمها لأنك تقرن شبابها بشيخوخة لا تحبها ولا ترضاها، وتظلم القديمة لأنك تتزوج عليها بلا داع ولا لزوم، وتظلم نفسك لأنك تهدم ما بقي من صحتك بهذا الزواج.

ولم يبح الله الطلاق ليكون لعباً ولهواً، والفقهاء قد نصوا على أنه إذا طلق الرجل زوجته بلا ذنب منها ولا تقصير وكان يعلم أن هذا الطلاق سيؤذيها في النفس أو المال (كأن تبقى أرملة لا يُقبِل الرجال على خطبتها لكبر سنها أو يصيبها العوز والفاقة) كان آثماً بهذا الطلاق معاقَباً عليه عند الله، لأنه ظلم وقد حرّم الله

الظلم. والطلاق الجائز هو الذي يكون له سبب شرعي أو سبب عرفي معقول، ويكون بعد النصح والتحذير، أي أن الزوج عليه أن يحتمل من زوجته ويصبر ما لم يكن في عملها انتهاك محرم من محرمات الشرع، وأن ينصحها ويعظها ثم يؤدبها التأديب المعروف، فإذا لم تصلح واستمر الخلاف وسّط حكمين (حكماً من أهله وحكماً من أهلها)، فإذا لم يُوفَّقا إلى الإصلاح وتيقّن أنه لا سبيل إلى الوفاق طلقها طلقة واحدة في حالة الطهر.

هذا هو الطلاق السني، أما اللعب بالطلاق، وأن يكون الزوج في السوق يبيع القماش فيقولَ له المشتري: المتر بريال، ويقول هو: بريالين، فيختلفا فيقول: عليه الطلاق أنه بريالين، ويطلق المرأة وهي في بيتها، تعدّ له الطعام وتنظف له البيت. أو أن يتألم من ذنب صغير فيسرع إلى الطلاق، فهذا ليس بالطلاق الشرعي ولا طلاق السنة، بل هو معصية وبدعة ومن يفعله آثم.

❋ ❋ ❋

فيا أيها الرجال، إن الزواج والطلاق ليسا لعبة أولاد، بل هما أساس الحياة، فاتبعوا فيهما حكم الشرع وداعي العقل، لا تتبعوا نزوات النفس ووثبات الهوى. والسلام.

❋ ❋ ❋

كلمة في الطلاق

نشرت سنة ١٩٦٤

كنت أدير مفتاح الراد[١] فسمعت المذيع من محطة[٢] «كذا» يقدم للسامعين ندوة نسائية تُسأل فيها «فلانة» التي قال المذيع إنها «زعيمة نسائية» عن رأيها في قانون الأحوال الشخصية في مصر وعن شكوى الجمعيات النسائية منه.

وحاولت هذه **الزعيمة النسائية** أن تتكلم بلغة عربية فصيحة وأن تتخذ لها أسلوب المفكرين، فلم يجِئْ معها إلا كلام مفكك الروابط مقطع الأوصال، نصفه عامي شبيه بالفصيح وليس بالفصيح.

وخلاصة ما قالته: إن هذا القانون قد مرّ عليه زمن طويل لم يعدَّل فيه وإن وضع الطلاق بيد الرجل والسماح بتعدد الزوجات مخالفٌ للآراء التقدمية (كذا!) ولرغبات الجمعيات النسائية.

(١) الراد كلمة وضعتها للراديو؛ لأنه يردّ علينا الصوت الذي تذيعه الإذاعة، ثم إن حروفه مقاربة لحروف «الراديو».

(٢) تسميتها «محطة» لا وجه له في اللغة لأن الأصوات تطير منها ولا تحط فيها، ولكني آثرت إفهام الناس فقلت ما يقولون.

وأنا في العادة لا أصغي إلى أمثال هذه الأحاديث ولا أشغل نفسي بالردّ عليها، ولكني رأيت الأمر أخطر من أن نسكت عنه، وفهمت أن هذه الآراء -على بطلانها- تلقى من الشبان والشابات مَن يستمع إليها ويأخذ بها، فأحببت أن أعلق عليها هذه المرة فقط.

وليس في هذا التعليق مناقشة لهذه التي قالوا أنها زعيمة نسائية ولا رد عليها، لأني أرفع نفسي عن هذا الرد -مهما تواضعت- ولا أرتضي لها هذه المناقشة، ولكن فيه حقائق ينبغي بيانها.

وأول هذه الحقائق: أن هذه الزعيمة النسائية (ولا أسمّي هنا واحدة ولا أريد واحدة بعينها) تعيب أحكام الطلاق وتعدد الزوجات في قانون الأحوال الشخصية المصري مع أنه ليس في مصر قانون للأحوال الشخصية[1] والحكم فيها بالفقه الإسلامي، بل بالمذهب الحنفي، إلّا مسائل معدودة أخذ فيها بغيره. وهي حين تعيب هذا القانون أو تنسب النقص والظلم إليه إنما تعيب الإسلام نفسه وتنسب إليه الظلم، وهذا ما يسمى بلسان الشرع كفراً ورِدة وخروجاً من الدين.

والثانية: أن هذه الزعيمة النسائية -كما دعتها الإذاعة- تبني انتقاصها لأحكام الطلاق والتعدد بأنها قديمة وليست من التشريعات الحديثة التقدمية. مع إن الحسن والقبح لا يقاسان بالجِدّة والقِدَم، وإذا كنا ننبذ كل قديم لقدمه فلننبذ العقل لأن

(١) القانون الوحيد للأحوال الشخصية هو قانون سوريا لسنة ١٩٥٣، وقد وضعت أنا مشروعه كما هو مصرح به مذكرته الإيضاحية المطبوعة معه. وليس فيه إلّا ما له دليل شرعي، ولكنا لم نتقيد فيه بمذهب معين.

العقل أقدم من الشرع! وهذا ما فعلته الزعيمة النسائية... وهذا ما تريد أن نقلدها فيه.

ولكن كلا[1] يا آنسة (أو يا سيدة، فما أدري أي شيء أنت). هذا مقياس يصلح لقياس الأزياء والموضات ولا يصلح لقياس الأحكام الشرعية، فلماذا لا تقتصرين على الكلام فيما تعرفين من «الموضات» والأزياء وتتركين ما لا تعرفين من أمور الفقه والقانون؟

* * *

وبعد، فما الذي يزعج «الهانم» من أحكام الطلاق؟ ولماذا تغضب وتثور، وتبكي وتشد شعرها، وتخبط[2] الأرض برجليها إن كان الطلاق بيد الرجل؟ وبيد من تريد أن يكون؟

إن الطلاق إما أن يكون في يد الرجل وحده، أو أن يكون في يد المرأة وحدها، أو أن يكون باتفاقهما معاً، أو أن يكون في يد القاضي. ما لهذه الأربع خامسة.

فإذا جعلناه في يد القاضي خالفنا حكم الشرع وتبوأنا مكاناً من النار (أي حجزنا لأنفسنا مقعداً في جهنم، وأنا أفسر للزعيمة لتفهم المقصود!) ثم لم نربح إلا فضيحة الأسرة، وكشف ما يجب ستره من عيوبها، وإطلاع القريب والبعيد على أخفى أسرارها الزوجية، ثم لا يكون من ذلك كله فائدة لأن القاضي يحكم

(١) «كلا» كلمة ردع، وليست للجواب بالنفي.
(٢) تخبط: من العامي الفصيح.

في الخلافات الظاهرة: في دين مالي أو في جرم جزائي أو في حق من الحقوق الظاهرة، أما الأمور الزوجية (التي تتداخل فيها المصالح والعواطف والرغبات والميول وتعمل فيها العقد النفسية والتخيلات والأوهام) فلا ينجح القاضي ولا الشهود ولا الخبراء في تقديرها.

ولقد وليت القضاء أكثر من ربع قرن، وكنت سنين طوالاً رئيس المحكمة الشرعية الكبرى في دمشق، ولبثت في محكمة النقض من سنة ١٩٥٣ إلى أن أحلت على التقاعد. أي أني بقيت ثلاث عشرة سنة أدقق أحكام قضاة الشرع في سوريا جميعاً، فإذا قلت ما قلت فإنما أقول عن خبرة ومعرفة وتحقيق.

بل أنا آتيكم بدليل أظهر وأقوى: سيد قضاة الدنيا وأعظم ولد آدم، محمد بن عبد الله ﷺ لما رفعت إليه قضية مُغيث وبريرة، هي تطلب الفراق لأنها تكرهه مثل كرهها الموت، وهو يرفض الطلاق لأنه يحبها مثل حبه الحياة، وسعى رسول الله نفسه للتوفيق بينهما، فكانت تقول : أتأمرني يا رسول الله؟ (أي: إن أمرتني أطعت، لأن من عصى رسول الله كفر)، فيقول: لا ، ولكن أشفع. فتقول: يا رسول الله، لا أريده. فكان رسول الله ﷺ يقول: ألا تعجبون من حب مغيث لبريرة ومن بغض بريرة لمغيث؟

وهاكم محاكم أميركا وغيرها من البلاد التي جعلت حق الطلاق للقاضي، فانظروا في أحكام قضاتها تروا عجباً: مبكيات ومضحكات وغرائب لا تكاد تُصدَّق، ذكر أمثالاً منها أخونا مصطفى السباعي رحمة الله على روحه في كتابه عن المرأة، وهو

من أجود الكتب المصنفة في هذا الموضوع[١].

فوضع الطلاق في يد القاضي وحده لا فائدة منه، وهو مخالف لأحكام الإسلام، ولم يقل به أحد من علماء المسلمين. فهل نجعل الطلاق باتفاق الزوجين، لا ينفرد به أحدهما، ولا يوقع إلّا برضاهما واتفاقهما؟ إن هذا لا يمكن، لأن الزوجين إذا كانا مختلفين لم يتفقا على شيء وإن كانا متفقين لم يقدما على الطلاق.

قد يتفقان على الطلاق في حالات نادرة، أما في الأعم الأكثر فلا يكون اتفاق، بل يكون فيهما ظالم لا يريد الطلاق ومظلوم يريده ولا يحصل عليه.

فهل نجعله بيد المرأة؟ يمنع من ذلك مبدأ حقوقي معروف عند أهل الفقه والقانون (لا عند الزعيمة النسائية) هو أن «الغُنْم بالغرم»[٢]، والطلاق غنم مالي للمرأة وغرم على الرجل، هي تأخذ مؤجل مهرها ونفقة عدتها وهو يدفع ذلك، فإذا جعلنا الطلاق بيدها خالفنا هذه القاعدة.

وقد رأيت حوادث كثيرة كان للمرأة فيها حق تطليق نفسها باشتراط ذلك في العقد، فكانت تعمد إلى الطلاق لأتفه الأسباب. فلو كان حق الطلاق للمرأة لزادت حوادث الطلاق مئة ضعف عن

(١) وهو كتاب «المرأة بين الفقه والقانون» (مجاهد).

(٢) هذه قاعدة من القواعد الشرعية، وهي مجموعة في مقدمة «المجلة» (مجلة الأحكام العدلية) وللصديق مصطفى الزرقا بحث فيها في كتابه «المدخل».

عددها الآن.

ثم إن الشرع جعل للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب كثيرة[1]. فإن امتنع الزوج عن الإنفاق عليها كان لها طلب الطلاق، والقاضي يطلقها منه إن أصر على عدم الإنفاق. وإذا كان به علة من العلل الجنسية أو مرضٌ سارٍ لا يمكن معه المعاشرة إلا بضرر عليها كان لها كذلك طلب الطلاق. وإن غاب غيبة طويلة أو حكم عليه بالسجن أمداً طويلاً. وإن وقع بينهما شقاق ونزاع وساءت الحياة الزوجية ولم يعد يمكن استمرار الصفاء فيها، وانتخب القاضي حكمين من أهله ومن أهلها فعجزا عن التوفيق وقررا التفريق، فرّق القاضي بينها وبينه.

وهذه الأحكام هي التي يُعمَل بها في الشام وغيرها، وهي لا تخرج عن المذاهب الأربعة التي اتفق المسلمون من ألف سنة على العمل بها واعتقاد أنها كلها مستمدة من الكتاب والسنة.

وللمرأة فوق ذلك حق المخالعة، وأن تختلع نفسها من الرجل على عوض أو بلا عوض، ولها أن تشترط في العقد أن يكون طلاقها بيدها، تطلق نفسها متى شاءت.

وكان النساء يشتكين من أن الزوج قد يستعمل الطلاق على غير الوجه الشرعي، فيحلف به لترويج بضاعة يبيعها، أو تأكيد خبر يخبر به، أو لمنعها من فعل أو لحثها على فعل، فأخذنا

---

(١) دمجنا هنا اجتهادات المذاهب الأربعة وأشرنا إلى القول الأوسع في كل مذهب.

من فتاوى ابن تيمية وابن القيم -رحمهما الله- ما أزيلت به هذه الشكوى وفُرّج به هذا الضيق، وجرى العمل على ذلك في مصر والشام من عهد بعيد.

فليس في أحكام الطلاق في الإسلام ظلم للمرأة، وليس لها حق الشكوى من هذه الأحكام. وأنا لا أقول هذا رداً على هذه المرأة التي سمتها إذاعة بلد «كذا» الزعيمة النسائية لأني أعلم أنها لا تستطيع أن تفهم هذه الأمور، وأنها فيما قالته إنما كانت تكرر الكلام الذي نسمعه من كل جمعية نسائية وكل متحكّك بهذه الجمعيات لغرض في نفسه، يعاد دائماً من غير فهم ولا علم ولا دليل.

لا، ولكن أبين هذا للقراء ليعرفوا وجه الحق في هذه المسألة، فلا يؤخَذوا بهذا الكلام المعاد الذي رثّ من كثرة الترداد، وغدا كالثوب الذي تتداوله الأجساد.

* * *

المساواة بين المرأة والرجل

نشرت سنة ١٩٨٧

ناظرت في عمري سيدة واحدة، كانت أديبة نصرانية لها مجلة نسائية، هي ماري يني، وكان ذلك في جريدة «ألف باء» الدمشقية سنة ١٩٣٠ (١٣٤٩هـ)، وكان موضوع المناظرة: «مساواة المرأة بالرجل».

وقد وافقت على أن تكون المساواة في الحقوق وفي الواجبات لا في الوظيفة، كالمساواة بين الموظفين: قضاة وأطباء ومدرسين، المساواة في شروط دخول الوظيفة والخروج منها والانقطاع حيناً عنها بالإجازة منها. وأبت هي إلا أن تكون مساواة كاملة شاملة.

وطال الجدال، فقلت لها: "أنا معك فيما تطلبين، أقرّ هذه المساواة على أن تكون كاملة، فإن كان الرجل عاملاً في المصنع والمرأة عاملة فيه، يحمل كل واحد منهما على عاتقه عشرة أكيال (كيلو غرامات) فليس من العدل أن تحمل -فوقها- في بطنها ولداً ويبقى هو خفيفاً، فأنا أقترح أن تطلبي من الحكومة أن تستصدر قانوناً يوجب على الزوج أن يحبل سنة وعلى المرأة أن تحبل سنة،

وعليه أن يرضع شهراً وعليها أن ترضع شهراً، وإلّا فكيف تكون المساواة بينهما؟

* * *

وقد مرّ على هذه المناظرة الآن نحو ستين سنة قمرية، حسبت فيها أن قد تغير جوهر هذه المناظرة وقُوّضت فيها الحجج، حتى رأيت أمس في جريدة «المسلمون» في صفحة المسلمات عنواناً جذاباً هو «هزيمة نساء التضامن»، فحسبتها «نقابة التضامن البولندية» التي كثر الحديث عنها، وإذا أنا أقرأ تحت هذا العنوان: «ندوة حول الحجاب والسفور». وقد وضعوا في أعلى المقال صورة سيدة محجبة بادية الوقار مشرقة الوجه، وأخرى منفوشة الشعر قد شاب شعرها وبدا نحرها، وقالوا أنها دكتورة وإنها من جمعية تضامن المرأة العربية (كذا).

فعجبت من جمعية عربية عنوانها لا معنى له في العربية، لأن التضامن هو أن يضمن كل واحد من الاثنين الآخر، ولا يكون ذلك إلّا بين اثنين أو أكثر، فكيف يكون تضامن المرأة الواحدة؟ ومَن الضامن ومَن المضمون؟ وقرأت المكتوب، فإذا هي «الرواية» نفسها التي عُرضت من ستين سنة ولا تزال تُعرَض كلما قامت مناظرة بين دعاة الحجاب ودعاة السفور: الحجج القوية والأدلة العقلية والنقلية من هنا، ومن هناك كلمات كبيرة لها دوي كدوي الطبل وهي خالية مثل الطبل ما لها مدلول واضح ولا لها معنى بيّن. ولا تحسبوا أني أقول هذا مبالغة أو سباً وشتماً، ما أقول إلّا ما هو الحق.

إنها ألفاظ يظنون أنهم يخيفوننا بها، كما يخيف اليهودُ من يظهر عيوبهم ويبدي سوأتهم بأنه «ضد السامية».

وقد كنا -ونحن صغار- نجدهم يقسمون العلماء إلى منوَّرين وجامدين. أما المنوّرون فهم الذين يشربون مشربهم، ويميلون معهم، ويقبلون آراءهم. حتى كتبت في إحدى الرسائل التي كنت أصدرها في دمشق سنة ١٣٤٨هـ أقول لهم: إن كنا نحن جامدين فإن الماء إن جَمُد صار جليداً كأنه لوح من البلور يتوقّد فيه في شعاع الشمس عشرة آلاف لؤلؤة، أما غيرنا فهم المائعون، كهذا اللوح إذا سال فصار وحلاً تطؤه النعال.

ثم جاؤونا بمسمى جديد، فقالوا «رجعي وتقدمي»، فمَن خالفهم فهو رجعي. وكنت أكتب سنة ١٩٤٩ في جريدة النصر في دمشق مقالات يومية بعنوان «كل يوم كلمة صغيرة»، فكتبت أقول لهم: إني لم أفهم والله ما هي التقدمية، فهل فيكم من يتكرم فيفهمني معناها؟ أليست من التقدم إلى الأمام؟ فإن كنت على الشاطئ واستقبلت البحر ومشيت فأنت تقدمي، وإن استدبرته ومشيت فأنت أيضا تقدمي، فكيف يستوي الشيء ونقيضه؟

وجدّت الآن كلمة جديدة هي «العلمانية»، وهي ترجمة لكلمة أجنبية معناها التقريبي «المذهب الذي لا يحفل بالدين ولا يلتفت إليه ولا يزن الأمور بميزانه». وأقل ما يدل عليه أنه لا يمشي مع الإسلام في طريقه، فإما إسلام يحتكم المسلم إليه، مُقِرّاً أسسَه، مقيماً واجباته، مجتنباً محرماته، يجعل ذلك سلّماً إلى رضا الله والنجاة في الآخرة، وأما اتباع هذا المذهب والبعد عن الإسلام وإبعاده عن أفكارنا وعن منهج حياتنا.

ومهما تبدلت الأسماء وتباعدت المصطلحات، يجمعها أصلٌ واحد هو محاربة الإسلام والكيد له والعمل على إبعاد أبنائه عنه، لأنهم يعلمون أنه إذا جاء الإسلام اضمحل الباطل وهوى صرحه، كما يضمحلّ ويهوي صنمٌ من الثلج طلعت عليه شمسُ يومٍ صافٍ.

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بَطَل السّحرُ والسّاحرُ

لذلك تراهم يختلفون على كل شيء، فإن كانت محاربة الإسلام نسوا اختلافهم واجتمعوا كلهم علينا وتداعَوا على خصومتنا وقتالنا.

* * *

ولقد كتبت وحاضرت في موضوع المرأة ما لو كُتب كله لملأ مجلداً، ولا أزال مستعداً -وأنا طالب علم من أصغر الدعاة إلى الله- أن أناظر ممّن كنا ندعوهم المنورين، أو التقدميين، أو الذين يُدعَون الآن العلمانيين، من ينتدبونه لمناظرتي، على أن تكون مناظرة منظمة، وقتها محدود ولها أسلوب متفق عليه ولجنة محكمين من أهل المنطق والإنصاف، حتى لا يأتي الجواب من الشمال على سؤال من اليمين، ولا الرد من الغرب على قضية من الشرق، ولا يكون فيه مغالطات ولا مهاترات ولا مشاغبات. وأنا أدفع من مالي لمن يغلبني بالحق في هذه المناظرة عشرة آلاف ريال (هي أقصى طاقتي وغاية اقتداري)، ولا آخذ من الخصم إن غلبته شيئاً.

قلت هذا لأنني وجدت السيدة التي دعتها الجريدة بالكاتبة

الإسلامية (صافيناز كاظم) قد أوردت حقائق بينة ظاهرة مؤيَّدة بالأدلة والبراهين، ولما جاء يتكلم من تقول الجريدة أنه أحد أنصار تحرير المرأة ذهب يتكلم في أصول الفقه ويقسم أنه درسه، فيكون قد سنّ بذلك سنة جديدة تقوم مقام شهادة الاختصاص التي تمنحها جامعة محترمة، ويكون -على هذا الأسلوب- لمن يقسم أنه درس الطب الحق أن يفتح عيادة وأن يستقبل المرضى وأن يداويهم، كأن القسمَ شهادةٌ جامعية!

ثم قالت «الدكتورة» التي تتزعم جمعية تضامن المرأة العربية أنها ترفض أن يفسر لها أحدٌ الدين لأنها تفهم الإسلام بعقلها، كما علمها والدها الذي أخبرها أن ما يتناقض مع عقلها فلا يضرها أن تخالفه! ولم تذكر مَن هو أبوها الذي تحتج بقوله هذا الذي خالف فيه علماء المسلمين قديماً وحديثاً، والذي يجعل الدين تبعاً لعقول الأفراد، أعني لتفكيرهم، فكل ما يراه الفرد متناقضاً مع عقله يحكم بأنه ليس من الدين. وهذا كله كلام ظاهر البطلان.

* * *

هذا كل ما عندهم؛ يرون أن الدعوة إلى التمسك بالدين رجوعٌ إلى الوراء، وأن العلمانية تقدم إلى الأمام.

وما وراء وما أمام؟ وما هذا الكلام؟ ومَن الذي قال لهم أن كل ما خلفناه وراءنا شر يجب اطّراحه، وما نجده أمامنا خير يجب التزامه؟ إنه حكم لا يصدق لا على الأفراد ولا على الأمم.

أنا واحد من الناس، أنظر الآن ورائي أرى ما مضى من

حياتي، فأجد شبابي الذي ولّى، وقوتي ونشاطي اللذين وَهَنا الآن وكلّا، وذهني الذي كان متوقداً، وقلمي الذي كان لخصوم ديني قناة ملتهبة من وادي جهنم أسوم به العذاب كل من تطاول على الإسلام... فهل الذي خلفته ورائي شرّ كله؟

وأنظر إلى ما وراء هذا اليوم في تاريخ أمتي فأرى عزاً ينطح النجم، ومجداً أخلد من الدهر، ودولة تخضع لها الدول، وجيشاً تتهاوى أمامه الجيوش، ومدارس وجامعات نوّرت للبشرية طريق المعالي. فهل هذا كله شر لأنه وراءنا؟

ثم ما للحضارة والحجاب؟ وما لهم يقرنون التكشف بالحضارة والحجاب بالبداوة والتخلف؟ هل الحضارة في هتك الحجاب وكشف العورات؟

يولد الإنسان عارياً كما يولد كل حيوان، ولكن الحضارة تلبسه الثياب. ويكون الحصان برياً متوحشاً عارياً، فإذا استأنس وصار أهلياً لبس السرج. فالثياب هي علامة الحضارة والتكشف هو الرجعية، فما لهم يقلبون الحق باطلاً؟

ثم إن هذا التكشف جنى على أنوثة المرأة وخسّرها ولم يربحها. كان الشاعر يرى أصابعها تبدو في سجاف الخيمة فيهيم بها حباً، وينظم فيها الشعر قصائد تكاد من حرارتها تلتهب التهاباً. وهو يراها اليوم على سيف البحر عارية لا تكاد تستر إلّا ما يقبح مرآه فيمرّ بها كأنه يرى رجلَي كرسي لا ساقَي فتاة!

* * *

يظن بعض نسائنا أن المرأة في أوربا وأميركا أحسن حالاً، يغترون بما يبدي القوم لها من مظاهر التكريم ولا ينظرون إلى ما يلازمها من بواطن امتهان لها أكبر من هذا التكريم. إنهم يرغبون فيها ما دامت شابة جميلة، فإذا كبرت وصارت عجوزاً أعرضوا عنها وأهملوها.

رأيت سنة ١٩٧٠ في بروكسل (وكان معي جماعة من الشباب يدلونني ويمشون معي) شارعاً أطفئ فيه الضوء الأحمر وظهر الأخضر وانفتح المجال للسالكين أن يعبروا الشارع، ووجدت امرأة عجوزاً ترتجف من الكبر، ما تكاد تحملها ساقاها، رأيتها تكاد تسقط على الأرض فلم يتقدم أحد لنجدتها، حتى طلبت من أحد الشباب أن يساعدها. وكان معنا أستاذ كبير فاضل زادت سنه على التسعين، وهو من وجوه أهل الشام، يقيم هنالك من زمن بعيد، هو الأستاذ نديم ظبيان الذي يعمل للإسلام وللدعوة، فلما رأى هذا المشهد قال لي: ألا تعجب إن عرفت أن هذه العجوز كانت إحدى جميلات بروكسل، وكانت تزدحم عليها الجوائز وتتسابق الصحف والمجلات إلى نشر صورها على غلافاتها، وكان الشباب يتزاحمون على نظرة وعلى حديث منها، فآل حالها إلى ما رأيت الآن؟

فليتذكر نساؤنا النعمة التي ينعمون بها في ظل الإسلام، وليعلموا أن نساء الغرب لسن أحسن حالاً من نسائنا، بل إن المرأة في الإسلام على حال تتمنى النساء جميعاً لو كنّ مثلها.

أنا إنما أتكلم عن القانون الإسلامي، لا عن فعل بعض الرجال. إذا خالف بعض الرجال أحكام الإسلام فامتهنوا المرأة

أو ظلموها كان الإسلام حجة عليهم في مخالفتهم ولم يكونوا هم حجة على الإسلام بفعلهم.

لما ذهب شيخنا (الشيخ بهجة البيطار رحمة الله عليه) إلى أميركا وداروا به على أكثر ولاياتها يحاضر عن الإسلام والمسلمين ويبيّن لهم حقوق المرأة في الإسلام قامت امرأة من الحاضرات فقالت له: "أستحلفك بالله، هل تقول ما تقول على أنه الحق أم أنه نوع من الدعاية تضعها بين أيدينا؟". فلما أيقنت أن ما يقوله هو الحق وأن هذا هو حكم الإسلام في المرأة قالت له وهي تبكي متأثرة: "خذوني لأعيش عندكم سنة ثم اقتلوني"!

المرأة هناك يخرجها أبوها من داره إن بلغت سن الكسب ولا ينفق عليها، فتسلك كل طريق، تقوم وتسقط، وربما كانت السقطة التي لا قومة بعدها. سمعنا بذلك من قديم... كان عندنا في المدرسة الثانوية سنة ١٩٢٣ أستاذ طبيب بعثوه ليتم دراسته هناك، هو الدكتور يحيى الشماع رحمه الله، فذهب يستأجر غرفة في دار، فرأى -وهو داخل- بنتاً خارجة من الدار وهي تبكي، فدفعته أخلاقه الشرقية أن يسأل عن سبب بكائها، فقالوا له أنها تريد أن تستأجر غرفة ولكنها لم تدفع فيها إلّا أقل من الأجرة المطلوبة. فلما ذهب يرقق قلوبهم عليها قالوا له: إنها بنتنا، أنا أبوها وهذه أمها، ولكنها بلغت سناً تُسأل فيه عن نفسها.

المرأة عندنا إن شاخت وكبرت بقيت مكرمة بين أبنائها وبناتها وحفدتها وحفيداتها، وهناك يحملونها إلى دار العجزة أو يمتهنونها حتى يضيق صدرها ويفرغ صبرها فتعرض نفسها للمهالك.

* * *

إن الذين يحاربون الحجاب إنما يدافعون عن غرائزهم، لا يريدون أن يُحجَب جمال النساء عن عيونهم، يريدون أن ينظروا إلى كل امرأة يمرون بها أو تمر بهم.

والحجاب تكريم للمرأة. ما الذي يحجبه الإنسان عن العيون ويحفظه من اللصوص؟ أليس الجواهر والشيء الثمين؟ لذلك شرع الحجاب للمرأة، شُرِع حفظاً لها لا تضييقاً عليها. وليس شرطاً في المتحجبة أن تلتزم زياً معيناً مضى زمانه. أنا قد بلغ اليوم أبناء وبنات حفدتي نحو خمسة عشر، فهل يوجب الإسلام عليّ أن أُلبس بنات حفيداتي ما كانت تلبس أمي وجدتي؟ مَن ظن ذلك يكون هو الذي ينفر من الحجاب.

وفي هذه الحضارة امتهان للمرأة إذ جعلوها وسيلة للإعلان عن البضائع. بل إن الموضة -كذلك- امتهان للمرأة، الموضة التي تتبدل دائماً بين

حين وحين لها فلسفة يقيمونها عليها، ذلك أن الرجل لا يستطيع أن يلم بجسد المرأة كله بنظرة واحدة، فهم يحرصون على أن تُظهر الموضة منطقة من الجسم يريدونها، حتى إذا ملّ الناس منها وزهدوا فيها انتقلوا إلى غيرها. وكل ذلك لمتعة الرجل. أليس هذا امتهاناً لكرامة المرأة؟

* * *

وبعد، فأنا لست خصماً للمرأة ولا أعادي الجمعيات النسائية، وإنما أدعو إلى تطبيق الإسلام. ولو أن الرجال طبقوا

الإسلام حقاً وقام من المسلمين مِن علمائهم مَن يدعو إلى منح المرأة حقوقها حينما كتب قاسم أمين كتابه لَمَا كتب قاسم أمين هذا الكتاب، لو دعونا إلى تحرير المرأة (وقد كانت فعلاً مظلومة باسم الإسلام) لما جاء من يجرؤ على تحريرها باسم الحضارة الأوربية الجديدة.

وبعد مرة ثانية، فأنا أرجو من الجمعيات النسائية ومن المهتمين بقضية المرأة أن يحكّموا عقولهم أولاً، وأن ينظروا لمصلحة المرأة حقيقة، لا أن يكونوا تبعاً لغيرهم، ولا أن يكونوا إمّعة إن أحسن الناس أحسنوا وإن أساء الناس أساؤوا، ولا ينظروا للّذة العاجلة.

وما أريد إلّا الإصلاح ما استطعت، ولا صلاح ولا إصلاح إلا فيما شرع الله. والسلام.

* * *

المحتويات

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com

من آثار المؤلف

(١) أبو بكر الصديق	١٩٣٥
(٢) قصص من التاريخ	١٩٥٧
(٣) رجال من التاريخ	١٩٥٨
(٤) صور وخواطر	١٩٥٨
(٥) قصص من الحياة	١٩٥٩
(٦) في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
(٧) دمشق	١٩٥٩
(٨) أخبار عمر	١٩٥٩
(٩) مقالات في كلمات	١٩٥٩
(١٠) من نفحات الحرم	١٩٦٠
(١١) حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
(١٢) هتاف المجد	١٩٦٠
(١٣) من حديث النفس	١٩٦٠
(١٤) الجامع الأموي	١٩٦٠
(١٥) في أندونيسيا	١٩٦٠
(١٦) فصول إسلامية	١٩٦٠
(١٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠

(١٨) فِكَر ومباحث	١٩٦٠
(١٩) مع الناس	١٩٦٠
(٢٠) بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
(٢١) تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
(٢٢) فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
(٢٣) ذكريات علي الطنطاوي (١-٨)	١٩٨٥-١٩٨٩
(٢٤) فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني)	٢٠٠١
(٢٥) فصول اجتماعية	٢٠٠٢
(٢٦) سيّد رجال التاريخ (محمد ﷺ)	٢٠٠٢
(٢٧) نور وهداية	٢٠٠٦
(٢٨) فصول في الثقافة والأدب	٢٠٠٧
(٢٩) فصول في الدعوة والإصلاح	٢٠٠٨
(٣٠) البواكير	٢٠٠٩
(٣١) الذكريات: الفهارس والصُّوَر	٢٠١١
(٣٢) كلمات صغيرة	٢٠١٦
(٣٣) أعلام من التاريخ	٢٠١٩